N A W Z A T S H A M D I N

رواية
NOVEL

نوزت شمدين

شظايا فيروز

نوزت شمدين ◆ شظايا فيروز

S P L I N T E R S O F F A I R U Z

رواية
NOVEL

شظايا فيروز

لا أعرف متى تمكّن مني النوم ليضعه أمامي في ذلك الحقل الأخضر الفسيح المليء بالزهور والطيور والأشجار المثمرة. كان يرتدي قميصًا أبيض بياقة مستديرة كالتي يرتديها رجالنا الإيزيديون، وعلى وجهه تلك الابتسامة والنظرة الحبيبان إلى قلبي. مدّ لي خاتمًا ذهبيًا مرصّعًا بأحجار ملوّنة يشعّ منها نورٌ أخّاذ، وقال دون أن يرفع عينيه السوداوين عني:

ـ صنعته لك من القمر. سيحميك من الحزن والظلام.

امتعني صوته، وملأ الفرح قلبي لأنني فهمت كلماته، واستطعت أن أنظر إليه وأتفحصه بشوق دون خوف أو خجل كما فعلت مرّة يتيمة في زمن الخزية. نهضت من على كرسي الخشبي الصغير، ودرت حول نفسي بفرح غامر لكي أريه فستاني الزهري الجديد. درت ودرت سعيدة بهدية خودي، الذي ما زال يتذكرني، وفكّرت بما سأقوله لعمتي عندما أعود إلى البيت ومعي خاتمي السحري. لكنني، حين توقفت وبداي على حصيري، لم أجده بقربي. كان بعيدًا يمشي في نفق ضوئي طويل شابكًا يديه من الخلف وينظر إلى الأرض. ركضت لألحق به، غير أن خطواتي انقنني في حدود مكاني دون أن أتجاوزها. لم أجد اسمه في ذهني لأناديه به. حاولت تذكّر الأسماء التي أعرف. سمعتني أتحدث بالعربية لكن بصوت عمتي. ذكرت أسماء صالحين وأخرى غريبة لا أعرف أصحابها. انطفأ النفق وتعتم الحقل، أصبح مقفرًا ولا شيء يحيطني سوى رمال وصخور مبعثرة وطيور سود برؤوس بشرية تحلق في دائرة واسعة جدًا في السماء. فتشت عن الخاتم في يدي. لكن لم أجد سوى قطعة ممزقة من فستاني الزهري الجديد.

شظايا فيروز/ رواية عربيّة
نوزت شمدين/ مؤلّف من العراق
طبعة جديدة ومنقّحة، 2017
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 11-5460، الرمز البريديّ 2190-1107، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com
التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: **سروان باران**/ العراق
الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس**/ بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-770-7

رواية
NOVEL

نوزت شمدين

شظايا فيروز

-١-

خلف تلال القمح المكومة بعناية ما بعد سنوات القحط ، أطلق الشبان حمامات طافت أسراباً مرتبكةً فوق المجتمعين ، إيذاناً ببدءِ جلسة إعلانٍ براءة القرى العربية من تلويث الشرف الأيزيدي ، تصدر صفوفها الأرضية الأولى وجهاء ورجال دين ، تلاهم العامة من الذكور ، وخلفهم على بعد أمتار قليلة وقف حشد من النساء الفرحات لتسجيلهن أول حالة حضور رسمية لاجتماع كان ، وعلى مرِ التأريخ ، حكراً على الرجال .

انتظر مفوض الشرطة المُكلف بملف القضية صفقة جناح آخر حمامة سلام ليتلو بنبرة رسمية نبأ اختطاف شابتين إيزيديتين قبل أسبوع من مجمعات الجهة الغربية للجبل ؛ وما رجحته شائعات تم تداولها مثل وباء أن المتورطين بالجريمة شابان مسلمان من قرى العرب . وبعد تأكيد المفوض عدم تسجيل أية واقعة اختفاء لذكور من قرى شرقي جبل سنجار العربية السبع التي جالها ، وعلى مدى يومين بيتاً بيتاً ، ساد جو من الارتياح ودارت دلاء وفناجين القهوة بين الرجال ، فيما كسرت النسوة سكون البيدر بزغاريد صاخبة إشهاراً لإعلان البراءة .

استغل شيخ مسجد قرية أم نهود ملا حسن الجو

الاحتفالي فارتقى كيساً من القمح أعد كمنصة أمام الحشد وردد عبارات دينية رافعاً ذراعه اليمنى القابضة على قصاصة ورق في الهواء ، فامتثل لإشارتها الحضور الذين سرعان ما غرقوا في صمت خطب الجمعة التي فرض الملا حسن سلطته الصوتية المطلقة عليها طوال عقدين كاملين ، ووسع مداها بمكبرات الصوت لتشمل قرى شرقي الجبل بأسرها .

قرأ من قصاصة الورق ، محاولاً في الوقت عينه البقاء متوازنا فوق الكيس المنتفخ :

﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ . ثم أوضح محركاً رأسه مع كل كلمة :

«أي لا يحل للمسلم إلا مسلمة مثله أو امرأة من أهل الكتاب مسيحية أو حتى يهودية» .

تفحص الوجوه لثوان وعاد ليقرأ :

﴿وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ .

وبعد أن أعاد للتأكيد قراءة الآية مرة ثانيةً تفاعل معه صوت نسويٌ من بعيد :

«آمنت بالله» .

«بناءً على ذلك لا يجوز شرعاً اقتران أبنائنا بالايزيديات لأنهن مشركات ولسنّ أهل كتاب ، ومن يفعل ذلك سيكون مصيره النار» .

كرر كلمة النار ثلاث مرات بصوت عالٍ أفزع تجمعا للحمام

في الجهة الأخرى من أكوام القمح وبعد لحظات صمت لفت المكان شهق الملا حسن بقوة قبل أن يرفع وجهه إلى السماء ويضيف بصوت فيه بحة :

«إلا من تاب» .

واستدرك شارحاً بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وآراء فقهية من قصاصات أخرى أخرجها من جيبي دشداشته دخول المرأة الإيزيدية الإسلام كشرط أول وأخير ليصح عقد نكاحها ، فاعترض الملا دحام إمام مسجد قرية (النعمان) ، مطالباً بتوضيح رأي الشرع الدقيق من المسألة وإن كان شرط اعتناق الإسلام ينبغي توافره قبل هروب الفتاة مع الشاب المسلم أم بعده .

أفرج الملا حسن عن ابتسامة رفعت طرفي شاربه الدقيق فأصبح مثل خط انهمر تحته شبر لحية تحركت يميناً وشمالاً :

«النص القرآني واضح» .

قاطعه مختار قرية (الجديدة) :

«لابد من إيجاد طريقة لمعالجة الواقعين في حب الأيزيديات من أبنائنا . نريد حلولاً عاجلة لمنع الفتنة» .

اهتز الملا حسن فوق الكيس وكاد يسقط لولا أن تطوع شبان قريبون أمسكوا بفخذيه . في هذه الأثناء كان مراد ابن شيخ قرية (أم نهود) قد برز واقفاً وسط حشد الجالسين . صاح كمن ينادي شخصاً بعيداً :

«بصل أبيض» .

التفت الوجهاء ورجال الدين مندهشين وهز الملا حسن رأسه في إشارة إلى عدم الفهم . أوضح مراد منتقلاً إلى طبقة صوتية أعلى :

«البصل الأبيض أفضل علاج لداء عشق الايزيديات» .

***

اشتهر مراد بالفراسة وسداد الرأي على مستوى قريته ذات الاثنين والأربعين بيتاً ، وكان الوحيد من بين إخوته وكلهم غير أشقاء ممن حصل على الاحترام العام لأسباب لا علاقة لها بمكانة والده حامد ، نجم مؤسس قرية أم نهود وشيخها . فقد كان انفراده بالحصول على شهادة دراسية ، وهي في الطب البيطري جاء بها من جامعة الموصل بعد سنوات من التعب والغربة ، مثل ختم تصديق على أي قول أو تصرف يصدر عنه .

وبالنسبة لوالده كان دليلاً أكيداً على نجاح ذرية زواج ما بعد الخمسين ، قياسا بزواجين سابقين في عصر شباب الفحولة ، لم يخلفا له كما ردد مراراً في جلسات فض النزاعات العائلية سوى وجع الرأس بستة ذكور فارغي العقول ، ملؤوا القرية بجيش أحفادٍ أكملوا سير آبائهم غير المشرفة .

«كسب مراد قلب الشيخ منذ أن كان بارتفاع جدي» ، تستهل مزنة دائماً بهذه الجملة حكاية إنقاذ مراد لأخيه غير الشقيق عاثر الحظ همام ، عندما ألقى إليه بالحبل في اللحظة الأخيرة قبل غرقه في مياه البئر ذات ليلة شتوية ماطرة .

وتحرص في كل مرة على أن تكون قصتها ضمن المدى السمعي لضرتيها ، مركزةً على مخارج حروف الكلمات المنقولة نصاً عن الشيخ وهو يصف بها نباهة وشجاعة ولدها الوحيد ، والآمال التي يعقدها عليه للتعويض عن خيباته مع أبنائه الآخرين .

خصص الشيخ حامد الحصة الأكبر من أبوته لمراد ، شجعه على ذلك استمرار تدرجه الدراسي خلافاً لأخوته وحتى باقي أبناء قرية أم نهود . فكان الوحيد الذي وصل إلى الصف السادس الإعدادي ، وعندما حصل على معدل أهله لدخول كلية الطب البيطري نحر الشيخ أكبر ثور يملكه مع كبشين سمينين ، ودعا إلى الوليمة أقارب ومعارف اكتظت بهم القرية . وقطع يومها وعده الشهير وهو يقاوم اختناق الربو بمنح مراد دعم افتتاح أي مشروع بعد تخرجه ، تاركاً له حرية الزواج بالفتاة التي يشير إليها حتى وإن تطلب مهرها ثروة من المال .

اقتصر ظهور مراد في القرية خلال الدراسة الجامعية على إجازة العطلة الصيفية ، كان يجول مثل السياح مبتسماً للنساء ، يلاعب الصبية ويتبادل مع الرجال أحاديث السياسة وتقلبات الوضع الأمني ، ورؤيته المستقبلية للأحداث في البلاد . كانوا يهزون رؤوسهم منصتين إليه باحترام وثقة ، فبمجرد أن يكون قد وصل للتو من المدينة فهذا يعني أن ما يقوله حدث أو سيحدث بالفعل . أما حواراته السريعة مع الشبان من أقرانه فكانت محصورة بنطاق ضيق من ذكريات ما قبل البلوغ ؛ إذ

وضعت ثقافته الجامعية وحياته المدنية في الموصل حواجز عالية بين الطرفين لم يستطع أن يتجاوزها إليه سوى ابن عمته ضياء الذي قاربه في العمر ، وجاراه في مرحلة الدراسة المتوسطة لولا وفاة والده واضطراره إلى تبديل وجهته من المدرسة إلى المزرعة .

عندما عاد مراد ليستقر في قريته طبيباً بيطرياً ناشئاً حافظ على مكانه المحايد بين طرفي صراع كبير ، ليس في قرية أم نهود فقط وإنما في جميع أنحاء محافظة نينوى ومركزها مدينة الموصل شمالي العراق . طرف موالٍ للحكومة العراقية ضم سياسيين وموظفين حكوميين أو منتسبي جيش وشرطة ، قابله طرف متشدد دينياً ضم فصائل وجماعات جهادية عدّ كل فرد من الطرف الأول كافراً وتصفيته واجباً شرعياً . فصار من الطبيعي أن تتضمن الحصيلة اليومية أنباءً عن اختفاء شاب من المنطقة لترصده الشائعات ، لاحقاً بزي الجيش أو الشرطة في نقطة تفتيش أو ضمن دورية داهمت مكاناً ما بحثاً عن مطلوبين أو حتى جثة مجمدة في مستشفى الطب العدلي بالموصل أو ملقاةً على إحدى جوانب الطرق ، فيما ترصد آخر ضمن مجموعة نفذت عملية مسلحة ، فاغتالت أحدا ما أو فجرت بيتاً أو سيارة أو تقاضت مبلغاً من المال كإتاوة .

أدرك مراد ، مدعوماً بنصائح ألح بها والداه ، أن عدم انشغاله بعمل يمنحه كل وقته وجهده سيجعله في نهاية الأمر ضمن أحد فريقي الصراع أو مؤيداً لأحدهما في أقل تقدير .

وألغى من ذهنه في الوقت عينه مغامرة بدء سيرته المهنية في مدينة الموصل ، التي كان سكانها أنفسهم ينزحون عنها هاربين من حوادث القتل اليومية بالتفجيرات والاغتيالات ، وما قابلها من ردود فعل أمنية ، باعتقالات يومية ونقاط تفتيش دائمة وزعت مثل بثور في أنحاء المدينة .

وهكذا بدأ مشروعاً تجريبيا بعشرين بيضة جمعها من أقنان دجاج القرية . رقدها في جهاز حاضنة يدوية الصنع صممه ، وفق قياسات علمية حصل على معلوماتها من كتيبات متخصصة وخبرته الدراسية . وبعد ثمانية عشرَ يوماً أخضع البيض لفحص ضوئي ، فأمسك كل بيضة بإصبعين ومررها بمهارة أمام مصباح ١٠٠ واط ليتأكد من ظل كتلة الجنين . ثم أعلن وسط هتاف أطفال القرية عن اكتشاف بيضتين فاسدتين فقط ، سلمهما مثل جراح في غرفة عمليات إلى معاونه ضياء ، الذي ركض إلى الخارج كمن يحمل قنبلتين ، وبعد لحظات كانت رائحة البيض الفاسد التي تشبه رائحة الكبريت تملأ المكان .

نقل البيض المفحوص إلى جهاز تفقيس صممه أيضاً بنفسه وأثمر جهد انتظاره ثلاثة أيام أخرى عن خمسة عشر كتكوتا بألوان مختلفة ، عده متابعون من القرية رقماً قياسياً على مستوى الدواجن ، ونتيجةً لم تكن لتبلغها أية دجاجة في المنطقة بأسرها أياً كان عرقها أو عمرها أو حجم مؤخرتها .

ربى القطيع الصغير في حجرة متروكة ضمن مساحة منزل والدته مزنة ، مستخدماً فيها كل ما تعلمه خلال خمس سنوات قضاها في كلية البيطرة ، ليحصل في نهاية الأمر على تسع دجاجات بوزن فاق كيلوغرامين لكل منها ، مع دجاجة واحدة فقط مشلولة وبوزن كتكوت . هذا النجاح شجع عدداً من إخوته وأبنائهم على تبديد أوقات فراغهم الواسعة بمساعدته على بناء غرفة مستطيلة واسعة من اللبن ، وتخصيصها مدجنةً لتربية فروج اللحم تبرع الشيخ حامد بمساحتها الأرضية مع مبلغ من المال للمواد الأولية . وعندما أطلق المشروع توزعوا متبرعين بالعمل لجمع وترقيد البيض وتفقيسه ، والسهر على تربية القطيع ثم بيع الإنتاج جملةً للمجزرة والباعة الجوالين أو بالتجزئة ، بعرض الدجاجات على جانب الطريق العام الذي يلف جبل سنجار أو التجوال بها بواسطة سيارة الشيخ حامد التيوتا بيك آب .

كانت أمه وزوجتا أبيه تراقبن بقلق بالغ ازدهار تجارته ، وعبرن في أوقات سلمهن ، خلال تجمعات غسل الثياب أو خبز التنور ، عن تخوفهن من غموض موقفه من مسألة توسيع سريره بخلاف باقي الرجال في قرية أم نهود ، الذين بدؤوا جميعاً خطواتهم الحياتية الأولى كبالغين بالزواج ثم انخرطوا بعدها في صراع الخصوبة والتباهي بعدد الأبناء . اعتقدن بادئ الأمر أنه مربوط إلى إحدى فتيات الموصل الماكرات من زمن الجامعة

مستقبلهن التعليمي بانتهاء المرحلة الابتدائية ، أو كما فرضت العادة بانتفاخ الثديين بحجم بصلتين ، حتى وإن حدث ذلك في الصف الأول الابتدائي .

ما كرهه في مسألة الزواج أن ينتهي به المطاف كباقي رجال القرية الذين لا يتذكرون تواريخ ميلاد أولادهم لكثرتهم ، ويتفاقم الأمر في مرحلة الشيخوخة ؛ إذ يخفقون في تمييز أحفادهم عن باقي صغار القرية . لكن ذلك لم يمنعهُ من الحُلم بفتاةِ أحلام ركب تفاصيلها ورسم ألوانها بريشة خياله ، لم يجد شبيهة لها من بين فتيات أم نهود اللواتي كن بالنسبة إليه متشابهات في الملامح والتصرفات وحتى نبرات الصوت ، كأنهن استنسخن جميعهن من شخص واحد . لذلك فإن نظرته إليهن لم تتعد قط خط الأخوة المحفور بعمق كحدود وضعها بينه وبينهن ، وكاد أن يمد هذا الحاجز غير المرئي أبعد من ذلك ، لولا أن جاء الثالث من نيسان سنة ٢٠١٣ ، يوم تعثر بجمال فيروز وأفرج قلبه لأجلها عن أول خفقة حب .

***

كانت ظهيرةً ربيعيةً بدت فيها الغيوم البيض السابحةُ في السماء مثل حقل قطن مقلوب ، تمشطه ريح هادئة بالكاد حركت أيضاً سنابل القمح المفروشة على مد البصر ، نزولاً من السفح الشرقي لجبل سنجار . هنالك على جانب الطريق المعبد الرئيسي الفاصل بين قرى العرب والايزيدية ، كان مراد قد منح

بعمل سحري ، وحاولن فك عقدته بمبطلات حصلن على وصفاتها من تاريخ صراعهن الطويل للظفر بقلب الشيخ حامد . وعندما عجزت خلطات الماء والملح وحرق البخور الهندي ، ولفافات آية الكرسي الورقية المدسوسة في الوسائد ، وثلاث جلسات رُقية مدفوعة الثمن قام بها الملا حسن ، انتقلن إلى مرحلة المواجهة المباشرة بتفخيخ مسارات تنقله اليومية بعذراواتٍ مرتديات ثياب المناسبات الملونة ، غارقات بماء الورد ، وعلى وجوهِهن حمرة خجل ما قبل الزواج . وضعن كل واحدة في مكان محدد بدقة متوافقة مع خط سيره الصباحي والمسائي بين المنزل والمدجنة . فصار من المعتاد أن يصادف في الصباح واحدة عند الباب تروم طرقه لطلب حاجة منزلية ، وأخرى تتصنع مروراً متقابلاً في الطريق مع نظرة وابتسامة خاطفتين . ويشاهد لدى عودته مساءً سيناريو مكرور لجر الحمار العنيد أو هروب الخروف الطائش ، يتبع ذلك طلب مساعدة أنثوية يلبيها كأطرش لا يستمع إلى كلمات الشُكر الممطوطة ، وأعمى لا يرى رشقة الغمزات ولا جمهور الواقفات في البعيد بانتظار نتائج قلبية سريعة .

كان بالنسبة لفتيات القرية فارساً بمواصفات كاملة ، ذريته مؤكدة بالاستناد إلى الخصوبة الأرنبية التي يتصِف بها والده وزوجاته . كما أن وسامته وشهادته الجامعية ومشروعه الواعد جعلت منه هدفاً لهؤلاء الفتيات اللواتي تنتهي في العادة سكة

لنفسه إجازة غير محددة الوجهة ، بعد أن أكمل تدقيق مبيعات ذلك النهار من الدجاج ، الذي تكفل ببيعه على الطريق اثنان من أبناء أخيه همام .

يدان متشابكتان خلف الظهر ووجه في الأرض ، مشية قروية تقليدية مارس مراد طقوسها وحيدا في النهارات المشمسة ، عندما لم تكن لديه التزامات متابعة قطيع دجاج تحت التربية . الاستثناء الوحيد الذي ميزه شكلياً عن بقية القرويين ارتداؤه القمصان والبناطيل ، متأثراً بسنوات الدراسة في مدينة الموصل بدلاً من الثياب العربية التقليدية . ولهذا كان يبدو بالنسبة لمن لا يعرفه عابِر سبيلٍ من إحدى بلدتي سنجار آو تلعفر غير البعيدتين ، وليس واحداً من أبناء قرى المنطقة . سار متخطياً صخرتين ضخمتين تشبهان من البعيد نهدين عملاقين شكلتا بوابةً انحدر منها الطريق الترابي المؤدي إلى قرية أم نهود ، التي استمدت منهما تسميتها . توقف مرتين ، واحدةً لقياس سرعة تحرك الغيوم فوقه ، ابتسم خلالها لما تبقى فيه من طفولة شبهت له غيمةً بدجاجة عملاقة . والمرة الثانية عندما ركل بعنف علبة بيرة ماركة EFES ، وفكر لحظاتٍ وهو يتابعُ دحرجتها على الإسفلت إن كانت ركلته نتيجةً لخزين التعاليم الدينية الذي يملأ رأسه ، أم لطرد ذكرى سكرته الأولى والأخيرة في رحلة جامعية أعيد منها إلى القسم الداخلي لسكن الطلاب محمولاً على الأكتاف . كاد أن يلتفت عائداً

أدراجه إلى القرية لحظة أن لمحها ، كانت جالسةً يلوحُ وجهها المستدير من فوق كومة بصل أبيض على جانب الطريق في الجهة الأخرى . حدث الأمر بسرعة فائقة ؛ إذ تمكنت قيود شبحية من تعطيله تماماً ، وشيء ما شطب الطريق والسماء والحقول والجبل ، وأبقى فقط على صورتها تشع نورا وتشده إليها بجاذبية مغناطيسية عجز عن مقاومتها ، على الرغم من خطوات متعثرة حاول الهرب بها ، لكنها سرعان ما أعادته ليجتاز الطريق متوجها نحوها وقلبه يدق مثل دف .

أبقت الفتاة بصرها ضمن نطاق البصل المرتفع أمامها مثل تل صغير ، في وقت كان مراد يحاول أن يتذكر الكلام أو يستعيد السيطرة على أطرافه ، فلم يتوقع أبداً أن يقابل النسخة الأصلية من صورة حبيبته الحُلمية خارج نطاق جمجمته . وجدها مكتملةً بعيون عسلية واسعة وأنفٍ مدبب منحوت وفم منتفخ الشفتين بصبغة رمانية ، مع جبين صغير مرتفع باستدارة مُذهلة توجت بخصلات شعرٍ تمرية اللون ، أفلتت من غطاء رأسها الأبيض المنهمر على كتفيها من الجانبين ، مانحاً إياها مع ثوبها الزهري شكل ملاك في طقس صلاة وليس بائعة بصل .

تحيته كانت بلا صوت ، ألقاها في جوفه غير قادر على نقلها إلى حباله الصوتية . هزت رأسها كأنها ترد عليه سلامه ، فيما أبقى خجلُها الشديد بصرها على كومة البصل ، مترددة

بين النهوض أو البقاء جالسة . دفعه ارتباكه إلى القيام بكل شيء بنفسه . وضع بعجالة حباتٍ من البصل في كيس بلاستيكي أنتشله من حزمة كانت على الأرض بجوار ميزان ذي كفتين معدنيتين . وزن بكثير من الفوضى كيلو غراماً واحداً ، وبعد أن تأكد من السعر المكتوب بخط عريض على قطعة كبيرة مربعة من الورق المقوى ربطت بعناية خلفها إلى عمود قصير من أكياس البصل ، ألقى بألف دينار مدعوكة في كفة الميزان الفارغة المرتفعة وفر من المكان .

في صباح اليوم التالي وقف مثل فزاعة طيور وسط حقل قمح محاذٍ للطريق ليرصد من هناك وصولها بشاحنة صغيرة بيضاء ، فتأكد من أنه موقعها اليومي الثابت ، كما أن لزميلاتها الخمس الأخريات مواقعهن المتباعدة في الجانب ذاته من الطريق . منحه ذلك شيئاً من الراحة بعد ليلةِ قلقٍ طويلة من احتمالية عدم ظهورها وانتقالها إلى مكان آخر خارج مدياته البصرية .

غير موقعه مرات عدة قبل أن يستقر على هيكل جرار زراعي نصفه مغروس في التراب . بدا المشهد من هناك أكثر وضوحاً ، وقناعته أكثر رسوخاً من أنه يعرفها منذ زمن بعيد ، وأن حياةً ما جمعتهما من قبل ، وما يجري مجرد تكرار كشف قدره اللثام عن لحظاتها ليعيشها مجدداً . كان هذا حاجزه الرئيس لهواجس ذهنية حاولت تذكيره باستحالة أي علاقة

معترف بها دينياً أو اجتماعيا بينهما ، وقد تكون نتيجة تماديه موتهما سوية .

أدمن مراد مراقبتها وصار يعرف أوقات وصولها مع الأخريات ، ومغادرتها وموعد تناول غدائها وعودة الشاحنة البيضاء لتوزيع أكياس بصل إضافية عليهن . كان يبقيها ضمن مدى بصره طوال ساعات النهار يناور في طريقة الرصد وأمكنته ، يتسلل خلف صخرتي أم نهود ، يُخرِج رأسه بين حين وآخر ليلتقط صورة ذهنية لها ثم يعود إلى سيرته الأولى ، وهكذا حتى ينقضي النهار ليظهر في اليوم التالي ، سائراً جيئة وذهاباً بين حقول القمح وعباد الشمس ، أو معلقاً فوق هيكل الجرار ، يقتنص فرص مرور قطعان الأغنام على جانبي الطريق ؛ ليرافق الرعاة أو تعطل مركبات الفلاحين على الطريق ، فيهرع لتقديم المساعدة كأعذار يستخدمها للتواجد في المكان . أما عند بلوغ قطعان الدجاج التي أوكل مهام تربيتها بالكامل لإخوته حتى مرحلة الإنتاج فكان يتكفل هو بالإشراف على بيعها في موقعين وزعهما على جانب الطريق المقابل لبائعات البصل . جعل في كل منهما شبكة معدنية شكلت قفصاً للدجاج جال بينهما طوال ساعات النهار . ثم عاد إلى مواقعه السابقة بعد نفاد أعدادها .

-٢-

«تغير الولد كثيرا» ، قالت مزنة للشيخ حامد وهي تكش عنه ذباب الظهيرة المزعج :

«أصبح كئيباً ويقضي النهار بطوله خارج القرية» .

أشار الشيخ بيد مرتعشة إلى سقف الغرفة قائلاً بصعوبة :

«الله يحميه . ولدي عاقل» .

«أخاف أن يدخل علي ذات يوم بدشداشة قصيرة ووجه ملتح ، فيحرم ويحلل على هواه كما يفعل البعض من أبناء القرية هذه الأيام ومنهم ابنك وضاح» .

بصق الشيخ في الهواء ثم انخرط في نوبة سعال رجته بعنف قبل أن تجلسه مزنة وتسند جسده الهزيل بوسادتين :

«أعوذ بالله منهم وبريء أنا من هذا المخبول وأفعاله إلى يوم الدين» .

ثم تابع بعد أن استعاد شيئاً من هدوئه :

«لم يحترم هذا العاق شيب رأسي ، وأنا الذي بلغت الثمانين . دولته الإسلامية ستجلب لبيوتنا الخراب» .

قاطعته مزنة على الفور :

«أسكت شيخ . سوف تجلبها أنت إن سمعك أخوك عواد أو ابنه ، فلا قِبل لك أو لمراد بمعتقلات الجيش والشرطة» .

-٣-

لم يحقق مراد أي إنجازٍ عاطفي طوال حياته القروية أو الجامعية ، فلم تسجل سيرته أي نزوة أو محاولة للاقتراب من فتاة خارج حدود الزمالة أو الأخوة ، وقابل ذات مرة اعتراف زميلة له بعد خروجهما من امتحان مادة علم المناعة في المرحلة الثالثة من الكلية بالوعظ والإرشاد ، وتوجيه أحاسيسها نحو بيت الزوجية المستقبلي ، ولهذا لقبه زملائه في الكلية تندراً بـ الملا مراد .

ولمواجهة قلة خبرته في شؤون الحب ، كان عليه أن يجد طريقة للتواصل مع فتاة البصل ، التي لم يعرف لها اسما أو يسمع صوتها طوال شهرين من المراقبة . فكر باعتماد أسلوب المراهقين الكلاسيكي ، بأن يرمي لها رقم هاتفه الجوال أمامها فوق كومة البصل ويهرب بأقصى سرعة ؛ ليختبئ خلف إحدى الصخرتين بانتظار اتصال منها أو رسالة . تمرن ساعات على ما سيقوله لها وهو هائم بين الحقول يزخ منه العرق ، أو سائراً في مدجنته وصوته المبحوح ضائع وسط نقنقة الدجاج . وفي كل مرة كانت تواجهه احتمالية عدم إتقانها لغير اللغة الكردية التي يتحدث بها معظم الأيزيديين ، فيصاب بالإحباط لأنه لم يكن

يعرف منها سوى كلمتين أو ثلاث فقط ، دون أن يكون متأكدا إن كان يلفظها بنحو صحيح أم لا .

كان يسمع أحياناً في ليالي غرامه الأولى صوت معارضة يهمس من داخله ، داعياً إياه للتراجع والاستسلام لحقيقة أن لا أمل لأي علاقة طبيعية بين مسلم وإيزيدية . وكان ذلك الشيء الضئيل الوحيد المتبقي من مراد القديم نجح دائماً في قمعه وهو مستلق على ظهره فوق سطح مدجنته ، فارشاً ذراعيه ومباعدا ما بين رجليه ، وعيناه معلقتان مثل مسحور ببساط النجوم الشاسع في السماء ، وصوت عبد الحليم حافظ يحاجج عبر سماعة الأذن أهالي قرية أم نهود والعراق بأسره :

«بتلوموني ليه» .

مع بلوغ الصيف أوجه وصل مراد إلى أقصى مديات العشق ، أقر بذلك أولا لضياء عندما حاصره الأخير بالأسئلة وبمخاوف من أن يكون متورطاً بتعامل استخباري مع إحدى الجماعات الدينية المسلحة ، بعد أن شوهد مراراً وهو يتلفت على الطرقات وبين الحقول أو مختبئاً خلف الصخرتين . ثم اعترف به لوالديه ، متأثراً ببرودة الكمادات التي كانت تضعها أمه على جبينه ذات ليلة لطرد الحمى من رأسه . فانتابت الشيخ حامد نوبة ضحك أفلت على أثرها طقم أسنانه الصناعي من فمه ، وتدحرج مطقطقاً على صدره . فلم تكن بلاهة مراد الطارئة وشروده الدائم سوى وقوع في الحب . شيء

عادي غير مخيف ، بمعنى أدق غير مميت .

أعلن مراد حبه ، أطلقه من صدره مثل فراشات طافت الأرجاء وأبقاها هي في قلبه سراً وأحكم غلق الباب ، فكل ما فكر به وأخذ يناضل من أجله كان التمسك بتجربته العاطفية الأولى ، والوصول بها إلى أقصى حد يسمح به القدر . ومن بين جميع الأفكار والخطط التي ناقشها مع نفسه لم يجد غير البصل الأبيض مفتاحاً يوصله إلى قلبها .

***

مال أهالي قرية أم نهود نحو اعتماد توصية مراد في اجتماع إعلان البراءة ، ولكن ذلك لم يحدث عملياً إلا بعد ثلاثة أيام ، عندما قص طاعن ضرير يدعى صُعيب رؤياه وهو محنطٌ خشوعاً بين يدي الشيخ حسن في مسجد القرية ، وحولهما حشدُ مصلينَ بعيون دامعة . قال بأنه رأى قصعة كبيرة مملوءة ببصل أبيض يشبه حبات اللؤلؤ هبطت من السماء لتستقر في باحة منزل الشيخ حامد ، فأكل منها سكان قرية أم نهود جميعاً ، ومع ذلك فاض البصل كأنه ينبع من القصعة .

رفعت الرؤيا الملقنةُ من مراد معدل استهلاك البصل الأبيض في القرية ، بعد توسيع نطاق استخدامه ليشمل وجبة الفطور الصباحية ، مقلياً مع البيض ومغلياً مع الحمص أو مفروماً ومخلوطاً بلبن الغنم . وتم تغليب مقاديره على باقي

المكونات في وجبتي الغداء والعشاء ؛ من الدولمة والثريد والقلية والتبسي والشيخ محشي . وأجريت تعديلات على طقوس ما بعد العشاء إذ صار يقدم كفاكهة مع التفاح والبرتقال والبطيخ والعنب . ونصحت به العجائز كعلاج فعال ضد التهابات الأذن والسرة وفروة الرأس والدمامل والبواسير والقضاء على رائحة القدمين . كما أقر الشيخ حسن بقدرة البصل الأبيض على طرد الشياطين والجن الكافر ، وتحسين القدرة الجنسية عند الذكور . فصار من المتعارف عليه وضع نصف بصلة بيضاء إلى جوار قطعة صابون غار داخل الليف في الحمامات ، وبصلة كاملة مقشرة تحت الوسائد في غرف النوم ، وحلقات معلقة بخيوط يلهو بها الرضع في المهود .

انتقلت عدوى جنون البصل سريعاً إلى حيوانات القرية ؛ فكوفئت به الحمير المطيعة ، وأضافه مراد إلى مكونات عليقة العلف في مدجنته ، وامتلأت بمخلفاته الزرائب وأكواخ الدجاج ؛ لدرجة أن أصبح الحليب والجبن والبيض بنكهة البصل . وإزاء ارتفاع مستوى الطلب مقابل ندرة المعروض ، بسبب انتهاء مخزون البيوت وعجز الحقول الصغيرة عن تلبية حاجة أم نهود المتزايد ، لجأ الأهالي إلى شراء البصل الأبيض من الفتيات الأيزيديات على جانب الطريق الرئيسي .

قطف مراد ثمرة خطته بالتطوع لشراء حصص أمه وزوجتي أبيه من البصل ، وكان هذا امتيازاً عائلياً جديداً حصل عليه

بسهولة تامة ؛ لثقة الجميع برجحان عقله واستحالة ارتكابه حماقة عشق أيزيدية كافرة ، كما فعل عدد من مخابيل أم نهود في فترات متباعدة ، وعلى رأسهم عبود الشقيق الأصغر لوالده .

انتظر انتهاء نسوة القرية من جولة التسوق قبل أن يبدأ مناورته الأولى ، حاملاً كيس مزنة القماشي السميك بتأخير مدته نصف ساعة ، بسبب حالة تردد مفرطة أوقفته خلف الصخرتين تخلص منها بهرولة خفيفة لاجتياز الشارع المعبد ؛ ليجد نفسه في مرمى شاحنة كبيرة ومسرعة أخطأته بنصف متر ، ودفعه عصفها الهوائي إلى الجانب الآخر ، دون أن يلمح منها سوى مؤخرتها الموحلة وذراعاً بشرية ظاهرة من جهتها اليسرى ترتفع وتنخفض بحركات توحي بشتيمة .

بدت بثوبها الطويل متعدد الألوان وغطاء رأسها الأبيض الذي لفت بطرفه نصف وجهها ، مثل تماثيل الشمع في متحف الفنون الشعبية بجامعة الموصل . أعانته هذه المقارنة بين المشهدين على الاقتراب بشيء من الثبات ، وبصره يتنقل مسرعاً بينها وبين كومة البصل الأبيض . دقق في كل حبة اختارها قبل أن يضعها في الكيس ؛ ليبدو منهمكاً فيما يفعل ويخفي ارتباكه الشديد ، بينما كانت هي مبقيةً يدها على طرف الغطاء اللافِ وجهها تنظر إليه بدهشة ، وتجر بصرها إلى ناحية أخرى كلما تحرك رأسه باتجاهها . عبأ الكيس بستة كيلو غرامات من البصل ، وبطريقة الدفع الأولى ذاتها ودون أن يتفوه

بكلمة واحدة ، وضع الثمن في كفة الميزان ، ثم مضى منحنيا إلى الجهة اليمنى مثقلاً بالبصل ، وعقله بصور مقربة عديدة لصفاء عيني حبيبته التي ظلت تلاحقه نظراتها حتى اختفائه بين الصخرتين البعيدتين .

***

نقل مراد اهتمامه من الدجاج إلى البصل الأبيض ، وقسّم الحصة العائلية اليومية منها إلى ثلاث وجبات شراء ، صباحاً وظهراً ومساءً ، بمعدل كيلوغرامين لكل منها ضماناً لرؤية بائعة البصل عن قرب أكثر عدد ممكن من المرات . وأصبح بمرور الأيام ناشطاً في مجال التعريف بفوائد البصل الأبيض وأهميته لصحة الإنسان وإطالة عمره . ولم يمضِ أسبوع دون أن يمرر معلومة جديدة بشان اكتشاف علمي يتعلق بالبصل ، فيعلنها الحاج حسن خلال خطبة الجمعة ، لإضفاء صفة إيمانية عليها أو تدور بها أمه بيوتات القرية أو فروع العائلة في القرى العربية المجاورة . وضمن في حواراته دعواتٍ لترميم العلاقات بين العرب المسلمين والأيزيديين وإعادتها إلى ما كانت عليه في عقود ما قبل سقوط العراق محتلاً بيد الجيش الأمريكي . وانتهز فرص تجمعات الأعراس ومجالس العزاء للحديث عن القواسم المشتركة بينهما ، وكيف أن الطرفين يعيشان على أرض واحدة ويأكلان خيراتها سويةً . واستشهد لهم مراراً بالسيول

التي تجرف في المواسم غزيرة الأمطار قرى بأكملها في المنطقة ، دون تفريق بين العربية منها أو الأيزيدية ، فتختلط أنقاضهما ببعضها في مجرى سيل واحد ، في إشارة ربانية واضحة على وحدة المصير .

واجه معارضة واضحةً من رجال القرية ، بسبب ما وصفوه بتغير الظروف والقلوب ، وبقي ذلك في إطار سلمي لحين أن قبض أخوه غير الشقيق وضاح على رقبته أمام باب مسجد القرية ، عقب انتهاء صلاة عيد الفطر ، ووصفه بالمخنث الذي يريد تنكيس رأس العرب بدعوات التنازل للإيزيديين ، الذين سمحوا لقوات البيشمركة الكردية بالتمدد من كردستان شمالاً والسيطرة على محيط جبل سنجار ، بما فيها من بلدات وقرى . دفعه بعنف وهو يصرخ :

«أنظر حولك جيداً . لا يرتفع شبر بناء ولا يطلى جدار في قريتنا أو غيرها من قرى العرب دون موافقة مباشرة من الأمن الكردي (الآسايش) . هم يعتقلوننا ويهددوننا ويطردوننا من قرانا» .

أمسك بياقة قميص مراد وجره لإكمال مشهد سطوته ، مدعوماً بابتساماتِ رضا مطتها وجوه أنصاره ، الذين ميزتهم لحاهم ودشاديشهم القصيرة عن باقي جمهور الواقفين :

«ستلتحق بعمك وابنه المُرتَدينِ . هذا آخر إنذار لك هل فهمت؟» .

إشاعات انتماء وضاح لتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام ، واعتقاله مرات عدة من قبل الأمن الكردي ثم القوات الأمريكية قبل جلائها ، إضافة إلى جسده الضخم ورأسه الأصلع الكبير بوجه أخفت اللحية معظم ملامحه ، كل ذلك منحه مساحةً من الرهبة في نفوس إخوته قبل أهالي قرية أم نهود ، وحاول تعزيزها ذلك الصيف باستعراضات مماثلة للقوة ، مستفيداً من إقعاد المرض لأبيه الشيخ حامد ، ومنعه من أداء واجبات سلطته ، وانتقال عمه عقيد الشرطة عواد مع ابنه هشام النقيب في الجيش للسكن في مدينة الموصل ، بعد تلقيهما رسائل تهديد تحريرية مجهولة المصدر خيرتهما بين البقاء أو الموت . لذلك لم يجرؤ أحد في ذلك اليوم على تخليص مراد من قبضته ، إلى أن ظهرت مزنة وفي يدها عصا غليظة لوحت بها أمام وجهه مهددةً ، فامتثل والشر يقدح من عينيه وتمتم بكلمات غير مفهومة ، فيما رشقت مزنة المتفرجين بسيل شتائم مصحوبة بالبصاق لامتناعهم عن حماية ابنها . لكن حتى سطوتها تلك لم توقف الأحاديث التي كانت تجري من وراء ظهرها ، في أن سبب دعوات التآخي التي أطلقها مراد هو وقوعه في حبٍ محرم ، وراحت ضرتاها تدسان تكهناتهما المعادية في حوارات الغيبة النسوية ، في أن الشيطان قد تلبس مراد بعد وقوعه في حب فتاة أيزيدية من مجمعات سفح الجبل ، مرجحتين أن يكون قد تيزد . وأيدتا مزاعمهما برفضه

المطلق الاقتران بأي فتاة عربية مسلمة ، وعدم أدائه الصلوات في مسجد القرية ، وقدمتا عدداً من أحفادِهن شهوداً أقسموا وأيديهم على المصحف أنهم سمعوه في إحدى المرات وهو يحدث دجاجة كان يحملها في المدجنة ، عن حبه لإيزيدية سلبت عقله ، وأنهم شاهدوه كذلك وهو يرسم صورة طاووس ملك(*) بِحبر أزرق اللون على ذراعه .

راحتا تُذكران أهالي القرية بهروب عمه عبود مع فتاة إيزيدية من المجمعات ذاتها قبل نحو ثلاثة عقود ، وكيف أنه تسبب بتوتر كاد أن يتحول إلى نزاع مسلح بين أهل الفتاة الغاضبين وعائلة عبود ، التي كان عدد من أفرادها وبينهم الشيخ حامد على صلة بأصحاب نفوذ في الجيش والشرطة وحزب البعث الحاكم آنذاك . وانتهت الأزمة باتفاق سري قضى بزواج عبود من الفتاة وبقائه منفياً عن القرية والمنطقة بأسرها إلى الأبد . ولتدعيم أقوالهما وتقريب الحالة إلى أذهان الفضوليات في القرية ، كشفتا عن صورة بالأبيض والأسود لعبود سرقتاها من صندوق ذكريات الشيخ حامد ، ودعتاهُن وهما تُسبِحانِ الخالق ، إلى رؤية الشبه الكبير في الملامح بينه وبين ابن مزنة الممسوس مراد .

(*) طاووس ملك : يقدسه الإيزيديون وهو شعارهم ويقسمون به .

قابل مراد حقد أخيه المعلن وشائعات أهالي القرية بتكثيف دعوات السلام بصبغة دينية ، ونبه إلى ضرورة تبادل الزيارات مع الإيزيديين في المناسبات والأعياد ، استنادا إلى أحاديث نبوية . وكتب بخط أسود عريض على قطعة قماش كبيرة الآية القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، علقها بمساعدة ضياء على جدار المسجد مستفيداً من غطاء حماية وفرته رسالة شفهية شديدة اللهجة من والده طريح الفراش نقلتها مزنة بتصرف ، مضيفةً الكثير من مفردات التهديد والوعيد لكل من يحاول مس مراد بسوء .

***

تمسك مراد بطقسه اليومي في شراء البصل الأبيض ، حتى بعد حالة التشبع الجماعي التي أصابت أهله وباقي سكان القرية وحيواناتهم ، ولم يعد أي منهم يطيق رائحته . بالنسبة إليه كان تفاحة الحياة وجسراً يربطه بنصفه الآخر ، فبقي محافظاً ولأشهر عديدة على سقف شراء كيلوغرام واحد يومياً قسمه إلى نصفين صباحي وعصري ، وباستثناء الجُمع والأيام الماطرة بغزارة ، أو التي فرضت فيها قوات الأمن حظراً تاماً للتجوال ، أو غابت فيها بائعة البصل لأسباب مجهولة ، تواجد مراد في المكان بدوام كامل ، دون أن يجد سبيلاً يحقق به انتصاره العاطفي الأول غير نظرات العيون الخاطفة عبر بها

عن فيض حبه ، وسلسلة محاولات فاشلة قام بها لجعلها تتحدث ولو بكلمات قليلة من أجل تحقيق أكبر أمانيه بسماع صوتها ومعرفة أسمها . فأبدى انزعاجهُ ذات مرة من الجو المترب ، وأخرى من الحرارة الخانقة ، ومرتين أو ثلاثاً من مصاعب الحياة وغلاء المعيشة . وإزاء صمتها المطبق ومظهره القريب من مختل يحدث نفسه ، أخذ يوجه إليها أسئلة قصيرة بلكنة أقرب إلى العربية الفصحى ، متجنبا النظر صوبها مباشرة . كان يردد كلمات سؤاله مثل تلاميذ المدارس وكيس البصل يرتعش بين يديه :

«لماذا لا تبيعون غير البصل الأبيض» . «هذا البصل عراقي أم مستورد؟» .

وأدرك بمرور الأيام أنه لن يحصل أبداً على رد صوتي ولا إيمائي ، فأجبر نفسه على حركة آلية اعتادها مثل فرض يومي توجب القيام به ، واكتفت هي بمراقبته مثل تمثال نصف مغطى أو غير مغطى الوجه لا يسمع ولا يتكلم ، حتى جاء عصر الثامن من حزيران ٢٠١٤ عندما وقفت على جانب الطريق وفي غير موعدها شاحنة نقل البصل الصغيرة وترجلت منها امرأة تبكي بحرقة . كان مراد قد فرغ للتو من توجيه سؤاله غير المجاب والتفت ليغادر ، لحظة أن شاهد المرأة تسير حافيةً بخطى جنائزية على الحصى . نادت بصوت مجروح بين خطوة وأخرى «فيروز» ، فاستجابت بائعة البصل بالركض نحوها ، وبعد

كلمات قليلة قالتها المرأة باللغة الكردية تعانقتا وانخرطتا في بكاء ونحيب ، في حين سار مراد مبتعداً بعينين غارقتين بدموع فرح معرفته لاسمها . ردده مع نفسه لكي يعتاد عليه لسانه ويطبعه مراراً وتكراراً في رأسه ، ثم ارتفع به صوته صارخاً «فيروز» وهو يدخل حقل قمح مالت سنابله المتأخر حصادها ، مختصراً طريق عودته إلى أم نهود .

-٤-

كان يراقبني باستمرار . حتى بعد شرائه للبصل حجته للاقتراب مني واختفائه من الطريق والحقول ، ولا يبقى هنالك أثر لظله المتسرب من خلف الصخرتين ، حيث اعتاد المكوث ساعات بلا حراك . كنت أشعر بحضوره ، تحس به روحي قبل أن يترجم ذلك جسده النحيل إلى شيء ملموس بظهوره المبهج ، ويظلُ شيءٌ مني مربوطاً إليه وهو يختفي بهدوء الشمس المنزلقة إلى المغيب .

في الأيام الأولى لدخوله عالمي الصغير بدا مثل ذئب ينتظر غفلةً من الفريسة لينقض عليها . كان يظل ساكناً في البعيد ويتوارى ليظهر كشبح في مكان آخر ، وعلى الرغم من إبقاءه مسافة كبيرة فاصلة بيننا لكنها لم تكن كافية أبداً لإبعاد الخوف عني ، ولاسيما أن ذلك تزامن مع سماعي لأخبار مرعبة نقلتها لي عمتي نديمة عن اعتداءات شاع وقوعها بعد الإنهيار الأمني في البلاد ، وراحت ضحيتها فتياتُ مثلي ظهورهن غير محمية برجال . كانت تسرد لي تفاصيل حكاياتها المنقولة عن رجالات قريتنا ، بعد أن نكون قد فرغنا من العشاء وأختاي نامتا ، فتقوم بحركات توضيحية تمثيلية

متنقلة برشاقة في أرجاء الغرفة ، حاملةً سكيناً أو مكنسةً على أنها بندقية ، وتختتم في العادة قصصها بعبارة حفظتها عن ظهر قلب :

«نحن الإيزيديات شرفنا أغلى من حياتنا» .

القصص ذاتها كنت أستمع إليها من النسوة العاملات معي في بيع البصل ولكن بتفاصيل أخرى تزيدها رعباً . كنّ يسردنها ونحن محشورات في حوض شاحنة نوري الأعور ، متوجهات إلى العمل أو عائدات منه . كُن يصورن أي شخص من غير ديانتنا الإيزيدية ولا يحكي لغتنا الكردية خطراً ينبغي الحذر منه بجملة من التعليمات ، أهمها وجود لافتة ظاهرة ، متضمنةً سعر البصل ؛ لأن الحوارات تبدأ في الغالب بحجة السؤال عنه ، والامتناع عن الرد على أي كلام يقوله زبون من هذا النوع مهما كانت لطافته ونظافة ملابسه ، والاكتفاء بالإشارات إذا تطلب الأمر رداً .

انتظرتُ أن تبادر إحداهن وتعبر عن مخاوفها من وجود شاب عربي أحرقته الشمس يراقبنا من الجهة الأخرى للشارع طوال ساعات النهار . أن يضعنه في الأقل ضمن مشاهداتهن التي يُحصينها في نهاية اليوم ، بشخوصِها وأحداثها كأنها جزء من متطلبات العمل اليومية . لكن يبدو أنني الوحيدة التي انتبهت إلى حضوره ، وربما هو من أراد أن يكون ظاهراً لي فقط ومحجوباً عن الأخريات .

أتذكر دائما منظره المضحك عندما رأيته أول مرة وهو يمشي نحوي بخطوات صغيرة ووجهه في الأرض مثل صبي معاقب . كنت أجلس كما أفعل دائما على الكرسي الصغير ذي المقعد الأسفنجي ، وأمامي على الأرض ما أعرضه للبيع من البصل الأبيض . ظننته واحداً من مجانين القرى الجدد ، ففتشت حولي عن حصاةٍ مناسبة للرد على أي حماقة متوقعة ، لكن شعره المصفوف وملابسه غير المتضررة ، وحركاته المسالمة وهو يقرفص على الأرض ويزن لنفسه البصل ، منحه شيئاً من البراءة ولي الطمأنينة . وما جعلني أتحفظ على خوفي منه في الأيام التالية هو شعور داخلي بأنه صار جزءاً مهماً أضيف إلى عالم مشاهداتي الفقير ، وأصبح قلقي من غيابه أكبر من حضوره .

***

كنت في السادسة عشرة عندما وجدت نفسي مكلفةً بتربية شقيقتي نعام وكَولي بعد وفاة والدتي بنوبة قلبية مفاجئة . ولما كان والدي قد اختفى قبلها بسنة وشهرين في دهاليز مدينة الموصل البعيدة ، أضيفت إلى عاتقي مهمة إعالتهما أيضاً ؛ إذ لم نرث سوى ديون صغيرة عطف علينا أصحابها في القرية بعدم سدادها . كنا شبه مقطوعات من شجرة ، ولم يكن قد بقي لنا في هذا العالم سوى خودي

وعمتنا نديمة التي حولها الفُقر مع زوجها المقعد إلى نصف مجنونة .

أتقنت سريعاً مهام أمي في البيت ، مستعينةً بتجربة أشهر طويلة في إدارته قبل وفاتها ، حين اضطرها غياب والدي وفقرنا المدقع للعمل في بيع البصل الأبيض على الطريق ، تاركةً لي مسؤولية مراقبة شقيقتيّ وإعداد ثلاث وجبات طعام يومية ، والخبز مرتين في الأسبوع ، وغسل الثياب وأواني الطعام ، مع مهام أخرى إضافية كجلب المياه بدلو من البئر وإفراغه في برميل الباحة ، وجمع النباتات المتيبسة وروث الخراف وقوداً لتنور الطين .

بعد مرور أسبوع الحزن الأول على رحيل أمي ، أصبحتُ بديلاً عنها في بيع البصل الأبيض ، على جانب الطريق المبلط الفاصل بين قرى الإيزيدية والعرب شرق جبل سنجار . وتولت عمتي الساكنة إلى جوارنا في بيت طين مشابه لبيتنا العناية بشقيقتي خلال ساعات النهار ، إضافة إلى مهام رعايتها كأم حنون لزوجها المصاب منذ سنوات بعيدة بشلل رباعي .

كنت أذهب إلى العمل فجراً برفقة نسوة من قريتنا والقرى المجاورة ، تقلنا بأجور شهرية شاحنة نوع شوفرليت يملكها جارُنا نوري الأعور ، الذي كان يؤمن لنا أيضاً ما نطلبه من محصول البصل من مخازن بلدتي ربيعة وتلعفر المبردة . كان يوزعنا واحدة تلو الأخرى على طول جانب الطريق العام المقابل لقرى

العرب . نجلس متباعدات تفصلنا عدة مئات من الأمتار طوال ساعات النهار ، كل منا أمامها بضاعتها من البصل معروضة للمركبات العابرة وأهالي القرى . كنت أول واحدة تركب الشاحنة صباحاً وأخرهن نزولاً منها قبيل الغروب . يعيدنا نوري الأعور ومعنا ربحنا الضئيل ، وفي أيام كثيرة مع شيء من المحاصيل غير المباعة ، بانتظار أن يحالفنا حظ بيع أوفر في اليوم التالي .

الفَقر أيضاً كان قد منعنا من الالتحاق بالمدرسة البعيدة ، التي كان بعض فتيات القرية المحظوظات يذهبن إليها كل صباح ويعدن منها بفرح حاملات حقائبهن الملونة . كبرت ومعي حلم أن أصير مثلهن حتى غاب والدايّ ، فنقلت حلمي لأختيّ خصوصاً كَلي التي تصغرني بعشر سنوات ، فقد كانت ذكيةً تصنع دماها بنفسها من قطع قماش زائدة وصوف تنتفه من الوسائد . تحفظ أي حوار يجري أمامها لترددده لاحقاً مقلدةً صوت المتكلم وحركاته ، وأحيانا تتحدث مثل البالغين فتبدو عجوزاً صغيرة ومضحكة بجديلتين فتملأ بيتنا الحزين مرحاً ، بخلاف نعام التي تصغرها بأربع سنوات ، فقد كانت نحيلة الجسم ، هادئةً قليلة الكلام ، وفي وجهها صفرة توحي على الدوام بأنها مريضة . في ليالٍ عديدة خلال الأسابيع الأولى لوفاة أمي كانت الكوابيس تلصقها بي في المنام . ترتجف باكيةً ، تمسك شعري بيديها الصغيرتين ، تمسح وجهها بوجهي

وتتشممني ، بحثاً عن رائحة أمنا وتفيق لتجدني إلى جوارها ، فيأكل الحزن قلبي لأنني لا أستطيع أن أكون أمها مهما فعلت .

***

في ليلة جمعة أوائل صيف مصائبنا الكبرى أخبرت عمتي نديمة بكل شيء . فصمتي عن شخص غريب يتابعني في كل ساعة من ساعات النهار لم يكن مُحتملاً ، وأشعرني باقتراف معصية ما ، ولم أكن أدري في أي لحظة سيحاسبني عليها خودي .

كانت جالسة خلفي على ركبتيها تمشطني كما اعتادت والفانوس قد رسم ظلينا على الحائط . قلت لها حين انتقلت بالمشط إلى الجهة اليسرى :

«هنالك من يراقبني وأنا في العمل» .

توقف المشط وتحرك ظلها ببطء قبل أن تنادي وهي تضع يدها على كتفي اليمنى :

«يا شيخ آدي(*)» .

ثم سألتني هامسة في أذني :

«هل قال لك شيئا . هل هو من البيشمركة أم الجيش أو الشرطة؟» .

(*) شيخ آدي : اسمه بالعربية عدي بن مسافر . شخصية مقدسة لدى الإيزيديين ويقسمون باسمه .

«إنه شاب من قرى العرب يشتري مني البصل كل يوم ولا أرد عليه مطلقاً حين يتكلم . ماذا أقول له وأنا أصلا لا أعرف العربية» .

سمعت رنة صدرها وهي تضربه بيدها :

«قد يكون إرهابياً» .

تملكني الخوف قليلاً لكنني سرعان ما تذكرت صوته الرفيع وملامحه الوديعة ، فاستبعدت أن يختفي وراءهما شخصٌ شرير .

«لا أدري كيف أشرح هذا ، هو خجول لا يفعل شيئاً سوى شراء البصل ، والبقاء متواجداً على الدوام في مكان ما من الجهة الأخرى للشارع» .

ضغطت على كتفي بقوة :

«فيروز ، لقد بلغتِ الثامنة عشرة ، وأهل قريتنا يتحدثون عن جمالكِ وقوامك الرشيق . ثم أنتِ تقضين يومك كله على الطريق . عليك أن تكوني حذرة فالكثير من الكلاب المسعورة في هذا العالم» .

ثم قالت :

«ربما يتواجد من أجل واحدة من زميلاتك» .

اختفى ظلانا من الحائط فجأة بعودة التيار الكهربائي واشتعال مصباح الغرفة الأبيض ، كاشفاً عن كَولي ونعام الغارقتين في النوم ، ودولاب الثياب المتهالك ذي المرآة المفطورة ،

وصورة طاووس ملك المعلقة على الجدار . سحبت نفسي بهدوء من بين يديها لأطفئ الفانوس ، فيما ظلت هي جالسةً على ركبتيها والمشط بيدها منتظرةً إجابة مني :

«كلهن متزوجات وبمثل عمر أمي . كما أنه يشتري البصل مني فقط ومرتين في اليوم!» .

أغاظها ما قلت فنهضت وأسرعت نحوي لتقبض على ذراعي فاهتز الفانوس بعنف :

«هل تعتقدين بأن كل النساء الإيزيديات اللواتي سمعنا عن انتحارهن منذ سنوات متنّ منتحراتٍ فعلاً . المحترقات أو المشنوقات أو المطعونات أو المثقوبات بالرصاص؟» .

بقيت تنظر في وجهي قبل أن تضيف :

«لقد قتلهن العشق أيتها اليتيمة والوحيدة مثل شجرة بلا رجل يسندك» .

لطمت فخذها الأيمنى بيدها الخالية وقالت كأنها تذكرت شيئاً جديداً :

«يا خودي الكبير . لابد أن تفهمي أن عشق الأيزيدية للمسلم أكبر حرام . سيتسابق رجال هذه القرية العفنة ، التي لا تحمل اسماً إلى قتلك غسلاً للعار ، كما حدث مرات عديدة في محيط الجبل . هم يروجون قصص الانتحار فقط لأن القانون لا يعاقب عليه ، ولن تلوك بها الألسنة الطويلة شرفهم . لكن في الحقيقة فإن الضحية فتاة أو امرأة قتلها والدها ،

زوجها ، أخوها ، جارها لا يهم من فعل ذلك أو درجة ما اقترفته المقتولة ، فالمهم هو غسل العار ودفنه إلى الأبد» .

ثم أشارت بالمشط إلى أختيّ النائمتين :

«فكري بِهاتين المسكينتين قبل أن تسمحي ببراءتك وقلة تجاربك في الحياة بأي شيء مجنون يحدث» .

أخذت الفانوس المطفأ من يدي . رفعته إلى حدود وجهينا ثم طرقت زجاجه الساخن بظفر سبابتها :

«الشرف مثل هذه الزجاجة ، قد يهشمه أي شيء لكن لا شيء يصلحه أبداً» .

***

تحذير عمتي وخوفي الفطري تبخرا صباح اليوم التالي ، وأنا ألمحه قادماً من البعيد . شيء مني كان قد تحرر لمجرد أنني بُحت بسري وأنزلت حِمله الثقيل عن كتفيّ فهدأ ضميري . في ذلك اليوم تحديداً أدركت بأنني أنا التي تتلهف لرؤيته وتراقبه على مدار اليوم . أحسست بقلبي يرقص في صدري مع سماعي لصوت حذائه وهو يضرب به الحصى مقترباً من مكاني . أبقيت بصري في حدود بياض البصل ، غير قادرة على رفع رأسي ووجهي نصفه مغطىً بمنديلي . شاهدت يديه تدخلان وتخرجان من جيبي بنطاله الأزرق ، ثم انحنى ليضيع نصف جسده خلف كومة البصل ، ملتقطاً حباتٍ صغيرة تكفي وزن

نصف كيلوغرام . منحتني تلك الثواني القليل فرصة لإعادة استكشاف شعرهِ الفاحم وأذنيه الصغيرتين ، وتلك الملامح االطفولية الطيبة في وجهه . عرفت أنه سيقول بأن الجو يشتعل بالحرارة فور أن وضع ثقالة الوزن فوق الورقة النقدية في كفة الميزان . وخمنت بأنه سيمسك رأس الكيس بيد ويضع راحة يده الأخرى أسفله كأنه يعيد وزن البصل ، وسيمشي خطوتين مترددتين ويتوقف ليقول شيئاً لكنه سيتراجع . وكنت أعرف بأنه سيعود عصراً ليقوم بكل ذلك مجدداً ، بالصبر ذاته ، فأقابله بالتجاهل نفسه . أصبحت معتادةً على وجوده ، بل مُحتاجةً إليه ، وفي الأيام التي منعتني فيها الأمطار أو خطبٌ عام من الخروج من البيت كنت أتقلب في الفراش طوال ساعات الليل بانتظار الصباح ، مُتلهفة لخطاه وصوته ومتابعته وهو ينحني برأسه مبتعداً . كان قد أصبح واحداً من بين أشياء عزيزة على قلبي ، وتعويضاً من خودي عن حرمانه لي من أشياء أخرى ظلمت بفقدانها . هل هذا ما كانت تدعوه عمتي عشقاً . هل هو أن تخشى حد الموت فقدان شخصٍ وأنت تدرك تماماً بأنه لن يكون لك أبداً .

***

افتتح ملك الموت صيف مصائبنا الكبرى بخطفه روح زوج عمتي المشلول ، منهياً بذلك إحدى عشرة سنة من الرقود

الإجباري وتعفن الجلد والتبول مثل رضيع في الفراش ، وانتهت برحيله أيضاً استراحتنا القصيرة من الأحزان ، ورجع ألم فراق الأحبة ليعصر قلوبنا . لم يستطع أي من الجيران الموجودين في ظهيرة ذلك اليوم إيقاف حالة الجنون الكاملة التي أصابت عمتي عندما تأكدت من وفاة زوجها . لم تلطم وجهها ولا شدت شعرها أو مزقت ثيابها ، بل سارت ذهاباً وإياباً خارج منزلها ، حاملة بين يديها إحدى دمى كَلي القماشية ، وكلمتها على أنها زوجها ، مذكرة إياه بسنوات العشرة وبحلمهما غير المتحقق في الإنجاب ، وعاتبته لأنه تركها وذهب حتى دون أن يودعها ، ثم غنت له وطبعت بين مقطع وآخر قبلةً على جبين الدمية ، في حين كانت عجائز من القرية ، وعلى سبيل الاحتياط ، يرفعن من بيتها وبيتنا السكاكين وعلب الكبريت والفوانيس ، واثنتان منهن وقفتا قرب البئر تحسباً لأي خطوة انتحارية من عمتي التي خالفت توقعاتهن ، وركضت حافيةً صوب حقول القمح المحصودة حديثاً ؛ وظلت هنالك تلقي على رأسها التراب والقش حتى العصر ليجلبها نوري الأعور إلى مكان عملي بينما انشغل الباقون في القرية بتهيئة الجثمان للدفن .

-٥-

قبل أيام قليلة من سقوط مدينة الموصل بأيدي مسلحي تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام ، اختفى وضاح مع عدد من مُلتحي قرية أم نهود ، ودار همسٌ في الأرجاء أن رجالاً آخرين أيضاً اختفوا من قرى العرب المجاورة ، مما أنذر بحدث وشيك استعدت له العائلات بدفن ممتلكاتها الثمينة من حُلي وأموال نقدية في أمكنة سرية ، وأبقى الرجال بطاقاتهم التعريفية في جيوبهم أو قريبة من رؤوسهم ، في أوقات النوم ، متوقعين حملات تفتيش عسكرية تداهم بيوتهم في أية لحظة لتتبع آثار المختفين . وأخذت الشائعات تتحدث عن ثورة عشائر تلوح في الأفق ضد القيادات الأمنية ، التي أحكمت بأوامر من بغداد قبضتها على مدينة الموصل ، بعد جلاء القوات الأمريكية عنها . ووزع عشرات الآلاف من الرجال في نقاط تفتيش نصبت في منافذ الأحياء السكنية والأسواق والشوارع الرئيسية ومداخل الجسور ، فأضحت المدينة طوال سنوات سجناً كبيراً تمشي الحياة فيها مثل سلحفاة . وعندما حل العاشر من حزيران ذلك العام ، تركت تلك القيادات والجنود أسلحتهم الخفيفة والثقيلة والسكان غنائم للمسلحين ، وهربوا

بثياب مدنية صوب إقليم كردستان شمالاً . ومن بقي منهم من أهل المدينة والقرى المجاورة تخفوا في المنازل بانتظار ما ستسفر عنه الأحداث .

أبدلت الشائعات الثورة الشعبية بانقلاب قام به حزب البعث العربي الاشتراكي ، ونقلت وسائل الإعلام في الأسبوع الأول أخباراً من مصادر مجهولة عن قيام عزة الدوري ، نائب الرئيس العراقي في عهد ما قبل الاحتلال الأمريكي بتفقد مبنى محافظة نينوى وأدائه صلاة الجمعة وإلقاء خطبتها في جامع النبي يونس ، لكن أياً من تلك الأخبار لم تُدعم بمعادل صوري يثبت صحتها ؛ وبعد أن أحكم مسلحون ملثمون قبضتهم على مؤسسات الدولة ومنافذ المدينة بالكامل ، وجهت مواقع التواصل الاجتماعي في الانترنيت دعوات للأهالي للتوجه إلى ساحة الاحتفالات ، من أجل سماع كلمة سيلقيها زعيم حزب البعث والرئيس العراقي الجديد عزة الدوري . وعندما تجمع بضع عشراتٍ متأهبين مع كاميرات هواتفهم النقالة لتوثيق الحدث التاريخي ، مرت أرتال من سيارات الهمر العسكرية المستولى عليها ، وعلى متنها مسلحون لوحوا ببنادقهم ورايات الدولة الإسلامية السوداء ، وكانت وجوههم قد تحررت للتو من لثامها فبانت اللحى الكثة والشعور المرسلة ، فيما كانت مكبرات الصوت تصدح بأناشيد نصر دينية بلا موسيقى . بعد دقائق من ذلك الاستعراض صعد رجل مسلح في عقده

الخامس ذو لحية حمراء فوق إحدى المركبات ، وألقى كلمةً مرتجلة أعلن فيها قيام خلافة الدولة الإسلامية في محافظة نينوى المحررة وعاصمتها الموصل ، وأن لا أحزاب ولا فصائل أو جماعات بعد اليوم ، والكلمة باتت لدولة الخلافة وحدها ولا راية تُرفع سوى رايتها .

في ذلك المساء كان الشيخ حامد نصف جالس في فراشه يئن من آلام المفاصل والبطن ، بينما زوجاته الثلاث متحلقات حوله بانتظار نتائج مفعول حفنة من الأدوية تناولها ، وجهاز التلفزيون ذو الشاشة الكبيرة يعمل بصوت عالٍ يتوافق مع انخفاض قدرة الشيخ السمعية ، لكن دون أن يتابعه أحد غيره كالعادة . صاح الشيخ فجأة :

«بربي هذا صوته» .

لم يخطر ببال الزوجات سوى ملك الموت ، فتلفتن مذعوراتٍ صوب الباب ونظرن إلى السقف ثم رددن سويةً أدعية الخوف . تناول الشيخ بيد مرتجفة نظارته السميكة ، في حين نهضت مزنة لجلب المصحف المعلق على الحائط لإلقاء آخر تلاوة على أسماعه المحتضرة . اتسعت عيناه دهشةً خلف العدستين الموجهتين إلى التلفاز ، الذي كان يعرض ضمن نشرة الأخبار مقطع فيديو رديء التصوير ، يُظهر رجلاً بلحية حمراء يخطب في جمع من الناس وبيده بندقية كلاشينكوف . قال الشيخ وملامح وجهه تنقبض ألماً :

«إنه شقيقي عبود بشحمه ولحمه» .

***

ظنت قرى شرقي الجبل العربية كما باقي مناطق سنجار أنها بمأمن من الغزو ؛ لوجود قوات البيشمركة الكردية لحمايتها ، فأخذت تستقبل لأسابيع هاربين من أحكام وقرارات دولة الخلافة الفتية في الموصل ، من بينهم عواد وابنه هشام اللذان عادا مذلولين إلى أم نهود ، بعد أن أجبرتهما المحكمة الشرعية على مبايعة الخليفة وتوقيع ورقة توبة ودفع رسومها البالغة مائتي دولار . تعامل أهالي القرية معهما كراجعين للتو من الموت ، فشكلوا وفوداً تناوبت على زيارتهما للوقوف على ما يجري في العالم الآخر ، ومطابقة روايتيهما مع ما بحوزتهم من معلومات قبضوا عليها من أفواه نازحين آخرين ، أو وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي . تولى هشام سرد تفاصيل انسحاب الجيش من المعسكرات والثكنات ، مخلفاً وراءه مختلف أنواع الأسلحة والعتاد والآليات ، وروى لهم كيف تنقل من بيت إلى بيت بثياب مدنية ، خوفاً من الوقوع بأيدي المسلحين الذين أمسكوه في نهاية الأمر ولمعجزة هبطت يومها من السماء لم يصوبوا إلى رأسه رصاصة كما فعلوا مع آخرين ، ومنحوه فرصة حياة أخرى مقابل القسم والتعهد بعدم العودة إلى صفوف الجيش المرتد . بينما تعامل والده عواد مع فضول

الزائرين بترديد ببغاوي لقصة انكسار جهاز الشرطة المحلية في نينوى ، وتبخر عناصره دون أن يطلقوا رصاصة واحدة من مسدساتهم وبنادقهم ، وفرار مئات المجرمين المدانين من السجون لينضموا فورا إلى جيش مسلحي الدولة الإسلامية . وفي كل مرة وصل فيها إلى الجزء الخاص برفضه نزع زيه الرسمي وإبداله بثياب مدنية ، كما فعل زملاؤه وعناصر الشرطة تحت إمرته ، إمتلأت عيناه بالدموع وتوقف عند هذا الحد ، شاطباً من حكاية استسلامه ربطهُ نهاراً كاملاً بعمود نور أمام مركز شرطة باب الشط وسط الموصل ، وهو بثيابه الداخلية وفردة جوارب واحدة . لم يقل حتى لابنه كيف أنه تلقى صفعاتٍ وبصاقاً وشتائمَ من مسلحي التنظيم المحتفلين بانتصارهم ، مبقياً مرارة ذلك سراً ينهش في أعماقه .

***

استغل مراد انشغال الناس بنكسة الموصل وتداعياتها وعاد ليقضي اليوم بطوله في المناطق التي يسمح له مجال الرؤية بمراقبة فيروز ، بعد أيام تنقل فيها بواسطة سيارة البيك آب بين مجمعات الأيزيدية في الجانب الغربي من الجبل ، بصحبة ضياء وواحد من أكثر أبناء إخوته نميمة بحجة عرض الدجاج على الأهالي هناك . وتعمد أن يساوم بنفسه في السعر مع زبونات أمام بيوتهن ، وباع لاثنتين بنصف الثمن المطلوب ، وأهدى لأخرى دجاجة ، إضافة

للمبيع كقرائن أوقعها بيد ابن أخيه ليدعم بها فرضية عشقه لإيزيدية من تلك الانحاء ، ويحصن بذلك فيروز ويبعدها قدر المستطاع عن شرور ثرثاري قريته وعلى رأسهم زوجتا أبيه .

عذبته تلك النظرة الحزينة الخاطفة التي كان يلتقطها من عينيها خلال ثواني وجوده القليلة بقربها لشراء البصل . كانت مثل رسائل شكوى مشفرة تفتش عن مدرج قلبه ، عن مطرقة كبيرة تكسر جدران الصخر التي تفصلهما ، وهو كمن في دنيا أخرى عجز تماماً عن الرد عليها . أفضى بهذا التحليل الروحي لضياء في لحظات الاعتراف العاطفية الخالية من اسم فيروز وإحداثيات وجودها على الخريطة . وفي كل مرة كان يتوصل إلى النتيجة ذاتها ، وهي ضرورة أن يعرف المزيد عنها ، وأن لا يكتفي بمجرد عشق صورة يجهل ما يختبىء خلفها . تطابق ذلك مع نصيحة ضياء له ، وهو يضع يديه على كتفيه وينظر في عينيه ، كما اعتاد أن يفعل في مواقف التشجيع :

«الحقول ليست مجرد خضرة ومحاصيل ، بل تفاصيل أخرى كثيرة لا يقوى على اكتشافها سوى الفلاح ، والنساء يا صديقي حقول وأسرار على الواحد منا أن يملك إجابات ولو عن بعض منها» .

في مطلع شهر تموز قرر مراد توسيع نطاق المراقبة لتشمل سكن فيروز ، كخطوة أولى لمعرفة شيء عن ظروفها الحياتية . ركن عصراً سيارة البيك آب على بعد يتيح له رؤية واضحة ،

وبعد ساعتين من الانتظار وصلت شاحنة البصل ، أقلت فيروز مع كرسيها والميزان وثلاثة أكياس بصل ، ثم سارت بضع مئات من الأمتار وأقلت زميلة لها ثم الباقيات حتى امتلأ حوض الشاحنة بهن ، وانطلقت صوب الجهة الغربية لجبل سنجار ، وفي أثرها مراد قابضاً على المقود مثل متسابقي السيارات ، ومذياع السيارة يصدح بأغنية كردية رفع لحنها الصاخب من حماسته دون أن يفهم من كلماتها شيئاً .

انعطفت الشوفرليت بعد عشر دقائق من المسير يميناً ، وسلكت طريقاً غير معبدةٍ وخلفها ذيل غبار طويل ، متخطيةً مجمعين سكنيين للأيزيديين وعدة بساتين وتلاً صغيراً قابلته عدة مساكن ، بدت مثل ثآليل طينية متجاورة شكلت نهايةً للطريق . هنالك توقفت الشاحنة وانقشع ذيلها بينما مراد يتابع من داخل البيك آب نزول فيروز الاحتفالي غير مصدقٍ جملة الإنجازات القلبية المتحققة باكتشافه المكان الذي تعيش فيه ، ورؤيتها في محل غير الذي اعتاده لأكثر من سنة ، وتلك الهدية الكبرى التي اقتنصها لحظة تحرر شعرها الطويل من ربطة رأسها ، وهي تمد آخر خطوة لتختفي بعدها وراء بابٍ أخضر اللون .

هدايا الحب لم تتوقف عند ذلك الحد ، ففي صباح اليوم التالي حدثت المعجزة التي انتظر طويلاً تحققها . كان الجو متربا والريح تهدأ تارةً وتعصف بالمكان تارة أخرى ، حركتهُ معنوياته

العالية بخفة ، فاجتاز الشارع راكضاً نحو فيروز وعلى وجهه ابتسامة فرح . انحنى أمامها وكومة البصل تفصل بينهما ، التقط حبتين بكلتا يديه لكنه لم يجد حزمة الأكياس البلاستيكية في مكانها المعتاد ، تلفت إلى الجانبين مفتشاً والابتسامة ما زالت على وجهه ، سحبت فيروز كيساً من تحتها ومدته إليه ناظرةً للمرة الأولى إلى عينيه مباشرةً . تركت يده اليمنى البصلة تسقط وتحركت ببطء شديد إلى الكيس الذي بدأ يرفرف بسبب الريح . ثوانٍ قليلة لكنها كانت كافيةً ليقولا بلغة العيون ما عجزت عنه الكلمات . ويتلاقى فيها قلبان متحديينِ قيود الدين وحواجز اللغة وظلم المجتمع . أجفلهما تلامس أصابعهما فسحبا يديهما مثل مصعوقين ، وطار الكيسُ مع الريح مبتعداً . نهض مراد وسار مترنحا كمن استيقظ لتوه من سكرة ينوي اللحاق بالكيس ، مشى بضع خطواتٍ ثم سمع ضحكتها ، لم يكن ليفوت على نفسه تلك اللحظة النادرة ، فالتفت اليها والبصلة في يده اليسرى . دفعها الخجل إلى حجب وجهها بالغطاء وكبت جماح بصرها ، معيدةً إياه إلى نطاق كومة البصل . قال وهو يشير بالبصلة إلى صدره :

«أنا اسمي مراد!» .

-٦-

أطبقت يد سوداء عملاقة على جسدي . رفعتني قليلاً عن الأرض ثم دفعتني بقوة لتلصقني بجدارٍ ما ، فأصبحت مثل دمية معلقة ، مشلولة الأطراف واللسان ، ودماغي عاجز عن تذكر أي شيء سوى لحظة الرعب التي أعيشها . كنت أسمع صوت تنفسي ، شهيق وزفير قصيرين سريعين يرتفع معهما صدري وينخفض ، وعيناي تحاولان فهم المكان الذي أنا فيه ، لم يكن أرضاً ولا سماءً بل فراغاً يحيط بي من كل جهة ، عتمةً تمتد إلى ما لانهاية . ظننتني ميتةً وذلك انتقالي إلى العالم الآخر فبكيتُ وبكيت . ومع سخونة الدموع المنسكبة على خديّ تذكرت أمي وأختيّ وعمتي ووجه مراد ورائحة البصل . توقفت عن التنفس حين سمعت صوت أبي من بعيد ينادي «فيروز . . . فيروز . .» . بقي صوته لكن الكلمة تحولت إلى شيء يشبه الفرقعةً تكاثرت على الفور ، وأخذت تقترب مني حتى أصابت إحداها وجهي فسقطت على الأرض .

منحتني أصوات ديكة الفجر ورأس نعام الغارقة في النوم على ذراعي اليسرى راحةً كبيرةً عندما فتحت عينيّ وأدركت أنني خرجت للتو من كابوس . كان حر آب قد فرشنا على

أرضية باحة المنزل الصغيرة وشيء من الألم ما زال يسري في ذراعي بعد ليلة سهر طويلة قضيتها متنقلة مثل مروحة أجلب الهواء إلى وجهي الفتاتين ، وأحاول التخفيف من سخونته قدر الإمكان بقطعة كرتون . تقلبت كَلي بسرعة كعادتها ونسمة هواء منعشة لامست وجهي بلطف ، فأغرتني بدقائق نوم إضافية قبل أن تأتي عمتي نديمة لتحل مكاني ، وأنتظر في الخارج صوت تشغيل محرك سيارة نوري الأعور لنبدأ يوم عمل جديد . انتبهت في تلك اللحظات إلى أن الديكة كانت قد توقفت عن الصياح ، تخيلتها تنفش ريشها استعدادا لصيحات طويلة صاخبة قريبة وبعيدة ستنطلق في أية لحظة لكنها لم تفعل . مرت دقائق من الصمت التام قبل أن أستمع إلى صوت بعيد يشبه تلك الفرقعة التي أصابتني في الحلم . ظننت أنه استرجاع للصوت من حلمي ، فشعرت بالخوف من عودة الكابوس . درت برأسي يميناً وشمالاً ، حركت رجليّ ، رفعت ذراعي اليمنى للتأكد من أنني صاحية . سمعت فرقعة أخرى مشابهة أعقبتها أخرى لكن بصوت مختلف يشبه سقوط حجر في الطين ، ثم زاد عددها بمرور الوقت وارتفعت أصواتها تدريجياً وتحولت إلى تفجيرات اقتربت من قريتنا شيئاً فشيء . أيقظتُ كَولي ونعام وركضنا إلى الداخل ، لحقت بنا عمتي نديمة التي تركت بيتها حافيةً . سألتني وهي تفرك عينيها عما يحدث . كانت نصف نائمة وتتحدث كأنها في غيبوبة لذا لم أجبها

وطوقت أختيّ بذراعيّ وأنا لا أدري إن كان علينا البقاء أو الخروج في مثل هكذا ظروف . عم الصمت لحظات استعادت خلالها عمتي وعيها . قالت وهي تضم يديها إلى صدرها :

«لا تخافوا هذه التفجيرات بعيدة عنا ، كما أن لا شيء في هذه القرية الفقيرة يشكل هدفاً يستحق القصف باستثناء سيارة نوري الأعور» .

أرادت أن تقول شيئاً آخر لكن صفيراً قوياً أسكتها ، أعقبه انفجارٌ مدوٍ طرحها أرضاً وملأ غرفتنا بالغبار . تكرر الأمر مرات ومرات كأنً السماء أمطرت قنابل على قريتنا ، ومع كل تفجير كانت الأرض ترتج من تحتنا ويعلو معه صراخنا ، ولم يكن أمامنا سوى أن ندفن أنفسنا تحت فراش الصوف والأغطية والوسائد ، خشية أن ينهار سقف الطين وخشبه على رؤوسنا . لا أعرف كم مضى من الوقت ، ساعة ، دقائق . ابتعدت التفجيرات عن القرية بالطريقة ذاتها التي جاءت بها ، كنت مستلقية على بطني بين أختيّ وذراعايّ على ظهريهما ، وعمتي إلى جوارنا تردد أسماء خودي وطاووس ملك وشيخ آدي بلا توقف . هززتها من ذراعها لكي تصمت فقد كانت تزيد من هلع البنتين . صاحت :

«دعيني فيروز إنه يوم القيامة ، ولا بد لواحدة منا أن تقول شيئاً قبل أن نموت . أذكري معي أسماء الصالحين بسرعة لا وقت لدينا» .

ثم أخذت تصرخ بجنون :

«يا شيخ شمس ، يا شيخ فخر ، يا شيخ ناسر دين[*] . . .» . تكورت نعام في هذه الأثناء وأخذ جسدها يرتجف بشدة ، حاولت أن تخبرني بشيء لكن البكاء خنق صوتها ، كررت بصعوبة :

«لا تتركيني» .

أرتفع صوت عمتي مجدداً :

«يا شيخ مند ، يا بير مهمه رشان[**] . . .»

ورددت كَلي خلفها باللكنة ذاتها . استجمعت نفسي وصرخت :

«توقفي!» .

كانت الشمس قد أكملت نشر ضيائها في الخارج عندما خرجنا واحدة تلو الأخرى من مخبأنا وقد بللنا العرق وأثقل الخوف حركتنا ، جلسنا متجاورات على الأرض في باحة

(*) شيخ شمس : من قديسي الإيزيدية (صاحب الشمس)- * بير مى رشان : من قديسي الإيزدية(صاحب المواشي) .

(**) شيخ فخر : من قديسي الإيزيدية (صاحب القمر)- * شيخ ناسردين : من قديسي الأيزيدية(صاحب الموت- يمثل ملك عزائيل في الارض) . *شيخ مند : من قديسي الإيزدية (صاحب الأفعى)- * شيخ مند : من قديسي الإيزدية (صاحب الأفعى) .

البيت بانتظار أي صوت يأتي من خلف سورنا الحجري يبدد ذلك الصمت الثقيل . أحد ما يخبرنا بما جرى أو في الأقل يطمئننا أن هنالك باقين على قيد الحياة في القرية . لكن بدلاً من ذلك سمعنا أصوات محركات سيارات استمر بعضها في السير ، وتوقفت أخرى وفتحت أبوابها ومعها ارتفع صوت قال كلمات بالعربية لم أفهم منها سوى : «الله أكبر» .

أعقبتها إطلاقات نارية كثيفة بدت وكأنها تطلق من خلف باب منزلنا وتستهدفنا . ركضنا مجددا صوب مخبئنا ، تعثرت عمتي بعتبة الغرفة فسقطت على الأرض وتدحرجت أمامنا . سمعتها تبكي ونحن نندس تحت الفراش فسألتها عن الذي قاله الصوت ، فردت بعد أن لطمت أحد خديها مرتين :

«يقول بأن قريتنا وكل ما فيها من بشر وحيوانات صارت ملكاً للدولة الإسلامية في العراق والشام» .

«أي دولة ، العراق؟»

«كلا ، إنهم الإرهابيون لقد وصلوا إلى قريتنا» .

لم أستوعب ما قالته عمتي نديمة ، ظننت أنها واحدة من لحظات جنونها المعتادة بعد وفاة زوجها ، وأنها ستعود بعد قليل إلى رشدها وتخبرني بما سَمِعت ؛ لكونها تفهم العربية التي تعلمتها خلال عملها في مزارع ربيعة (*) للطماطم . غير أنها ردت على سؤالي مجدداً بالإجابة ذاتها ، وأضافت أن كارثة حلت علينا لأننا بلا ذكور يحموننا . كررت ذلك مرات عدة

ولم تتوقف إلا عندما فُتح باب البيت بعنف ، وسمعنا أصوات وقع أقدام كثيرة في الباحة ثم إطلاقتي نار . وضعت كفي على فم نعام وهمست لكَلي أن لا تصدر صوتاً . دخل أشخاصٌ إلى غرفتنا لا أعرف كم كان عددهم بالضبط ، كانوا يتحدثون بعصبية وصوت في الخارج يبدو وكأنه يأمرهم بفعل شيء ما .

رفع أحدهم الفراش من فوقنا ، كاد قلبي أن يتوقف عندما رفعتُ رأسي ووجدت فوهة بندقيته أمام وجهي مباشرةً ، كان شاباً لحيته كثة وشعر رأسه طويل حد الكتفين ، وفي عينيه نظرةٌ مخيفة . جلست عمتي واضعة يديها فوق رأسها مستسلمة . قالت لهم عبارة متقطعة بالعربية ضحك لها رجل آخر مقهقهاً ، وقال شيئاً تفاعل معه شخصٌ في الخارج على الفور صارخاً :

«الله أكبر» .

***

سارت بنا الحافلةُ مساءً ببطء منحدرةً صوب الطريق الرئيسي بعد ساعات من احتجازنا داخل حظيرة مواش مع نساء وأطفال من قريتنا نجوا مثلنا من القنابل والرصاص . كان ثلاثة من المسلحين يراقبوننا وبنادقهم تتحرك فوق رؤوسنا غير آبهين بنحيبنا الموحد كأنه صوت مفجوعة واحدة . عندما أخرجونا من البيت قبيل الظهر اعتقدت بادئ الأمر أننا نسير

في مكان آخر غير قريتنا ، رايات سودٌ فوق المركبات وعلى الجدران وفوق أسطح البيوت ، والعشرات من المسلحين الملتحين بملامحهم الغاضبة يتنقلون مرتدين ثياباً عسكرية أو قمصانا طويلة إلى حدود الركب وبناطيلهم منتفخة . انتبه أحدهم إلى كَلي التي كانت تحمل دميتها فركض صوبنا زاعقاً . سحب الدمية بيد ودفع كَلي بالأخرى فسقطت على الأرض ، بعد أن اصطدمت بي وراحت تصرخ وتبكي . داس على الدمية بحذائه سميك الكعب وانتزع بيديه رأسها أولاً ثم أطرافها واحدة بعد أخرى ، وألقى ما تبقى منها فوق سطح بيت عمتي نديمة وقال أشياءً بالعربية مشيراً بسبابته نحو السماء . كنتُ قد حجبت الرؤية عن نعام وشاغلت كَلي لتجنيبهما مشهد إعدام دميتها ، واعتقدت أن ذلك أسوأ شيء سنختتم به نهار مصيبتنا ذاك . لكن ومع انعطافنا للدخول في الزقاق المار بمنزل نوري الأعور والمنتهي بالحظيرة صُدمنا بمنظر جثث رجال القرية ودمائهم المتيبسة على جدار اللبن والأرض . تقيأت عمتي وجثت على ركبتيها دارت بي الأرض عندما لمحت وجه نوري وفمه المفتوح على وسعه ، آخر ما سمعته كانت صرخات نعام وكَولي تصيح باسمي ، انخفضت الأصوات تدريجيا وأخذ الضوء يخفُت حتى انطفأ كل شيء وغِبت عن الوعي تماماً .

عندما أفقت كان الملتحون قد أكملوا جمع غنائمهم من النساء والأطفال والمواشي ، بعد أن أعدموا كل الرجال والشباب

الذين عشروا عليهم ، ومنحوا قريباتهم وقتاً للبكاء قبل أن يأتي رجل أصلع منتوف اللحية قصير القامة ليلقي علينا خطاباً باللغة الكردية ، دعانا فيه إلى اعتبار ذلك اليوم أول أيام حياتنا بخروجنا من الظلام إلى النور ، وأننا أصبحنا جميعاً ملكاً للمجاهدين في سبيل الله ، يفعلون بنا ما يشاؤون ولنا أن نعتنق الإسلام فنتزوج من المؤمنين ونستقر أو نظل على ديننا فنعيش سبايا يحق لأسيادنا بيعنا أو الإبقاء علينا لأنهم مالكونا . ضجت الحظيرة بالبكاء والنحيب مع نهاية الخطاب ، ليس لأن أحداً فهم ما قاله منتوف اللحية ، وإنما كان استئنافا للحزن ولألم جرح عميق سيستمر نزيفه زمنا طويلاً .

عند العصر أوقفونا وسط القرية في طابورين ثم أمرونا بالسير ذهاباً وإياباً ، بينما أحدهم وكان غير مسلح لحيته بيضاء ويرتدي ساعةً في يده اليمنى يرافقنا ويراقبنا باهتمام ويكتب بين الحين والآخر في دفتر صغير يحمله . بعدها التقطوا لكل واحدة منا صورةً وخلفها العلم الأسود ، سألونا عن أسمائنا وأعمارنا وقاسوا أطوالنا ووزعوا علينا التمر والماء ، ثم ساروا بنا والبنادق موجهة نحونا إلى حافلة طويلة حمراء كانت واقفة عند مدخل القرية تماما عند شاحنة نوري الأعور ، وكان عمود دخان صغير هو آخر ما تبقى من احتراقها .

ألصقت عمتي خدها بزجاج النافذة ورددت بصوت متعب :

«يا شيخ عبروس ، يا بير جروا(*) . . .» .

كنت إلى جوارها تتوسطنا كَولي ونعام في حجري . فجأة خطر مراد في بالي ، مرت صورته البعيدة وابتسامته المترددة القريبة أمام عيني فهدأ خوفي وضاع ضجيج العزاء في الحافلة ، وأخذني الحنين إلى جانب الطريق ورائحة البصل ولهفتي التي تكبر لرؤيته وأنا في الطريق إلى هناك كل صباح وسعادتي المكتملة بطعم حضوره ، مبدداً ملل الساعات وأنا عائدة مساءً وقلبي يملؤه الأمل .

«ماذا لو كان واحداً من هؤلاء الإرهابيين» تساءل صوت من داخلي . تلفت على الفور ، تذكرته يتبعني بسيارة بيضاء إلى القرية قبل أيام . الصوت ذاته عاد ليسألني :

«هل كان واجبه مراقبتك طوال تلك الفترة استعداداً لهذا اليوم؟» .

عاد الخوف ليسيطر على جسدي ومعه حرقة المفجوعات يهزهن البكاء في الحافلة . قبضت عمتي على ذراعي اليسرى وشدتني إليها قائلة :

(*) شيخ عبروس : من قديسي الايزيدية (صاحب البرق)- * بير جروا :من قديسي الإيزدية(صاحب العقرب) .

(*) ربيعة : بلدة زراعية صغيرة تقع غربي نينوى على الحدود مع سورية .

«الكردي القصير الأحمق يقول أن المجاهدين سيفعلون بنا ما يشاؤون ، يبيعوننا أو يتزوجوننا» .

بقيت صامتة لحظات تحدق في وجهي ثم سألتني بحماسة :

«ماذا تعني كلمة سبايا؟» .

قبل ثلاثة أيام فقط من إصابته بسكتة دماغية أفقدته صوته وقدرته على تحريك نصفه الأيسر ، دعا الشيخ حامد إلى اجتماع عائلي ملزم ضم أبناءه وأحفاده وزوجاته ، كشف فيه من فراشه السيرة غير المعلنة لشقيقه عبود الذي ظهر بنسخته الجديدة قيادياً في الدولة الإسلامية : «كان أول شاب من قريتنا يجاهر بانتمائه إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي ، ورفع شعاراته وصور مؤسسه ميشيل عفلق في مسيرات مؤيدة لثورة ١٧-٣٠ تموز ١٩٦٧ جابت شوارع سنجار وتلعفر ، وسافر لأجلها إلى مدينة الموصل . ومسيرة بعد أخرى وخلال سنة واحدة فقط تم ترفيعه لينتقل من درجة مؤيد في الحزب إلى عضو عامل . ومتن علاقاته بقياديه من خلال تقارير سرية كتبها عن معارضين للحزب أو منتمين لأحزاب أخرى شملت أقاربنا وجيراننا ، اختفى بعضهم في المعتقلات ولم يرجعوا أبداً . وعندما اندلعت الحرب مع إيران أصبح مخبراً معتمداً عن أماكن اختباء الشباب المتخلفين أو الهاربين من الخدمة العسكرية ، وطاف مع مفارز الحزب قرى محيط الجبل لتجنيد الموظفين وكبار السن في صفوف الجيش الشعبي

الرديف للجيش النظامي . وليتجنب الذهاب إلى الجبهة والعودة منها بتابوت ملفوف بالعلم ، زور أوراقاً طبية تثبت عدم صلاحيته عسكرياً ، وسخر لإبعاد العيون عن نفسه جهوده كلها لخدمة الحزب وأمن البلاد الداخلي .

التقط الشيخ حامد أنفاسه وانتقل وسط اهتمام الحضور إلى المرحلة التالية :

«في السنة الرابعة للحرب وقع عبود في حب فتاة أيزيدية فاتنة من قرى غرب الجبل ، وكتب لأجل إبعاد مخاطر تزويجها من قبل أهلها العديد من التقارير المفبركة للحزب وجهاز الأمن عن ارتباطات مشبوهة لأقاربها الشبان في القرية بجهات معادية . وعندما تمكن منه العشق تماماً هرب معها إلى الموصل وعقد قرانه عليها هناك بعقد ملا(*) . ثم أخذها وسافرا إلى مدينة البصرة جنوباً . كدنا بسبب حماقته تلك أن نخوض حرباً مع رجال من قرية الفتاة أرادوا غسل العار بالبنادق لولا طلبنا العون من قيادات في الحزب والشرطة ، حذروهم من أن أي تحرك مسلح يبدر منهم ستعده الدولة التي تخوض حرباً خارجية انتهاكا للأمن القومي . ولأن الإعدام أبسط عقوبة لتهمة مماثلة تخلوا عن حل الخلاف بالعنف ، وتم الاتفاق في ختام جلسة مفاوضات عشائرية موسعة على إعلان براءتنا من عبود وفعلته الشنيعة ، ومنعه من دخول المنطقة بأسرها مدى الحياة .

(*) عقد الملا : عقد زواج ينظمه رجل الدين خارج نطاق محكمة الأحوال الشخصية .

ضرتا مزنة كانتا أكثر الحضور سعادةً بسماع هذا الجزء من القصة ، وتبادلتا أثناء سردها غَمزاتِ تأكيدٍ وابتساماتِ نصرٍ لتطابق مضمونه مع ما كانتا ترددانه بإلحاحٍ على أسماع أبنائهما وأحفادِهما أو للفضوليات في القرية وخارجها ، وربط ذلك بما يشاع عن حب مراد لفتاة أيزيدية .

واصل الشيخ حامد بحماسة من يريد إلقاء حمل أخير عن كاهله :

«في مطلع السنة السادسة للحرب وصلتنا أخبار غير مؤكدة عن استشهاده في معركة (جزر مجنون) لكننا لم نجد اسمه في قوائم الشهداء ، ولا ضمن جداول الأسرى والمفقودين لدى الصليب الأحمر . قيل بعدها إنه تخلف عن الالتحاق بالجيش الذي دعي إليه بصفة غير مسلح ، وانتمى بدلاً من ذلك إلى حزب الدعوة الذي هربه عبر أهوار العمارة إلى قم الإيرانية ، ليدرس في حوزتها العلمية أصول الفقه الشيعي ، وسمعنا أيضاً أنه تسلل عبر الحدود التركية شمالاً ونقله مهربون عبر البحر إلى اليونان ، وطلب بعدها اللجوء السياسي في بريطانيا» .

أشار الشيخ حامد بإصبعه إلى المحيطين به ثم وجهها إلى التلفزيون المطفأ :

«لن تطأ قدم هذا الثعلب أم نهود مادمت حياً . هذه وصيتي الوحيدة لكم ويجب أن تمنعوه من حضور جنازتي ، لا أقبل أبداً أن يتهمنا الإيزيديون بنقض عهودنا» .

-٨-

مشى مراد في طابور المبايعين تحت خيمة طويلة وقف على طول جانبيها صفان متقابلان من الملتحين المبتهجين ، شكلوا جمهوراً ارتفع صوته بالتكبير ، ما إن فرغ كل شخص ضمن الطابور من ترديد قسم البيعة للخليفة أمام ممثله والي الموصل . كان ثقلٌ ما يضغط على رجليه ونظرةُ والدته الأخيرة المتوسلة مازالت تطارده وتحاول جره إلى خارج الخيمة مقابل إرادة عشقٍ فرضت سلطتها المطلقة عليه ، وجعلته يمضي في قراره حتى وإن كان حتفه من أكثر نتائج مجازفته توقعاً . لاحت دمعةٌ في عينيه عندما تذكر ثياب فيروز المبعثرة على أرضية غرفة بيتها الوحيدة . ربطات رأسها ، قمصانها ، مناديلها ، صورتها الصغيرة التي اختطفها من زاوية المرآة وأمطرها قبلاتٍ . ميزانها المقلوب ومقعدها الخشبي في الباحة الضيقة . صاح الجمهور :

«الله أكبر . . . الله أكبر»

وصل إلى قريتها بعد يوم واحد فقط من سقوط سنجار والقرى والمجمعات المحيطة بها بأيدي مقاتلي الدولة الإسلامية ، وانتشار أخبار قتل الإيزيديين الجماعي ، وأخذ نسائهم سبايا ، ولجوء الناجين منهم إلى قمة الجبل . توسل في سره وهو

يترجل من سيارة البيك آب ومعه ضياء المندهش أن تكون فيروز على قيد الحياة ومختبئة في مكان ما . كان مستعداً لحظتها أن يمسك بيدها ويذهب بها بعيداً ، متحدياً العالم بأسره من أجلها . قال ضياء وهو يفرك بإصبعين فروة رأسه :

«أتسكن حبيبتك هنا ، في هذه القرية؟» .

قُرب حوض البئر نهاية القرية فاجأهما مسلح ضخم من الخلف متأهباً مع بندقيته الكلاشينكوف . ترجرج كرشه لحظة أن أمرهما بلكنة سورية رفع ذراعيهما ، وكاد أن يطلق النار عليهما عندما عجزا عن معرفة كلمة السر العسكرية وبقيا صامتين . سألهما وهو يرخي زناد البندقية بسبابته متحفزاً لإعدامهما :

«هل هذه قريتكما؟» .

قال مراد متردداً :

«كلا نحن عرب ، من قرية أم نهود» .

وأضاف ضياء بفرح كأنه اكتشف كلمة السر التي طلبها المسلح :

«دولة الإسلام باقية!» .

ما إن اطمأن لهما المسلح الذي كان يرتدي ثياباً عسكرية حتى أخذ يحدثهما وبلا توقف عن دعواته المستجابة بعد ثلاثة أشهر متتالية من الصيام ، تمكن إثرها جُند الخلافة مستعينين بمدد رباني من دحر قوات الجيش العراقي والبيشمركة خلال

ساعات فقط . أشار إلى صدره مفاخراً بأنه المجاهد الوحيد المكلف بحماية القرية . ثم دار حول نفسه يعد بيوتاتها الصغيرة المتهالكة ، محركاً رأسه الضخم فاهتزت جديلتاه ولحيته الكثة :

«واحد اثنان . . . ستة . حسناً ، كل هذا أصبح ملكاً لنا» .

لم يتسن لهما قول أي شيء . أجلسهما على الأرض بالقرب من شاحنة البصل المتفحمة ورسم في الهواء خريطة متخيلة لسير المعارك التي وقعت في المنطقة . حدد بيديه نقاطاً وهمية تحرك معها على الأرض ببسطاله الأسود الكبير ، مثيراً الغبار ، وشرح مضخماً صوته بلغة عربية فصحى تفاصيل الغزوة من لحظة خروج الجحافل ترفرف فوقها الرايات السود من تلعفر والموصل إلى آخر رصاصة فرح أطلقت ابتهاجا بالنصر عند سفح جبل سنجار .

وعند مروره مستعرضاً نتائج الغزوة في قاطع قرية فيروز ، أخبرهما أن امرأة عجوزاً وصبية فقط قُتلتا جراء قصف الهاونات التمشيطي ، وأن حكم الله نفذ على رجال القرية الكفار جميعاً ، وحصل المجاهدون المشاركون في الغزوة على النساء ، وأرسلن مع الأطفال إلى مدينة تلعفر ليتم توزيعهم بإشراف أمير ديوان الجند هناك . ثم استدرك قائلاً :

«قرى ومجمعات أخرى ما زالت مشغولة بساكنيها الإيزيديين ، سيمنحون الأمان إذا قبلوا الدخول في الإسلام» .

ترجرج كرشه مرة أخرى عندما قال ممازحاً :

«اذهبا بعجل الآن إلى تلعفر فقد تحصلون على واحدة مجاناً» .

عاد الهتاف في الخيمة :

«الله أكبر . . الله أكبر» .

وضع مراد يده على جيب قميصه حيث صورة فيروز قريبة من قلبه . ضغط على صدره متذكراً فتوى الملا حسن الهامسة خلف المسجد ، بعيداً عن أعين وضاح الذي أصبح يكنى بأبي حفص وباقي أنصار الخلافة الذين رجعوا إلى القرية بثياب أفغانية ، وشعور ولحى أطول من السابق ، مزهوين بفتوحاتهم وفارضين قوانين سلطانهم . قال الملا حسن إن على السبية دخول الإسلام ليكون بوسعها الزواج من مسلم وتصبح حرةً إذا حررها صاحبها أو اشتراها شخصٌ وعتق رقبتها ، وتخرج من الرق الكامل خروجًا جزئيًا بمجرد وضعها مولوداً ، وتعتق بالكامل إن مات سيدها . سأله الملا حسن مبتسماً بخبث وهو يقبض على كتفيه :

«تبدو إشاعة عشقك لأيزيدية صحيحة يا ولد؟» .

دفعه شخص من ظهره برفق ليتحرك إلى الأمام فامتثل لا إرادياً بخطوات سريعة صدمته بآخر أمامه ، فعاد خطوةً إلى الوراء وكاد أن يسقط لولا أن أسند من الخلف . كانت رائحة أمه قد باغتته وحرارة دموعها على وجهه وهي تحتضنه مودعةً بعد يأس ليلة نواح كاملة لم تنجح معها وعود وضاح الذي

تكفل بمرافقته إلى الموصل ، وإيصاله إلى عمه الأمير عبود أبو رواحة ؛ ليجد له صنفاً غير قتالي في الجيش . كان خوفها من فقدانه قد سيطر عليها ولم تعد تسمع أحداً . تنوح بين الحين والآخر بصوت موجوع وسط مراقبة لصيقة من ضرتيها :

«كنت أريد أن أرقص في زواجك وأحمل أطفالك . الله ينتقم من الذي كان السبب» .

ثم دارت بنظرها بين وضاح وضرتيها . غرق المكان في صمت عميق لدقائق استراحت فيها مزنة من نواحها ثم عادت لمواصلته .

كان الشيخ حامد مسنوداً بوسادتي صوف يراقب برؤية ضبابية جلسة عزاء مزنة المفتوحة . قبل مراد يده السليمة وقال له مغالباً دموعه :

«التحاقي بهم مؤقت ولغاية نبيلة ترفع الرأس . سأعود قريباً يا أبي أعدك بذلك» .

لم يكن متأكداً من أنه يستمع إليه ، فقد كان الشيخ ينظر بعينين نصف مغمضتين إلى لاشيء لحظتها . قرب مراد وجهه وقال بصوت هامس في أذنه :

«سأحررها مهما كان الثمن» .

أمسك الوالي يد مراد اليمنى بقوة . سحبه إليه قليلاً ممعناً النظر فيه قبل أن يلقنه القسم بصوته الغليظ ، ومراد يردد خلفه كتلميذ في درسه الأول :

«أبايع أمير المؤمنين أبي بكر القرشي على السمع والطاعة ، في المنشط والمكره والعسر واليسر ، وعلى إقامة دين الله وجهاد عدو الله ، وعلى إقامة الدولة الإسلامية والذب عنها ، والله على ما أقول شهيد» .

جفل مراد حين ضجت الخيمة بالهتاف :

«الله أكبر . . الله أكبر» .

***

أدرك مراد منذ اليوم الأول لبدء مشوار بحثه عن فيروز أن بقاءه ثابتاً في مكان واحد يعني ضياعها وإلى الأبد ؛ لذلك حاول مستعيناً بنفوذ عمه عبود أبو رواحة في إيجاد وظيفة تتيح له حرية الحركة في المناطق الخاضعة لسلطة خلافة الدولة الإسلامية في العراق والشام ، فتنقل خلال شهر واحد بين ثلاثة دواوين في ولاية الموصل بدأها بحكم شهادته الجامعية في قسم الثروة الحيوانية بديوان الزراعة ، وسرح بعد أربعة أيام فقط بقرار من صاحب الديوان ، لكون مراد لا يفرق بين محصولي القمح والشعير ، ويحتاج إلى وقت لكي يميز الديك عن الدجاجة ، وفوق ذلك يعاني من مشاكل في العقيدة بعد أن سُمع في دورة المياه وهو يترنم بلحن أغنية للكافِرة أم كلثوم . دخل إثر ذلك دورة تأديبية مكثفة في العلوم الشرعية استمرت أسبوعاً ، حفظ خلالها وعن ظهر قلب قوانين دولة الخلافة

الأساسية ، التي تضمنتها ورقة المدينة الخاصة بتنظيم شؤون الرعية في الموصل ، وتعلم قواعد الصلاة الصحيحة والدخول والخروج من المساجد والأداء السليم للآذان وفق نهج الأولين . حصل في نهاية الدورة على شهادة ممهورة بختم صاحب ديوان التعليم ، مع كيس ورقي يحمل شعار دولة الخلافة احتوى على قطعتي سِواك وزجاجة عطر زيتي صغيرة ، وكتيب جيب فيه معظم التصرفات القولية والفعلية المحرمة مع العقوبات المترتبة عليها . وكوفئ بنقل خدماته إلى ديوان الدعوة والمساجد ، ونُسِب إلى مسجد البلدة القديمة بصفة مؤذن . ولم تمض سوى ستة أيام حتى قُدمت بشأنه ثلاث شكاوى ، اثنتان منها إلى صاحب الديوان نفسه تقدم بهما مخبران سريان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار القدماء ، تعلقت برأي مراد المعارض للفكر السلفي وتشكيكه بصحة قانوني منع زيارة القبور وإطلاق اللحى ، وتحفظه على فقرة تغطية يدي المرأة والنِقاب . أما الشكوى الثالثة فقد قدمها جمع من أهالي البلدة القديمة إلى مخفر الشرطة اتهموه فيها برفع الآذان خارج أوقات الصلوات ، وبلحن غنائي ممطوط ، على الرغم من تنبيهه أكثر من مرة . ولولا وصول أبو رواحة في الوقت المناسب وبصحبته شخصية ذات نفوذ من ديوان القضاء والمظالم لكان عناصر الحِسبة سلخوا جلد مراد بالسياط ؛ تنفيذاً لعقوبة تعزيرية أمر بإيقاعها قاضي المحكمة الشرعية .

قال له عمه ليلتها يحذره :

«الخطأ في الدولة الإسلامية حفظ الله خليفتها قد يكلف المرء حياته» .

داعب لحيته المحناة لحظات ثم تابع بصوت منخفض :

«تذكر جيداً أن شيئين لا يمكن أن تتهاون بهما هذه الدولة أبداً . المسائل الشرعية والمال» .

قال الكلمة الأخيرة وهو يفرك سبابته بباطن إبهامه ، بعد أن مدهما قريباً من وجه مراد في غرفة الضيوف بقصره الذي كان لسياسي علماني ، وآل إليه كغنيمة بصفته كبير مستشاري والي نينوى .

طمأن مراد عمه مقلداً حركته :

«لا أفكر بجمع المال ولا تجاوز حدودي الشرعية . كل ما في الأمر أنني سئمت المكوث في مكان واحد يا عمي . أريد وظيفةً تسمح لي بالتجوال بين البلدات والقرى لأتعرف بواسطتها على الناس وعاداتهم» .

لم يرد بشيء فقد كانت ملامحه متجمدة عند لحظة شرود مفاجئة جعلت مراد يحاول في سره إيجاد روابط شكلية مشتركة بينهما لكن بلا جدوى . كما أنه لم يستطع أن يتخلص من الصورة الذهنية التي تشكلت عنه بناءً على رواية أبيه على الرغم من النفوذ والسطوة ، اللتين بدا أن عمه يمتلكهما ، وتجسد ذلك بالطريقة السحرية التي تعامل بها مع

إداريي الديوانين ورجال الأمن . كان يشعر باستمرار أن في الأمر خديعة ما ، وأن شيئاً مفاجئاً سيحدث في أية لحظة .

سأل عمه باهتمام :

«صحيح أنك ذهبت إلى إيران؟» .

رد عليه فوراً :

«سنجد لك مكاناً في ديوان الإعلام المركزي» .

احتجزونا داخل مدرسة ذات طابقين وساحة واسعة في مدينة تلعفر . ثم الحقوا بنا ، وعلى مدى ثلاثة أسابيع ، نساءً وأطفالاً جلبتهم الحافلات من قرى ومجمعات أيزيدية عديدة ، فامتلأت الصفوف والممرات ونصبت خيمتان في الساحة وأخرى فوق سطح البناية . بالكاد قلبنا أجسادنا على الأرض دون وسائد في مساحة ضيقة حصلنا عليها أنا وعمتي ، وبيننا نعام وكَولي داخل صف أرضي مخلوع الباب ونافذتاه الكبيرتان بلا زجاج ، تختلط فيه روائح عرق الأجساد والبول والقيء . كانوا يدعوننا بالكافِرات عند توزيعهم وجبة طعامنا اليومية الوحيدة ، المكونة من الخبز والتمر والماء ؛ أو حين يفتشوننا بحثاً عن الهواتف والسكاكين ؛ أو عندما يقسموننا ظهراً إلى مجموعات وتلقي علينا منقباتٌ بخمار أسود تجلبهن مركبات عسكرية دروس اللغة العربية . النهار وصخب الأطفال كانا يخفيان وجع قلوب النساء ، ولاسيما اللواتي شهدنا بأعينهن مقتل أقربائهن ؛ وما إن يحل الظلام وتتوقف الحركة بسبب العتمة ونضع رؤوسنا على الأرض بانتظار قدوم النوم ، حتى يُسمع الأنين الذي يتحول مع مرور الوقت إلى بكاء وعويل

يشارك فيه الجميع صغاراً وكباراً . وحاول الحراس الذين كانوا يتواجدون في الغالب خارج المدرسة وقف البكاء الجماعي ليلتين متتاليتين ، بإطلاق النار وطرق باب الحديد الخارجي بعنف . فهموا بعدها أن الحزن هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيعون أخذه منا وإجبارنا على التوقف عنه ، فتركوا لنا الليل ولأوامرهم النهار .

سرت شائعات أول الأمر أنهم سيعيدوننا إلى قرانا ، وقيل إننا سنسكن مؤقتاً في قرى كانت للمسلمين الشيعة ، ثم سمعنا بأنهم سيسمحون لنا بالالتحاق بالناجين في جبل سنجار . كان هذا قبل أن يجمعونا صباح اليوم الأخير داخل الساحة التي ساقوا إليها الرافِضات بالعصي وقضبان الحديد ، وأتى شخص بلحية بيضاء يدعى أمير الصحراء وحوله الكثير من الحراس . ألقى علينا بمكبر صوت من فوق مركبة ملطخة بالطين كلمة بالعربية ترجمها إلى الكردية بلهجتنا نفسها رجل بلثام أسود وقف إلى جواره . قال بأن حياتنا الجديدة تبدأ من الآن ، فالأطفال سيتربون مسلمين عليهم الواجبات نفسها ولهم الحقوق نفسها وأن على النساء أن ينسين أزواجهن وآبائهن وإخوتهن ، ويقبلن إما العيش سبايا مملوكات لرجال الدولة الإسلامية يعملن على خدمتهم ويلتزمن بطاعتهم ؛ أو يؤمِن بإلهٍ واحدٍ لا شريك له فيُسلِمن ويُصبِحن معززاتٍ مكرمات . قاطعته إحدى النساء :

«ماذا حدث لرجالنا؟» .

كنت أحمل نعام وكَلي جالسة على الأرض بيني وبين عمتي التي كان وجهها ملطخاً بسخام الفحم ، وتفوح منها رائحة البول . مالت نحوي وهمست :

«علينا أن نفعل أي شيء من أجل المحافظة على شرفنا . سبايا تعني أمراً سيئاً» .

قال الملثم بأن الرجال الذين دخلوا الإسلام أصبحوا أحراراً وبقوا في قراهم ومجمعاتهم ، أما الذين استمروا على شركهم فنالوا حكم الله وهو القتل . ذكر أمير الصحراء أشياء أخرى ، وقبل أن يترجمها الملثم صاحت الشابة شيرين بصوتٍ عالٍ وقبضةُ يدها مرفوعة فوق الرؤوس :

«نحن الإيزيديين لسنا مشركين نؤمن بإله واحد وهو بريءٌ منكم ومما فعلتموه بنا» .

هز أمير الصحراء رأسه مرات عدة بعد أن شاوره الملثم ، ثم أشار إلى أشخاص كانوا واقفين في الأسفل حول المركبة ، فاندسوا مسرعين بين النساء حتى وصلوا إليها وانهالوا عليها ضرباً بالعصي والقضبان . صرخات ألمها المتوالية انتقلت إلينا كأننا نضرب معها جميعاً ، فضجت الساحة بالصراخ والعويل .

***

تعرفت إلى شيرين بعد أربعة أيام من وصولنا إلى المدرسة ؛ إذ قدمت لنا المساعدة عندما أصيبت نعام بالإسهال وتقيأت طوال النهار كما حدث لأطفال آخرين . قالت شيرين إنه تسمم غذائي وسيزول ما أن تفرغ بطون الصغار تماماً مما أكلوه ويشربوا الكثير من المياه . كانت ممرضة من مدينة سنجار ، شابةٌ شجاعة واثقة من نفسها ، وتعرف أشياء كثيرة عن ديننا لم أكن قد سمعت بها من قبل . لم تكن تغطي رأسها بشيء ويداها نظيفتان كأنهما غير مستخدمتين إلا مع الأشياء الرقيقة ، والابتسامة لا تفارق وجهها الذي يشبه وجوه الأطفال ، على الرغم من أنها كانت لوحدها معنا بعد أن اخذوها من المستوصف الذي كانت تعمل فيه ولا تعرف مثل كثيرات غيرها ماذا حل بأسرتها . في اليوم التالي ظهرت غمازتا خديها العميقتان ، عندما أخبرتها أنها المرة الأولى التي أدخل فيها إلى مدرسة ، ولا أعرف ماذا يعني المعهد الطبي الذي حصلت منه على شهادتها . سكبت القليل من الماء على منديل أبيض لفته ووضعته بهدوء على جبين نعام وقالت بصوتها الدافئ :

«هو مثل المدرسة نتعلم فيه كيف نساعد الناس إذا مرضوا أو أصيبوا بحوادث» .

أمسكت ذراع نعام برفق ووضعت إصبعين على مِعصمها ثم ضغطت بهما على أنحاء متفرقة من بطنها . قالت أخيراً وهي تبتسم :

«لم أفرق يوماً بين مريض مسلم أو أيزيدي ، كنت أساعد الجميع في المستوصف الذي عملت فيه لسنتين» .

تنهدت قليلاً وهي تراقب عمتي النائمة والتي تقلبت في تلك الأثناء :

«أنتِ لا تعرفين حقاً ما يجري هنا أليس كذلك؟» .

شعرت بالحرج لأنني فعلاً لم أكن أعرف سوى ما نستمع إليه أنا وعمتي من باقي النساء ، وكلهن مثلنا غير متعلمات ويصدقن كل شيء .

«هم يجمعوننا هنا لكي يوزعونا فيما بعد على مقاتليهم كهدايا ونصبح عبيداً لهم بقية حياتنا» .

«سمعنا بأنهم سيرسلوننا إلى الجبل و . . .» .

قاطعتني :

«أملنا الوحيد أن يتم تحريرنا ، نحن الآن سبايا يا فيروز» .

هنا تدخلت عمتي بعد أن استيقظت فجأةً :

«هل سبايا شيء يجلب العار حقاً؟» .

***

تحولت شيرين إلى فانوسٍ خفف عنا شيئاً من ظلامنا ، وأعانتنا على فهم حقيقة ما يجري لنا ، والتفكير في طريقة ما لمواجهته بدلاً من الاستسلام التام لقدرنا . دارت بخفة ورشاقة بين غرف الطابقين والخيام ، مادةً يد المساعدة لمن يطلبها .

لاعبت الأطفال ولاطفت كبيراتِ السن ، وجمعت حولها بتأثير من صوتها الملائكي وقدرتها الكبيرة في الإقناع عدداً من الفتيات المتعلمات ، وأخذن يقدمن عصراً دروساً دينيةً على مجاميع النسوة ذاتهن حيث كانت المنقبات العربيات يجبرننا فيها ظهراً على تعلم الأحرف العربية وكلمات القرآن . كانت تردد باستمرار وهي تشد قبضتي يديها : «معرفتنا بديننا أفضل طريقة لمقاومة أفكارهم» .

كل ما ذكرته شيرين ، سواءٌ في الدروس أو عندما كانت تزورني مساءً ، كان جديداً بالنسبة لي ولم أكن قد سمعته أو فهمته بذلك الوضوح من قبل . ليس فقط بسبب عدم ذهابي إلى المدرسة وإنما أيضاً لأن أسرتنا كانت تتوارث الجهل والفقر معاً . فجدي الذي لم ألتقيه أبداً تقول عمتي بأنه عاش ومات أجيراً في بساتين العرب ، ولكي لا يكرر ابنه الوحيد الذي هو أبي الأمر نفسه ، جرب أعمالاً كثيرة في المدن البعيدة ، غاب بسببها عن البيت طويلاً ، على الرغم من أنه لم يثبت في أي منها . وما أذكره من أيام وجوده النادر بيننا زجاجة العرق التي لم تكن تفارقه ، وجهه المنتفخ وعينيه المتورمتين وصوته الغليظ المخيف وهو يلطم وجه أمي ويركلها في ساعات متأخرة من الليل . ظلت صورته تلك تلاحقني حتى بعد فترة طويلة من ذهابه إلى الموصل للعمل في محل لبيع الكحول وعدم عودته منها مجدداً .

وقبل أخذي مكانها في بيع البصل على الطريق ، كانت أمي ، التي لا تعرف القراءة والكتابة ، هي المصدر الوحيد لكل ما أعرفه عن العالم ، مع أنه لم يكن ليتجاوز مشاهداتها اليومية الشحيحة ، وقصصاً سمعتها في زمن طفولتها وكررتها علي مراراً بزيادات ونقصان حسبما كان يسمح به مزاجها .

شيرين هي من علمتني أن خودي هو نفسه الله ، وأنه ليس موجوداً فقط في السماء وإنما في كل شيءٍ نعرفه حولنا ، وأننا جزء من روحه ، وكذلك الشمس والقمر والبحار والحيوانات والأشجار ، وأن الإنسان الذي يموت يولد مرة أخرى في مكان آخر ، لكن يكبر دون أن يتذكر شيئاً عن حياته السابقة ، وأن طاووس ملك مخلوق من نور الله وهو الحاكم ويساعده ستة من الملائكة . وهي من علمتني أيضاً دعاء الصباح والمساء ، وكيف تؤدى الصلوات اليومية الخمس بتوجهي إلى الشمس في أربع منها ، والى لالش في صلاة الظهر ، وصرت أعلم كل ذلك لنعام وكَولي وأصحح ما تعرفه عمتي من معلومات خاطئة .

قبل يوم واحد من تعرضها للضرب بأيدي حراس أمير الصحراء ، دار حوار سريع بينها وبين إحدى المنقبات العربيات في ممر الطابق الثاني ، جمعت بأثرهِ أكبر النساء عمراً وأجلستهن على شكل حلقة دائرية في الفسحة بين الباب الخارجي والساحة . شاهدتها تقف وسط الدائرة بثوبها الأسود وشعرها

القصير المهتز . قالت وهي تدور بهدوء حول نفسها ناظرةً في الوجوه :

«قرأت في الكتب أن أجدادنا تعرضوا إلى ما نتعرض له الآن ثلاثاً وسبعين مرة ، ومع ذلك فنحن مازلنا هنا وسيظل أبناؤنا يحميهم طاووس ملك» .

لم تكترث شيرين بحارسٍ امتطى من الخارج الجدار القريب وأخذ يراقب من فوقه ما يجري . واصلت حديثها :

«غداً سيأتي مقاتلو داعش ليختاروا سباياهم من بيننا ، وتنقل المتبقيات إلى سجن بادوش» .

كنا في هذه الأثناء قد تجمعنا حول الحلقة وأخذت توجه كلامها إلينا جميعاً :

«لابد من إيجاد طريقة تمنعهم من أخذنا ، علينا التعاون ومساعدة بعضنا لبعض لكي نحصل على حريتنا ونعود . . .» .

توقفت عن الكلام قليلاً ثم أكملت :

«الى أهلنا» .

هتفت امرأة عجوز تدعى كُوري :

«سنفعل مثلما فعلت جداتنا قبل عشرات السنين» .

وقبل أن تكمل تقدمت شيرين نحوها مادةً اليها كفها لتسكت . همست في أذنها شيئاً ثم أنهضتها وسارتا سوية وخلفهما بقية عجائز الحلقة ، ودخلن إحدى الخيمتين في الساحة ، في حين بقينا حائرات في الخارج والحارس مستمر

في مراقبتنا وبندقيته معلقة على كتفه .

قبيل مساء ذلك اليوم زارتنا كعادتها ، كان يبدو عليها التعب والقلق ولا أثر لابتسامتها الجميلة ، لكنها كانت محتفظةً بشيء من حماستها . شرحت لنا تفاصيل الخطة التي تم الاتفاق عليها ، وهي أن يكون مع كلٍ منا في اليوم التالي طفلٌ لكي نظهر كأمهات أمام المقاتلين المسلمين الذين سيأتون لأخذنا كسبايا فتقل رغبتهم فينا ، وتطلب ذلك إبقاء الأمهات الحقيقيات اللواتي لديهن أكثر من طفل بواحدٍ فقط في تلك الساعة . أيدت عمتي الخطة على الفور ، ولفت ذراعها حول كَلي لكنها أفلتت منها وارتمت عليّ .

لاحت ابتسامة شيرين مجدداً عندما ناولتني كرة صغيرة من الورق . تأملتني قليلا ثم قالت بتردد :

«ستجدين داخلها رماد خشب عثرنا عليه في الساحة ، وتم الاتفاق على أن تُلطخ به الجميلات مثلك وجوههن» .

أحسست عندها بوخزة أليمةٍ في صدري ورغبة كبيرة في البكاء ،لكنني تمالكت نفسي وسألتها عن الذي قالته لها المرأة المنقبة فوق فلم تجب ، وضعت رأسها فجأة في حجري وأجهشت في البكاء مثل طفلة صغيرة ويداها تعصران ثوبي . بقيت على تلك الحالة بعضاً من الوقت ، كانت الكرة الورقية ما تزال في يدي اليسرى فخطفتها عمتي ونهضت مسرعة إلى الخارج ولحقت بها كَلي تركض . مسحت شيرين دموعها بكم ثوبها ثم

جلست على ركبتيها مواجهة النافذة . نظرت في الأرض قليلاً بعدها رفعت كفيها وقربتهما إلى وجهها وسمعتها تقول :

«يا رب . بحق مشرق الشمس ومغربها ، بحق الشمس والقمر ، بحق العرش والكرسي ، بحق الأرض والبحار ، بحق دوران الفلك ، بحق سر طاووس ملك ، فرج عن هؤلاء المظلومات وأنقذهن من هذه المحنة» .

***

اشتبكت العجائز أولاً مع الحراس . جذبن شعورهم المرسلة وضربنهم بالحجارة والأحذية ، وحاولن أخذ العصي والقضبان من أيديهم ، الأمر الذي شجع الباقيات فاندفعن غاضبات نحوهم فتراجعوا على الفور ، تاركين شيرين تئن ملقاةً على أرض الساحة والدماء تغطي وجهها . ساعدتني فتاتان في نقلها إلى حيث الزاوية في الغرفة . كانت تنزف من مكانين في رأسها والكدمات تزداد وضوحا على ذراعيها ورجليها ، وانتفخت عينها اليمنى بنحو مخيف . لم أعرف ما يجب علي فعله ساعتها ، مسحت الدماء المتجمعة فوق جفنها الأيسر بربطة رأسي ثم طويتها مرتين ووضعتها تحت رأسها كوسادة . حاولت مد يديها إلى جراحها فمنعتها ، قالت وهي تتلوى :

«رأسي يؤلمني كثيرا ورجلي» .

رددت ذلك ثلاثاً أو أربع مرات وفي كل مرة كان صوتها

يخرج مخنوقاً . في ذلك الوقت كانت نعام قد سبقت الجميع إلى الداخل ، أرعبها منظر شيرين المسجاة والدماء في كل مكان ، فأخذت تصرخ ، فقدت معها صوابي ورحت أنا الأخرى أبادلها الصراخ ، ثم أخذتها بين ذراعي باكيةً بمرارة ربما حزنا على شيرين ، وخوفاً من موتها أو إدراكاً متأخراً مني بأننا فقدنا حريتنا ولن تعود أبداً حياتنا السابقة في قريتنا الصغيرة التي لا اسم لها .

عصر ذلك اليوم جال مسلحون فرحون غرف المدرسة وخيامها لاختيار سبايا من بيننا يأخذونهن معهم مباشرةً ، رافقهم المترجم الملثم نفسه الذي كان مع أمير الصحراء صباحاً . في كل مرة كان يدخل ثلاثة أو أربعة منهم ، يجتازون بخطوات قليلة عتبة باب الغرفة المزدحمة بنا . يدققون في الوجوه جيداً ويلتقطون لنا صوراً بهواتفهم النقالة ، ويطلبون بين الحين والآخر بواسطة الملثم من إحداهن الوقوف والدوران حول نفسها ، فإذا رفضت يصوبون نحوها فوهات بنادقهم فترضخ مذعورةً ، والتي يقع عليها الاختيار يتم جرها عنوةً إلى الخارج ، أما اللاتي يُحاولن إنقاذها فكن يتعرضن إلى الركل والضرب بكعوب البنادق . كنتُ مستندة بظهري إلى الحائط ورأس شيرين شبه الغائبة عن الوعي في حجري ، ويبدو أن تأوهها والدماء المتيبسة على وجهها وعينُها التي أصبحت بحجم بصلة ، إضافة إلى نعام الملتصقة بي وبكائها المستمر ، قد أبعد كلينا عن اهتمام المسلحين الذين جاؤوا لاستلام غنائمهم ذلك

اليوم . غير أن أحدهم وكان بديناً يملأ البياض شعر رأسه ولحيته الغزيرة أراد أن يأخذ عمتي . دخل إلى الغرفة مرتين وخرج مسرعاً ، وفي الثالثة جلب معه المترجم طالباً من عمتي الوقوف والاقتراب منه ، بدا غير مبالٍ بوجهها المخفي بالسخام ، ولا بكَلي المتكورة في حضنها . استبد به الغضب عندما امتنعت عمتي وأدارت وجهها إلى النافذة . هز المترجم من كتفه بقوة وقال له عبارة بالعربية فهمت منها فقط كلمة كافِرة ، ولم ينتظر ترجمةَ ما قاله إذ أحدث صوتاً من بندقيته ووجهها إلى عمتي ثم تقدم نحوها متخطياً عدداً من الجالسات . توسلتُ بها وعيني لاتفارق البندقية التي ترتجف بين يديه من الغضب أن تستمع إلى ما يقول ؛ لأننا ليس لدينا غيرها فامتثلت أخيراً . دفعت كَلي إلى جهتي ونهضت بتثاقل ثم رفعت ذراعيها إلى الجانبين . تراجع البدين بهدوء إلى الوراء قبل أن يسرع إلى الخارج يتمتم ويبصق . لم أفهم أول الأمر السبب الذي دفعه إلى ذلك ، فقد كان الخوف مسيطراً علي وحاجباً عني رؤية ما حولي بوضوح . انتبهت أخيراً إلى أن عدداً من النساء يغالبهن الضحك . قالت كَلي :

«عمة نديمة صارت سمينة» .

ثم أدارت وجهي ناحيتها فوجدتها واقفة في مكانها وذراعاها نصف مرفوعين ، وثوبها الأزرق الفضفاض منتفخ من جهة البطن وكأنها حامل في شهرها التاسع .

-١٠-

اكتشف مراد سريعاً أن وظيفته الجديدة التي حصل عليها بتوصية من عمه أبو رواحة استخبارية أكثر مما هي إعلامية ؛ إذ كان عليه تدوين ملاحظات فريق من أربعة خبراء ، عراقيان وسوري وألماني في سجل خاص ، وتضمينها في تقارير يوقعون عليها سويةً وترفع إلى والي نينوى . كانوا يفحصون شاشات العرض الكبيرة في النقاط الإعلامية الموزعة في أماكن عامة داخل مدينة الموصل ، ويراقبون ردود أفعال الناس خلال بث مقاطع فيديو عن معارك جيش الخلافة في جبهات القتال ، وكذلك تنفيذ عقوبات قطع الرؤوس ، والإلقاء من فوق المباني والإعدامات بالرصاص والرجم على المتهمين بالردة والزنا . رافقهم كذلك لتحديد المساجد والكنائس والمنازل التي تضم مقابر بعد تتبعها بواسطة قوائم وخرائط كانوا يحملونها ، وأحياناً يجلبون مرشدين محليين تغطى وجوههم لكي لا يتعرف عليهم أحد ، ويعود الفريق ذاته لتصوير المكان بعد تفجيره أو تجريفه للتأكد من إزالته بنحو تام . عمل مرهق وخارجٌ عن نطاق معرفته ، لكنه كان وسيلته الوحيدة لتتبع حركة

السبايا بخلاف وظيفتيه السابقتين اللتين قيدتاه ، كما أن أيام بحثه الأولى في قضاء تلعفر بلا صفة رسمية يحملها ، أهدرت الكثير من وقته بسبب السرية التي أحيطت بأماكن حفظ الغنائم ، وشكلت أيضاً خطراً على حياتيهما هو وضياء ، لكونهما تحركا في مناطق محظورة ، فتعرضت سيارة البيك آب ذات مرة لإطلاق نار أحدث في مؤخرتها ثقبين ، وألقت شرطة الخلافة القبض عليهما مُتلبسين بتسور جدار لمبنى بلدية تلعفر ، وبقيا في المخفر نصف نهار تحت التحقيق ، قبل أن يكفلهما وضاح أبو حفص ويعيدهما إلى أم نهود . وهنالك أعلن مراد رغبته في مبايعة دولة الخلافة وتسخير وقته لخدمتها في المسائل المدنية ، ابتغاءً للآخرة بدلاً من دجاج الدنيا الفانية .

ساعده تنقله اليومي مع فريق الخبراء على مقابلة كثيرٍ من الموظفين والمقاتلين الذين استعان بمعلوماتهم عن أماكن تجميع السبايا وطرق الحصول عليهن . وكلما ازدادت معلوماته تضخم معها خوفه من أن يكون سائراً خلف سراب ، فالغانمون كانوا يحتفظون بما يحصلون عليه من نساء في منازلهم ، بوصفهن ما ملكت أيمانهم ، فيختفين تماماً ويستحيل تتبع آثارهن إلا إذا تم عرضهن للبيع مجدداً ، وكان مراد يبلع ريقه كلما خطر هذا بباله ويقول لنفسه في كل مرة :

«أي أحمق هذا الذي يتخلى عنك يا فيروز» .

خصص الخبراء يوم الخميس من كل أسبوع للقيام بأمور مكتبية انشغلوا فيها بتحليل بيانات التجوال ونتائجه ، ومراجعة التقارير ، وكان مراد يقضي ساعات بطالته في ذلك اليوم متجولاً بين المحاكم ، يقف مطولاً أمام لوحات إعلاناتها التي تنشر صور السبايا المعروضات للبيع ، مع أسماء أصحابِهن وأرقام هواتفهم المرفقة بملاحظة شبه موحدة :

«الاتصال متاح عبر فايبر أو سكايب» .

اعتاد موظفو الاستعلامات على استفساراته وأسئلته عن إعلانات جديدة غير معلقة لذلك اليوم قد يفوته الاطلاع عليها إذا خرج ، وإن كانوا ما زالوا يحتفظون بعناوين بريده الإلكتروني أو وسائل التواصل الاجتماعي الخاصة به ، والتي كان يوزع قصاصاتها بسخاء بين الموظفين وحتى الناس العاديين أملا في معلومة قد توصله إلى مبتغاه . وحدث كثيراً أنه خرج بضع خطوات من مبنى المحكمة ثم عاد مسرعاً إلى الداخل للتأكد مجدداً من الوجوه والمعلومات ، وكان حراس الباب يقابلونه بابتسامة ود ويردون على تحيته بجملة سلام كاملة ، ويسمحون له بالدخول دون تفتيش معتقدين أنه من جهة رقابية .

قرأ الأسماء بتأن ودقق في عشرات الوجوه وطابق ملامحها مع النسخة الفيروزية التي حملها في رأسه دون حاجة لاعتماد النسخة الورقية التي في جيبه ، فلم يجد حتى شبيهة لها تبث في نفسه الأمل ، وجمع أرقام هواتف أصحاب سبايا كانوا

ينشرون إعلاناتهم بمعلومات فقط دون صور . وفي الغرفة التي منحه إياها عمه أبو رواحة في الطابق الثاني لمنزله الخالي إلا من خادم عجوز وحراس في الخارج ، قضى مراد ساعات ليلية طويلة متحدثاً إلى ضياء بواسطة فايبر عن نتائج زياراته الدورية التي كلفه بها للقرى الأيزيدية بحثاً عن معلومات جديدة ، واستلم منه رسائل منقولة عن أمه نصفها تأنيب في العادة . وكلم معلنين وبيده صورة فيروز مستفسراً عن أسماء السبايا المعروضات للبيع ومواصفاتهن من طول ولون العينين والشعر . وتمادى أحياناً سائلاً عن تفاصيل أكثر دقة كالبشرة والوجنتين والحاجبين ورسم الفم ، ولم يكن يهتم بغلق الهاتف بوجهه أو انتهاء الحوار بجمل سريعة غاضبة مليئة بالشتائم والسباب من الطرف الآخر ، فما كان يؤرق مراد ويجعله يشعر بالخيبة أكثر من أي شيء هو أن يوم بحث آخر أوشك على الانتهاء دون أن يجد لها أثراً .

أثمرت إجراءاته التنسيقية عن تلقيه دعوتين لحضور مزادين للسبايا ، أُجري الأول في مطلع شهر تشرين الثاني داخل قصر كبير مستولى عليه من ملكية ضابط في الجيش العراقي ، وبيعت فيه سبع عشرة أيزيدية بأعمار مختلفة ، أوقِفن في صف واحد مطرقات الرؤوس ، وعلى صدورهن أرقام تعريفية ، قابلهن اثنان وخمسون شخصاً متحمساً قدموا من مختلف أنحاء دولة الخلافة وفي عيونهم نظرات جوع ، باستثناء

مراد الذي كان يراقب بقلق وسط الزحام . وكاد أن يتحول المزاد إلى نزاع مسلح عندما أصر عدد من الحضور على استثناء فتاتين جميلتين من العرض وشرائهما مباشرة ، دون المرور بالإجراءات خشية ارتفاع أسعارهن أكثر من طاقة جيوبهم ، فاعترض منافسون لهم بغضب وتشابك اثنان بالقبضات والركلات ثم بالكراسي ، ووصل أحدهما منفلتاً من الأيدي التي حاولت الإمساك به إلى بنادق مكومة فوق منضدة ، قريبة لكن صوتاً آمراً رددت صداه جدران صالة المنزل الواسعة أوقفت الجميع بوضع الاستعداد :

«احترام» .

ظهر بعدها شخص خطا بهدوء من الخلف ، صلعة رأسه الكاملة ولحيته المدببة أوحيتا بالسلطة . وقف أمام المزايدين وخلفه السبايا ، أشار بيد إلى الشخصين المتعاركين ، دون أن يتكلم وحرك يده الأخرى تجاه الباب ، آمراً إياهما بترك المكان ثم سار بالهدوء ذاته عائدا من حيث أتى ليبدأ المزاد بالرقم واحد صاح المنادي :

«اسمها هالة وعمرها ثلاثون سنة ، يشهد صاحبها أنها ملبية في الفراش ومفيدة للخدمة . نفتتح السعر بخمسين دولاراً فمن يزيد» .

بعدها بخمسة أيام حضر مزاداً ثانياً أُجري بصخب أقل داخل قاعة صغيرة ضمن بناية مكتبة المدينة العامة ، وكان

على مراد إبراز بطاقته الشخصية وتدوين اسمه ، إضافة إلى عشرين آخرين في سجل خاص مع معلومات عن محل السكن ورقم الهاتف والوظيفة ؛ إذ كان الحضور مقتصراً على الراغبين في الشراء فقط ، وأوشك على ذلك عندما تم الإعلان عن سعر موحد للسبايا الشابات التسع بمبلغ مئتي دولار لكل واحدة منهن ، وحدد التنافس للحصول عليهن وفق نظام القرعة بكتابة أسماء الحاضرين في قصاصات طويت وخلطت جيداً داخل وعاء زجاجي ، وأعلن عن فوز أول تسعة سحبت أسماؤهم . صفق مراد بحرارة لأنه لم يكن من بين الفائزين ، ثم تذكر أن عليه التكبير في موقف كهذا فصاح وهو يمشي مسرعاً إلى الخارج وقبضة يده ترتفع وتنخفض وسط دهشة الجميع :

«الله أكبر . . الله أكبر . . الله أكبر» .

***

الموصل التي عرفها مراد خلال دراسته الجامعية ضاجةً بالحياةِ ومتباهيةً بماضيها كانت قد استبدلت بأخرى بلا معالم ، مثل نسخة مزيفة فرضت على من تبقى من أهلها بعد نزوح عشرات الآلاف هرباً من قوانين الدولة الجديدة المميتة . صُدِم في يوم وصوله الأول للمدينة بمنظر تل التوبة الخالي من بناية جامع النبي يونس ، مع أنه اطلع مراراً وتكراراً على مشهد

تفجيره الموجع في نشرات الأخبار . لكن وقوفه على رصيف الشارع المقابل ، وأمامه ذلك الفراغ الهائل في أعلى التل ، حيث كانت المنارة والقباب المتعددة منذ مئات السنين ، جعله يشعر بأن ذلك حدث للتو وليس قبل أسابيع . تكرر هذا عند تجواله في الجزء الآخر القديم من المدينة ، فلم يكن تمثال الشاعر أبي تمام في محله عند مدخل سوق باب الطوب ، واختفى تمثال مريم العذراء من فوق مبنى كنيسة الطاهرة وقبر المؤرخ الإسلامي ابن الأثير ، الذي كان يحتل وسط الطريق قرب الملعب الكبير . ولم يبق من نصب الموسيقي الملا عثمان الموصلي قرب محطة القطار سوى قاعدته الكونكريتية المربعة . وتبين له أن الدولة الإسلامية لم تكتف بالأبنية فقط بل عمدت إلى إحداث تغييرات جذرية في مختلف المجالات ، بحسب قياسات مسطرة الدين ، وخنقت المجتمع بحبل تشددها الغليظ ، فأبدلت المحاكم الوضعية بأخرى شرعية ، ومنعت ممارسة مهن القضاء والمحاماة والصحافة والغناء ، وألغت كليات الحقوق والفنون الجميلة والعلوم السياسية ، وأقسام اللغات غير العربية والتاريخ في جامعة الموصل التي تخرج منها ، وفصلت بين الإناث والذكور في المدارس وغيرت مناهجها وأقصيت النساء من الوظائف ، وفرض عليهن النقاب وعدم الخروج إلا برفقة محرم ، وأوقفت خدمات الهواتف النقالة وحرمت التدخين والألعاب الشعبية في المقاهي وزيارة القبور وحلق اللحى .

يوماً بعد آخر ترسخت لدى مراد قناعة اشتراكه بطريقة أو بأخرى في قتل الأشياء الجميلة التي أحبها في الموصل ، وشيء ما في داخله كان يطلب منه التوقف عن نزوته المزمنة ، والعودة إلى قرية أم نهود بأقل الخسائر الممكنة ، ومواصله حياته كما أراد أبواه ، وهذا ما واجهه قلبه بالعناد ، ودعاه إلى الاستمرار في البحث عن فيروز ؛ لأن عثوره عليها وإعادتها إلى حيث كانت مثل جوهرة ثمينة يعني تكفيراً عن كل الذنوب التي يعتقد أنه قد اقترفها ، حين غفل عنها وتركهم يأخذونها . كان قلبه ينجح دائما في قمع ثوراته الداخلية ، ولم يكن يملك إزاء ذلك سوى إظهار حالات تمرد طفيفة باختلاق أعذار لعدم البقاء مع فريق الخبراء عند إشرافه على تدمير مسجد أو كنيسة أو ضريح موارىً فيه جثمان رجل يرى الناس فيه قداسة ، متجنباً بذلك مشاهدة المكان يتناثر بالتفجير . ولم يقف في تجمعات تنفيذ العقوبات التي كان يتم الإعلان عنها بمكبرات الصوت الجوالة في الشوارع والأزقة . وغاب بنحو تام عن صلوات الجمعة وخطبها التحريضية على الموت من أجل دولة الخلافة . وقاطع مجلس أبو رواحه المنزلي الذي كان يعقد مساء كل يوم تقريباً بحضور شخصيات رفيعة المستوى . حتى الصلوات الخمس اليومية لم يكن يصلي منها سوى التي يدخل وقتها ظهراً أو عصراً ، وهو مع فريق الخبراء أو التي يصادف وجوده في السوق عند الأذان لها ، فيضطر كما الجميع للدخول

إلى المساجد وأداء الصلاة خوفاً من عصي رجال الحسبة المنتشرين كالنمل .

امتنع عن النظر في المرايا كي لا يشاهد نتف الشعر النامية بكثير من الفوضى على وجهه أو شعر رأسه ، الذي أصبح لعدم الحلاقة مثل عش مهمل ، وهما تحديداً أكثر شيئين كرههما في أخيه وضاح ورفاقه المتشددين من أبناء القرية ، لإيمانه بأن التدين ليس مجرد إطلاق لحية ومقاطعة للحلاقين وتقصيراً للثياب ، وإنما تعامل إنساني أساسه عدم التفريق بين الناس ، أياً كانت انتماءاتهم ومعتقداتهم . عذبه كثيراً واقع أنه أصبح واحداً منهم ونسخته الشكلية بثياب أفغانية شابهت مئات الغرباء الآخرين ، الذين جذبهم مغناطيس الموصل . وكاد في الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني ، مدفوعاً بيأسه التام من رؤية فيروز ، أن ينهي تحكم قلبه ويشطب من ذاكرته مبايعته الاضطرارية للدولة الإسلامية ، غير أن الصدفة التي جمعته بصاحب سجل الوفيات في مقر الإعلام المركزي جعلته يستعيد ثقته بحلمه ، بل كانت بالنسبة إليه خطوة كبيرة نحو تحقيقه .

انتبه مراد صباح ذلك اليوم ، وقبيل خروج فريق الخبراء لعمله الروتيني ، أن أمرا غير عادي يحدث في المقر ، فالموظفون كانوا يتحركون بذعر في الممرات كأنهم مطاردون من حيوانات مفترسة . أخبره أحدهم وهو يتلفت عند الباب المؤدي إلى دورة

المياه بأن وكيل ملك الموت يجوب المكان ، فظن مراد أنه ربما مبعوث من ديوان الجند لتجنيد موظفين وإرسالهم إلى جبهات القتال ، وعندما سأله عن ذلك حرك الموظف رأسه نافياً وقال بعد قراءة سريعة لسورة الفلق :

«الحاج بومة صاحب سجل وفيات دولة الخلافة متواجد معنا اليوم تحت سقف هذا المبنى ، مما يعني كارثةً في طريقها للوقوع لا محالة» .

حاول مراد الاستيضاح أكثر غير أن الموظف دفع الباب فزعاً واختفى في دورة المياه . وعندما التفت وجد أمامه عند مدخل الممر رجلاً طاعناً في السن يسير بهدوء . خمن أنه الشخص المتسبب ذاته بكل ذلك الهلع ، فقد كانت نظرته الحادة وكثافة شعر حاجبيه توحيان بالقسوة والنفوذ . كما أنه كان الوحيد الذي يتحرك في المكان بوجه حليق مرتدياً بِنطالاً بلغ طوله كعب الحذاء ، وتدلت من عنقه ربطة عنق أخفت نصفها الأسفل سترة رسمية سميكة القماش . جاوز الرجل مراداً بخطوات قليلة قبل أن يتوقف فجأة وسط الممر ، وأدار نصف جسده ملتفتاً نحوه كأنه يحاول التأكد من أنه شاهد بالفعل شخصاً لم يفر من المكان لدى مروره .

علِم مراد من موظف شؤون الأفراد أن الحاج بومة يزور ديوان الإعلام المركزي مرة واحدة كل شهر ، للحصول على قوائم الوفيات المرسلة من العشائر في القرى ودواوين القضاء

والمظالم والجند والحسبة والأمن العام والصحة في ولاية نينوى ، ويجوب باقي ولايات دولة الخلافة للقيام بالشيء ذاته ، وأنه يحتفظ في منزله بالموصل بأرشيف من سجلات الوفيات تختنق بها غرفة واسعة .

فكر مراد وهو ينتظر الحاج بومة في الخارج بتجربة أكثر من سنة فرض فيها حضوره شبه اليومي على فيروز ، دون أن تبادله سوى بنظر كاملة واحدة ولم ترد على ثرثرته ولا حتى بكلمة . قال محدثاً صورتها التي أخرجها من جيبه وفي عينيه نظرة حزن :

«حرةٌ مثلك ستختار الموت على أن تفقد شرفها» .

أحس ساعتها بالأنانية لأنه أهمل خيارات فيروز ، ولم يتصورها سوى حية لكي يتمكن من امتلاكها في النهاية ، فوجد أنه لا يختلف كثيراً عن أولئك الذين شاهدهم في المزادات أو تحدث إليهم عبر الهاتف .

كانت حبات صغيرة من المطر تتساقط عندما لمح الحاج بومة يخرج من الباب الرئيسي ويسير ناحيته مثل رجل آلي . الخشية من اكتشاف موت فيروز شطبت الكلمات التي أراد أن يقولها من رأسه ، فحاول مستفيدا من المسافة القليلة المتبقية قبل وصوله إيجاد أخرى فلم تخطر بباله سوى مفردات متعلقة بالحياة والأمل ، وأعتقد بأنها لن تتوافق مع رجل متخصص بالموت . ظن بأن العجوز سوف يتجاوزه كما فعل في الداخل ،

لكنه توقف بمواجهته تماماً وظل يحدق في عينيه ، وعندما وجد أنه غير آبه سأله :

- «هل أنت جديد هنا في المدينة؟» .

أجاب مراد بتردد :

«ليس تماماً درست في جامعة الموصل بضع سنوات» .

«الناس الذين يعرفون عملي يخافون في العادة . . .»

قاطعه مراد بشيء من النفاق :

«تسجيل الوفيات ليس شيئاً يدعو للخوف إنها مجرد وظيفة» .

قال الحاج بومة كأنه يواصل حديثاً قديماً مع مراد :

«الإنسان يخاف دائما من أشياء يجهلها ، ولهذا تجده متشبثاً بالحياة ويحارب من أجل البقاء فيها حتى آخر نفس ظناً منه أنها أفضل من الموت» .

لاحت من خلف زجاج نافذة قريبة رؤوس عدد من موظفي الإعلام وهم يتابعون اللقاء ، فيما قلب الحاج بومة أوراقاً كانت في يده :

- «الحياة متغيره مثل رمال الصحراء لا تستقر على حال ، مليئة بالصراعات والتناقضات . أما الموت فثابت ، وجهته واحدة مهما تعددت طرق وصوله . عادل لا يفرق بين غني أو فقير ، متعلم أو أمي ، مؤمن أو كافر» .

ظلت الكلمات الأخيرة تتردد في رأس مراد وإحساس

خاطف راوده بأنه سبق وأن عاش تلك التجربة يوما ما ، وأن الوجه المليء بالتجاعيد الذي ينظر إليه مألوف لكنه لم يستطع الإمساك بأي ذكرى قديمة .

ازداد هطول المطر عندما سأله مراد دون تفكير :

«هل تسمح لي بالاطلاع على سجلات الوفيات للأشهر الأخيرة؟» .

-١١-

لم يكن خليل إبراهيم قد تجاوز السابعة من عمره عندما وثق أول حالة وفاة ، وكانت لِصبي من الجيران في حي باب لكش وسط الموصل غرق في نهر دجلة صيف سنة ١٩٥٠ ، فكتب اسمه بأحرف كبيرة على ظهر قطعة من علبة سكائر نوع مارلبورو ، وبقي محتفظاً بها مطوية تحت الثياب في الصندلية(*) ، لحين توفي خاله البناء إثر سقوطه من سلم عال في معمل السكر قيد الإنشاء ، فأضاف إليها اسمه . وفعل الشيء ذاته عندما توفيت زوجة بقال الحي عقب إنجابها مولوداً بساعات قليلة ، وعم والدته الذي قتلته نوبة قلبية وهو في طريق عودته من الحج . وعند وصوله الصف الثالث ابتدائي كان قد أكمل ثلاث قوائم كتب تفاصيلها بخط مقبول على أوراق دفنها في حقيبته المدرسية التي كانت آمن مكان في المنزل ، بسبب الأمية المنتشرة فيه ، إذ كان الوحيد من بين أشقائه الثلاثة الذي بقي مستمراً في الدراسة لكي يحقق حلم

(*) الصندلية : أسم يطلقه أهل مدينة الموصل على خزانة بعدة أبواب لحفظ الملابس وغيرها تصنع من خشب الصندل . ومنها استمدت تسميتها .

والده المزارع ، في أن يصبح أحد أبنائه أفندياً ذات يوم .

معلم اللغة العربية كان أول من رصد نزعته التوثيقية عندما أعطاه خليل عن طريق الخطأ قوائم الموت بدلاً من الواجب البيتي ، غير أن المعلم ركز بنحو أكبر على سلامة الإملاء وشكل الأحرف وتحريكها ، وكافأه بدفتر من مئة ورقة لتشجيعه على التمرين الكتابي أصبح فيما بعد أول سجل وفيات يملكه خليل وأكثره قرباً إلى قلبه ؛ لأنه احتوى على أسماء والدته وخالته اللتين توفيتا في سنة واحدة ، دون أن تظهر عليهما أي علامة مرضية ، فضلاً عن جده لأبيه الذي أكل السرطان جوفه ، وأناس آخرين أقرباء أو جيران ظلت صورهم تتراءى له حتى بعد مرور سنوات طويلة كلما وقع الدفتر الصغير بين يديه .

في مرحلة الدراسة المتوسطة بدأ خليل بتقصي أخبار الموت بدلاً من انتظارها ، وفي وقت كان الأولاد من في سنه يلعبون الكعاب والجلو ملو والمزراع(*) في زقاق الحي ، كان هو يجول بين الأحياء المجاورة بحثاً عن مجلس عزاء أو لافتة إعلان وفاة ، ليفتتح صفحةً جديدة في سجله للوفيات . ولأن الابتسامة كانت مشطوبة من وجهه وحواراته السريعة قليلة الكلمات مع

(*) الكعاب والجلو ملو والمزراع : ألعاب شعبية كانت تمارس في مدينة الموصل قبل عقود .

أقرانه ، وتضمنت في الغالب أسئلة عن الموت وتواريخه ، خافه الأولاد ولقبوه خليل بومة ، والفتيات اعتدن الهروب إلى داخل المنازل كلما ظهر في الأزقة بمشيته المتثاقلة ، حاملاً حقيبته الجلدية السمينة . حتى الكبار كانوا يتجنبون النظر إليه مطولاً ويقرؤون في أساريرهم المعوذتين ويبصقون ثلاثاً ناحية اليسار .

أكثر سنوات صباه ازدهارا في توثيق الوفيات كانت سنة ١٩٥٩ ، إثر اندلاع ثورة الشواف القومية الفاشلة ، التي قابلتها حكومة بغداد وموالوها من الشيوعيين في الموصل بالإعدامات الفورية والسحل على الطرقات ، وتعليق الجثث بأعمدة النور . ونجح في تسجيل أسماء القتلى جميعاً بعد أسبوعين من المتابعة الميدانية ، باستثناء ثلاثة جثث لم يكن قد تبقى منها سوى أشلاء متهرئة ، لكنه وثق مكان دفنها الجماعي في حفرة على ضفة نهر الخوصر في الجانب الأيسر من الموصل . وقبل نهاية تلك السنة رافقت مختار الحي إلى منزله ثلاث أمهات يبحثن عن أولادهن المفقودين منذ أيام الثورة المقموعة ، وتوسلن بوالد خليل كي يتحقق من أسماء الموتى التي يكتبها ابنه في دفاتره ، عله يجد ذِكراً لأبنائهن بينها . وقفن سوية في صالون المنزل مثل متسابقات على خط الانطلاق مهيآت أنفسهن لأخبار سيئة ليبدأن طقوس الحزن . في حين توقفت ملامح والده وعمته الكبرى التي تكفلت بتربيته بعد وفاة أمه عند لحظة الصدمة ، عندما بدأ هو وبتأن شديد بقراءة أسماء ١٩٣

قتيلاً ، ومناطق وقوع حوادث القتل ، والأدوات التي استخدمت فيها . وعندما انتهى من القراءة دون أن يتسبب بكسر قلب أي منهن هجمت عليه الأمهات فرحات ، وأمطرنه قبلات عرفاناً وشكراً أحمر لها وجهه . وكانت تلك هي الاستعانة الأولى بأرشفته وسبباً رئيسياً للاعتراف المنزلي بموهبته المشؤومة .

شاع اسم خليل بومة في أرجاء المدينة وارتبط اسمه بالكثير من الشائعات التي تحدثت عن قيامه بإطلاق سراح طائر يشتريه من السوق مقابل كل حالة وفاة يسجلها ، ومقدرته الفائقة في تحديد زمن وفاة أي شخص بنظرة صغيرة في عينيه ، وامتلاكه سجلاً ضخماً دون فيه أسماء الأشخاص الذين سيموتون ، وبترتيب زمني يمتد لسنوات مقبلة ، مما أفقده أي فرصة في توطيد علاقة صداقة مع أي شخص ، حتى مع أشقائه الذين وزعتهم ظروف الحياة والهرب منه في أنحاء البلاد ، وحاولوا بشتى طرق التجاهل إبعاده عن سكة حياتهم ، فعاش وحيداً في منزل العائلة بعد زواج متأخر فوق سقف سن اليأس لعمته ، ورحيل والده بسكتة دماغية . ولم يكن يزوره أحد في الساعات القليلة التي تواجد فيها بالبيت سوى ذوي متوفين أو متطوعين مدوا له عند الباب وعيونهم في الأرض أوراق بياناتِ الوفيات . وقيل بأن أرواح المُجنى عليهم كانت تدله على الجناة ، فأصبح مهاباً من القتلة ومتابعاً من قبل رجال الأمن المرتابين من شهرته المتضخمة . وتسجل سيرته الذاتية

البيضاء جنائياً حالة توقيف واحدة حدثت في سنة دراسته الإعدادية الأخيرة ، بتهمة ممارسة عمل غير مشروع وحمل اسم يجلب النحس للمواطنين ، لكن قاضي التحقيق الذي نبش قانوني العقوبات وأصول المحاكمات الجزائية وتعديلاتهما لم يعثر على تكييف قانوني ينطبق على التهمة الموجهة إليه ، ولم يجد سابقةً قضائيةً حوكم فيها شخص لمجرد تسجيله أسماء موتى يعرف بهم الجميع . كما أن إطلاق لقب خليل بومة عليه يعد جريمة مرتكبة بحقه ؛ لذا فهو المجني عليه بنظر القانون ويستطيع مقاضاة أي شخص يناديه بهذا الاسم بتهمة القذف .

أسس وهو في عز شبابه مكتبة في منزله أخذت تنمو بمرور السنوات ، رفاً بعد رف ، بالكثير من الكتب في مختلف شؤون المعرفة ، وأتقن اللغات الكردية والتركية والسريانية لتسهيل مهامه في مناطق الأقليات في الجزء الشمالي من نينوى . وعلى الرغم من انشغاله شبه التام بتوثيق حالات الوفاة وقضائه ساعات نهارية طويلة ، متنقلاً بين مناطق مدينة الموصل لجمع المعلومات من المصادر ذات العلاقة بالمتوفين ، وأخرى ليلية لنقل ما جمعه من معلومات في سجلاته الضخمة ، لكنه لم يُخرج ذلك عن إطار الهواية ، واعتمد في معيشته على ما ورثه من والده من أراضٍ زراعية منتجة وعقارات مستأجرة . بقي على تلك الحال حتى وصل البعثيون إلى السلطة ، فمنحوه تكريما

لجهود توثيقه لقتلاهم خلال سنوات النضال السلبي ، وظيفة خاصة به بلا دائرة يرتبط بها ، مع توجيه رسمي للمؤسسات الحكومية وغير الحكومية بتسهيل مهامه التوثيقية ، ولاسيما قسم الوفيات والطب العدلي في دائرة الصحة . وصار يُعرف بالرفيق بومة ، على الرغم من عدم انتمائه فعلياً إلى حزب البعث .

وعندما اندلعت الحرب العراقية الإيرانية مُنح رُتبة ضابط احتياط ، وجال بحرية لنحو ثمان سنوات وهو عمر الحرب في جبهات القتال ، مفتشاً عن بطاقات التعريف المربوطة بسلاسل حول رقاب الجثث ، ودقق سجلات الخسائر من أقصى شمال الحدود الشرقية حتى أقصى الجنوب . وكانت الكثير من العائلات تقطع شكها بيقين سجلاته في حالات فقدان أبنائها أثناء المعارك ، فإن وجدوا أي إشارة مسجلة لدى الرفيق بومه يعلن الحزن فوراً وتقام مراسم العزاء ، حتى إن الصليب الأحمر الدولي استعان برصانة سجلاته بعد معركة الفاو جنوبي العراق وحملة الأنفال شماله ، ومنحه لقب الفارس الأحمر ، وردت وزارة الدفاع العراقية بتقليده وسام الرافدين ونوطي شجاعة ، ومنحته بعد انتهاء الحرب مكتباً واسعاً في دائرة المحاربين القدماء بالموصل ، فأصبح مرجعاً حياً للباحثين والمؤرخين ، وتقاطر عليه الصحفيون من كل أنحاء البلاد . وبعد اندلاع حرب تحرير الكويت ورد اسمه في تقارير دبلوماسية كويتية مرفوعة إلى الأمم

المتحدة بشان مصير مواطنيها المفقودين ، وهذا ما دفع المخابرات العراقية إلى تحديد حركة تنقله في داخل مدينة الموصل فقط واختفى من المخزن الأرشيفي في حجرة بمنزله يسميها المقبرة سجل سنة ١٩٩٠ ، الذي تضمن في ربعه الأخير معلومات جمعها عندما أرسله المجهود الحربي إلى الكويت لتوثيق وفياتها ، على اعتبار أنها المحافظة العراقية رقم ١٩ .

عاد خليل بومة إلى الواجهة مجدداً بعد سقوط نظام البعث واحتلال الجيش الأمريكي للعراق في ٢٠٠٣ ؛ إذ كانت تلك السنة بوابة انطلاق حرب شوارع مفتوحة في الموصل شاع فيها القتل لمجرد القتل ، وانتشرت مناظر الجثث الملقاة على الأرصفة وفي الساحات العامة وامتلأت بها مجمدات الطب العدلي ومقبرتا كوكجلي ووادي عكاب(*) . ففتح وللمرة الأولى سجلات خاصة بمتوفين غرباء لا يعرف أسماءهم أو عناوين سكناهم ، وكان يدون بدلاً من ذلك تفاصيل معينة عن الجثث كالثياب والأحذية والعلامات البارزة من ندب قديمة أو وُشوم ، وأمكنة العثور عليها وتواريخها ، ثم رمز لها بأرقام معينة كتبها أيضاً بالطلاء على قطع حجرية دفنت مع الجثة . وبمرور الأيام أصبح سجل الغرباء مقصداً لذوي المقتولين ، سواء المدنيين أو منتسبي الجيش والشرطة العراقيين ، ومسلحي

(*) كوكجلي ووادي عكاب : منطقتان في الموصل فيهما مقبرتان واسعتان .

التنظيمات المسلحة . وبسبب ضعف أداء الدوائر الحكومية ، بسبب الفوضى الأمنية ، غير خليل بومة استراتيجيته بشأن الموتى معروفي الهوية فلم يكتف بتوثيق التفاصيل في سجلاته ، بل انتقل إلى مرحلة إعلام ذويهم إذا وجد في جيوب الجثث عناوين أو أرقام هواتف . أما إذا عرف الأسماء فقط من خلال بطاقات الهوية بدون تفاصيل أخرى ، فكان يكتب قوائم بها تتضمن أيضاً أمكنة الدفن وتواريخها ، وعلقها على جدران خمسة جوامع في أنحاء متفرقة من المدينة .

ولأجل حياديته التوثيقية التي راعى فيها تسجيل أسماء الكثير من الانتحاريين والمقاتلين ، الذين سقطوا خلال المعارك في شوارع الموصل ، لجأ تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام ، بعد سيطرته على المدينة ، إلى منحه وظيفة صاحب سجل الوفيات بدوام حر وصلاحية تنقل مطلقة في جميع مناطق دولة الخلافة ، بين الموصل في العراق والرقة في سوريا ، يرافقه سائق شخصي متفرغ ، وسيارة دفع رباعي نوع شوفرليت تحمل شعار الدولة الإسلامية ، فأصبح يعرف بين الأهالي بالحاج بومة . ولم تنجح تعليمات دولة الخلافة بتحريم التطير في تقليل إظهار ما يدل على تشاؤمهم عند رؤيته ، أما المهاجرون الانتحاريون فقد تفاءلوا بوظيفته وعدوه شاهداً ستؤكد سجلاته يوم القيامة على سعيهم في الدنيا من اجل إعلاء كلمة الدين .

منحته الدولة كذلك حق الاستعانة بموظفين يعينوه في جمع وتدوين المعلومات ، وهو ما عارضه بشدة في الأشهر الثلاثة الأولى بسبب اعتياده العمل دون شريك أو مساعد غير أن ضعف حواسه بسبب الشيخوخة وازدهار الموت واتساع رقعة عمله ، إضافة إلى جهلة التام باستخدام وسائل الاتصال الحديثة ، جعله يقبل بطلب معاون يتنقل معه ولكن شرط أن يختاره بنفسه . وعندما صادف مراد في ديوان الإعلام المركزي والتقط ذلك الفضول الذي في عينيه ، وضعه على الفور في دائرة الاهتمام . وحصل من ملفه في شؤون الأفراد وذاكرة الموظف المسؤول المرتعد ، خوفاً على معلومات تفصيلية استعان بها في خطوة تجنيده الأولى لمراد . وإدخاله عالم الأموات عبر سجلاته .

-١٢-

بقي الحظ إلى جانبنا أنا وأختيّ وعمتي في تلك المرة ولم نفترق . أخذ المقاتلون الكثير من الفتيات ونساءً متزوجات مع أطفالهن وثلاثاً من العجائز ، ونقلونا نحن المتبقيات والأطفال إلى سجن بادوش لنقوم بأعمال الخدمة والطبخ والاعتناء بالجرحى . لم أكن بحاجة إلى ادعاء أن نعام ابنتي ، فتصرفها الطبيعي هو التعلق الشديد بي كأنها مربوطة بحبال إلى جسدي ، لكن عمتي وكُولي كان عليهما أن يلعبا لعبة الأم والابنة ، وبالغا تعانقاً وتبادلاً للقبلات عندما أوقفونا في ساحة السجن ذات الجدران العالية ، وقسمونا إلى مجموعتين ، أمهات وعازبات . كان على مجموعتنا الانضمام إلى أخريات وصلن قبلنا لإعداد الطعام في قدور كبيرة للمئات من الحراس والمقاتلين المصابين في المعارك ، وغسل ثيابهم وتنظيف الزنزانات والممرات ودورات المياه ، وكان على العازبات توزيع الطعام ومساعدة الأطباء في تقديم العلاجات ، وتركوا أمر العناية بالأطفال في غياب الأمهات للكبيرات في السن غير القادرات على العمل . وخصصوا لنومنا زنزانتين متجاورتين مفتوحتين على بعض مليئتين بالأسرة ، أصبحتا بيتنا الذي

تمتعنا فيه بحريتنا خلال ساعات ما قبل النوم القليلة ، والمكان الوحيد الذي استطعنا فيه التعبير عن غضبنا ووصف المسلمين بالدواعش ، دون أن تتعرض إحدانا إلى ثمانين جلدة كعقوبة .

وضعوا شيرين داخل زنزانة انفرادية بأوامر من أمير الصحراء ، وتولى طبيب باكستاني تفوح منه دائماً رائحة التوابل تضميد جراحها وتجبير كسر في ساقها اليمنى ، ومتابعة حالتها مرتين في اليوم صباحاً ومساءً . لم يسمحوا لي برؤيتها إلا بعد أسبوع من التوسلات بأبي عائشة العفري المسؤول عن الأمن ، وتوصية من الطبيب الذي أكد حاجتها إلى يد نسوية للاعتناء بها وإطعامها ، واقترح اسمي لتلك المهمة لأن شيرين تردده باستمرار .

بدت لي مثل طفل رضيع مقمطٍ عندما رأيتها للمرة الأولى ، فقد كانت الضمادات تغطي معظم جسدها والنصف الأيمن من وجهها . لكن بقي تحت كل ذلك شيء من شيرين الأم التي عرفتها تقاوم للتغلب على جروحها ، فعندما فتحت عينها السليمة ووجدتني غارقة بدموعي إلى جوارها قالت بصوتها الحنون الذي اشتقت إليه :

«هذا ليس وقت البكاء يا فيروز ، الدموع لن تعيد ما فقدناه» .

أردت أن أقول لها بأن العالم ، بعيداً عن كومة البصل الأبيض على الطريق وخارج بيت الطين الصغير الذي أخذونا منه ، ليس كما كنت أحلم وتحكي لي عنه أمي من قصص وأنا

طفلة ، فهو أصغر بكثير وظالم لا يعرف الناس فيه الرحمة . أردت إخبارها بأنني خائفة وضعيفة وأحتاج إلى قوتها لحماية نفسي وأختيّ وعمتي ، وأننا بانتظارها جميعاً لكي ترشدنا إلى ما يجب علينا القيام به . لكن خشيتي من تحميلها مواجع إضافية منعتني من رفع صوتي بما كنت أفكر فيه ، ورحت أحدثها عن نجاح خطتها في إنقاذ الكثيرات منا من مصير الذهاب مع رجال المسلمين إلى بيوتهم ، وأن خدمتهم وغسل أطباقهم وثيابهم في السجن أفضل بألف مرة من أشياء أخرى .

ربما فهمت شيرين ما كنت أقصده بأشياء أخرى ؛ لأنها حركت رأسها وأغمضت عينها . أعلمتها أيضاً أنهم سمحوا لي بالدخول إلى زنزانتها ثلاث مرات في اليوم ، لإطعامها وتقديم الدواء لها ومرافقتها إلى الحمام ، وأن الطبيب يرى بأنها تتحسن ولذلك سيأتي لرؤيتها مرتين في الأسبوع أو متى ما احتاجت إلى ذلك . فاجأتني نبرة صوتها الغريبة وهي تقول متوسلة :

«أرجوكِ ساعديني لكي أظل طاهرة» .

لم أفهم ماذا تعني بذلك ، فتشت جنبيها عن شيء ربما لم تلتقط أنفي رائحته ، فكرت ببقعة دم تحتها لكنني لم أجد . اقتربت من رأسها ومسحت بيدي على جبينها فعادت لتقول :

«أمير الصحراء أمرهم بمعالجتي بحكم أنني صرت سبية له ، وسيأخذني بعد شفائي لكي يذلني وينتقم مني ، وأنا أريدك أن تمنعيه من ذلك» .

ظننت بأن الضربات التي تلقتها على رأسها قد أحدثت شيئاً في عقلها وجعلتها تقول ذلك ، فمن أنا لكي أقف بوجه أمير لديه الكثير من الرجال يحرسونه بالبنادق . سألتها هامسةً :

«كيف أمنعه؟» .

فأجابت على الفور :

«اقتليني» .

***

تعلمتُ في المطبخ أن العمل بجد وإطاعة الحاجة رقية الأفغانية ومساعدتيها البدينتين الخبيثتين كفيل بإبقائنا في مكان واحد ، ويمنع عنا ما كنت أراه في عيون الحراس عندما يأتون لأخذ الطعام ويعيدون الأواني الفارغة ، أو عندما كنت أمر بهم وأنا في طريقي ذاهبة أو عائدة من زنزانة شيرين . وأدركت أن الأخطاء الكبيرة كإتلاف الطعام وعدم إظهار الاحترام للأكبر منا مقاماً ، سيؤدي إلى طردي من الخدمة وبيعي كما حدث لامرأة من سنجار تُدعى منيعة رفضت غسل أوراق الخَس ، وقالت غاضبةً للبدينتين خلال مشاجرة كلامية افتعلتاها أنها زوجة تاجر كبير ، وكان لديها خادمات مثلهما ، وأشارت إليهما بسكين لحم كبيرة ، فتسابقتا مثل جروين خائفين إلى الحاجة رقية ، وأخبرتاها أن الكافرة هددتهما بالقتل ، وأنها ترفض احترام الإسلام وتصمم على اتباع

التعاليم الإيزيدية المشركة بتحريم لمس الخس ، واتهمتاها كذباً بزيادة كميات الملح في قدور الرز لكي تزيد آلام الجرحى وترفع ضغط دمائهم . فعوقبت منيعة بخمسين جلدة أمام الجميع ، وأرسلوها في اليوم ذاته مع ابنتيها الصغيرتين إلى سنجار لبيعهن في المكان الذي قالت بأنها كانت سيدةً فيه ذات يوم .

كانت الحاجة رقية تسمح لي باصطحاب نعام إلى المطبخ وتدعوني للجلوس معها أحياناً ، بعد الانتهاء من تجهيز وجبة الغداء ، وتحاول إيجاد الكلمات المتشابهة بين الكردية ولغتها الأصلية الأفغانية ، فتظهر الدهشة على وجهها المليء بالشامات كلما أخبرتها أنني أفهم معنى كلمة قالتها للتو ، وتردد عبارتها التي تكررها باستمرار :

«سبحان الله» .

ساعدتني تلك الكلمات القليلة ، ومن ضمنها أسماء الأرقام مع الذي تعلمته وقتها من العربية ، وكان لا يتعدى شؤون المطبخ ، في تمتين علاقتي بها ، ويوماً بعد آخر اكتشفت أنها لم تكن شريرة كما أظهرتها وظيفتها التي كانت تفرض عليها أن تعاملنا كعبيد . فقد كانت تخفي طيبتها وراء حائط الأوامر والصراخ وضرب الأكتاف والمؤخرات بعصاها الصغيرة . تأكد لي هذا الشيء مساء جمعة بقينا فيها لوحدنا في المطبخ ، بعد الانتهاء من غسل أطباق العشاء . ناولتني قطعة مربعة من حلوى الطحينية داخل كيس شفاف ، وقالت بعد أن تنقلت ببصرها

بيني وبين نعام النائمة على رزمة من أكياس الدقيق الفارغة :

«هذا لأختك» .

قربتُ الحلوى من صدري وقلت لها مصححةً :

«ابنتي» .

أدركتُ من حركة رأسها بأنها غير مصدقة ، وربما وصلتها بطريقة ما توسلاتي دون أن أنطق بشيء ، فقد أشارت بإصبعها إلى سقف المطبخ وإلى نفسها ، وقالت جملة طويلة فهمت بوضوح أنها تقسم بالله بأن الأمر سيظل سراً بيننا .

***

ظهور العازبات أمام الرجال في قاعة الطعام ذات الموائد الطويلة وتجوالهن بين أسرة الجرحى كان متعمداً لبيعهن أو منحهن هدايا للمعاقين . وكانوا يُعلِمون كل واحدة يقع الاختيار عليها باسم المالك وموعد الرحيل معه . وفي ليلة كانت عمتي تشكو لي فيها كعادتها من آلام ذراعيها ، بسبب عملها المُضني في غسل تلال من الثياب ونشرها على حبال لا تنتهي بين بنايات السجن ، سمعنا صوت صُراخ مصدره الزنزانة الأخرى ، فركضنا إلى هناك لنجد فتياتٍ يتعاون لإعادة السيطرة على إحداهن وكتم صراخها بوسادة ، بعد أن كسرنّ ذراعها للتو برجل سرير حديدي لكي يعدل في الصباح داعشي مفقوءة إحدى عينيه ومبتورة أصابع قدميه عن أخذها ، مكافأةً لما

أصابه في المعارك . كانت سعادتنا كبيرة عندما تحقق ما أردنه وحافظت الفتاة على شرفها ، وحصلت على إجازة تقضيها مع الأطفال في الزنزانة خلال النهار لحين شفائها ، دون أن تقدم لها أية مساعدة طبية تذكر ، وهو ما شجع أخريات على تكسير أذرعهن أيضاً بالطريقة نفسها ، وبعد ثلاثة أيام كانت بيننا ست فتيات مصابات بكسور وحرائر لكن مؤقتاً .

اعتقدت بأن شيرين ستصالحني وتنهي مقاطعتها لي وصيامها عن الأكل حين أخبرها بما فعلت الفتيات لمنع الاعتداء عليهن ، وستفرح لأن ذلك نتيجة لما كانت تدعو إليه خلال وجودنا في سجننا الأول بالمدرسة . ظلت صامتة ذلك اليوم أيضاً ، ووجهها النحيل المصفر ناحية الجدار المليء بالخطوط القصيرة والكتابات والرسوم المحفورة فيه ، مواصِلةً تجاهل وجودي منذ أن رفضت فكرتها المجنونة تلك .

كان الطبيب قد حررها من الضمادات باستثناء عينها اليمنى ، وأبقى رجلها في الجبس وأبلغ الحراس بمنع إدخال أي شيء إلى زنزانتها يمكن أن تؤذي به نفسها ، وكنت أجلب لها الطعام بأكياس بلاستيكية فلا تمسه وترفض أن أطعمها بنفسي . كما أنها قاومت محاولات الطبيب لإعطائها المغذي عبر ذراعها ، وتطلب الأمر للقيام بذلك مرة واحدة يومياً مساعدةً من عمتي والعجوز كوري لتمسكا بذراعيها وهي مستلقية على الأرض ، بينما وقفت وبيدي الكيس الصغير

أراقب ما يهبط منه إلى جسدها قطرةً فقطرة .

حتى مع ضعف جسدها ونحوله كانت شيرين قوية ولا يمكن فرض شيء عليها ، وهذا ما كان يشعرني بالخوف ؛ لأن عنادها كان دليلاً على أنها ستقاومهم على طريقتها ، مما يعني أن موتها وشيك لا محالة . جلست على الأرض مسندة ظهري إلى الجدار قريباً من رأسها ، ثم سألتها وأنا بالكاد أمنع دموعي :

«أليس قتل النفس حراماً ويحاسب عليه خودي؟» .

انتظرت قليلاً متمسكةً بأمل أن تصل كلماتي إلى مكان ما بداخلها وتحدث فيها تأثيراً ، لكنها بقيت على صمتها تتابع بعينها السليمة المفتوحة على وسعها خطوط الجدار . سألتها مجدداً :

«لماذا لا توكلين أمرك للشيخ ناسر دين ، فقد يأخذ أرواح الدواعش كلهم في ساعة واحدة فنحصل على حريتنا وتعودين إلى أهلك» .

لم أكن مؤمنة تماماً بالذي قُلت ، فخيالي كان عاجزاً عن تصور قوة يمكنها تحقيق تلك المعجزة . كررتُ الكلام مجدداً كأنني أحاول إقناعي معها ، وشيئاً فشيئاً صرت أكلم نفسي مثلما اعتدت فعله أيام عملي في بيع البصل ، لجعل الساعات الطويلة تنقضي ، بل أبعد من ذلك عندما كنت طفلةً يدفعني الخوف للهرب والاختباء خلف برميل المياه في باحة المنزل ، ويلاحقني إلى هناك صوت أمي متوجعة من عصا أبي وقبضاته ، فأعاتب خودي لأنه خلقني فتاةً خلافاً لرغبة أبي مما

تسبب بعذاب دائم لأمي .

طرق أحد الحراس الباب بشيء صلب ، فعلمت بأنني قضيت وقتاً أطول من المسموح به في الزنزانة ، فنهضت وصدري فيه كلام لم أقله . فكرت وأنا أقترب من الباب وبيدي كيس الطعام مليئاً كما أدخلته ، أن بإمكاني القيام بذلك في زيارتي التالية وقد ترد علي . فجأةً سمعت شيرين تقول :

«المرأة المنقبة في المدرسة أخبرتني ذلك اليوم بما حل بأهلي» .

أبقيت وجهي ناحية الباب . خشيت الالتفات فتعود إلى صمتها .

«أعدموا والديّ وأخي الصغير أمام باب المنزل ، وتركوا جثثهم على الرصيف تنهش فيها الكلاب لأيام» .

عم صمت ثقيل بددته طرقة أخرى من الحارس أجفلت منها ، وسقط كيس الطعام من يدي . ارتفع صوت شيرين مع التفاتتي نحوها :

«لم يبق لي احد في هذا العالم ، والحرام هو أن تسمحي للأمير الداعشي بأن يأخذني» .

***

في صباح اليوم التالي لم يفتحوا لنا الباب المؤدي إلى الزنزانتين ، ورفض الحراس الاستجابة لتساؤلاتنا الملحة عن السبب . ظننا أن لأصوات التفجيرات التي هزت المكان في

الليلة الفائتة علاقة بأمر احتجازنا ، وأنهم سيطلقوننا في أي لحظة . في حين اعتبرت عمتي ما يحدث استجابة لدعاء تضرعت به إلى طاووس ملك أن يريحها من عصر الملابس ومساحيق الغسيل التي قشطت جلد يديها .

عند انتصاف النهار دخل علينا أبو عائشة العفري ومعه ثلاثة أشخاص كنا نراهم للمرة الأولى . أمر الحراس بحشرنا في زنزانة واحدة ، وإبقاء الفتيات مكسورات الأذرع في الزنزانة الأخرى ، على أن يرتدين ثياباً بُرتقالية اللون جلبت خصيصاً لهن . وقال بأن المحكمة الشرعية أصدرت قراراً بقتل الفتيات اللواتي كُسرت أذرعهنك لأنهن أصبحن معاقات من الناحية الفعلية ، ولن تستفيد الدولة الإسلامية منهن كخادمات ، ولن تتمكن من بيعهن أيضاً ؛ لأن لا أحد يشتري نصف سبية . توقف عن الكلام مانحاً لصدمة الخبر فرصة الوصول إلينا جميعاً ، وأن تفرغ اللواتي فهمن الكلام جيداً من ترجمته للأخريات ، وفي تلك الأثناء كان عدد من الأطفال قد اقتربوا منه وتطلعوا إليه بفضول . أكمل كلامه مشيراً إلى لحيته بكف مبتورة الإبهام :

«كتبت لأمير المؤمنين الخليفة أبو بكر البغدادي وأترقبُ رداً من حضرته لتنفيذ الحكم على الكافرات المعاقات هنا في هذه الزنزانة» .

وضرب الأرض بحذائه الضخم فأحدث صوتاً أفزعنا جميعا ،

وجعل الأطفال يتسابقون للاختباء خلفنا وهم يصرخون .

رجع أبو عائشة عصر ذلك اليوم ومعه الأشخاص ذاتهم ، إضافة إلى رجل يرتدي عمامة بيضاء كبيرة وعلى أنفه شامة ظننتها في البداية ذبابة جاثمة ، قال بأنه يحمل إلينا بشرى سارة من أمير المؤمنين بالعفو عن المحكومات بالقتل ، مقابل تركهن ونحن معهن ديننا ونصبح مُسلمات . «ولكن يجب أن تعرفن أمراً مهماً»

قال الرجل قبل أن يسير أمامنا جيئةً وذهاباً :

«أنتن أسيراتُ حربٍ جيء بكن إلى بلاد الإسلام ، ويحق لمن سيملك إحداكن الاستمتاع بها كما يستمتع المرء بزوجته ، ويحق له بيعكن أو إهداءكن إلى آخرين» .

انتظرت أن يتدخل خودي في تلك الساعة . تنقلت ببصري بين سقف الزنزانة العالي وعمامة الرجل ، وقلت في نفسي إنه الوقت المناسب لكي يُرسل شيخ عبروس فيحرق بصواعقه المكان بمن فيه ، لكنه مثل كل مرة احتجته فيها لم يفعل .

«متى يغضب خودي؟» تساءلت ووجه نوري الأعور مثقوب الجبين يتراءى في ذهني ، وجراح شيرين النازفة وصور اللواتي سُحلن من المدرسة إلى مصائرهن المجهولة . ما فائدة غضبه في وقت آخر غير الذي يُسلب فيه إيمان عباده منهم وشرفهم وحياتهم .

صفق أبو عائشة بقوة منبها إلى أن بشرى الخليفة لم تنتهه بينما كانت العمامة ما زالت تتحرك أمامنا ، إلى أن توقف الرجل عند قضبان الزنزانة الأخرى وهدد من هناك بأن التي ترفض عرض الخليفة سيكون مصيرها القتل ، وستتكفل دولة الخلافة بتربية الأطفال لأنهم أبناؤها . وبعد ساعة كانت بنادق الحراس موجهة نحونا ، بينما نحن واقفات نقلد حركته رافعاتٍ سبابتنا اليمنى ونردد خلفه مجبراتٍ بأصوات جرحها الخوف كأننا نلوك قطع زجاج :

«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» .

بقينا ساعاتٍ نعاني من اضطرابات كفرنا ، ونحاول مستنجداتٍ بطاووس ملك وشيخ آدي والصالحين منع نزول عذاب خودي للانتقام منا ويغفر لنا لأننا أجبِرنا على الكفر . وقبل شروق شمس ذلك الصباح الكئيب تولت العجوز كُوري توجيهنا ، فغسلنا وجوهنا وأيدينا وغطينا رؤوسنا ووقفنا متجاورات ، وجُهونا صوب النوافذ المستطيلة القريبة من السقف ، وأيدينا اليمنى على اليسرى ومع أولى خيوط الضوء المتسللة رددنا سوية بصوت واحد ما قالته العجوز :

«آمين آمين تبارك الدين الله أحسن الخالقين ، بهمة شمس الدين فخر الدين ناصر الدين ، سجادين ، بابادين الشيخ شمس قوة الدين ، السلطان شيخ آدي متوج من الأول إلى الآخر حقاً ، الحمد لله يا رب العالمين ، أعطي الخير واقلب

عنا الشر ، نطلب الرحمة من رحمة وعطف الشيخ آدي ورضا الملك شيخ سن وكرم الشيخ شمس . سبحانك أيها الخالق أشرق النورَ من النور وحضر الملاك أمامه من البيت إلى البيت . الشيخ شمس صاحب الرحمة لا يفارق الشيخ شمس خيالنا» .

***

استغلت شيرين حبسهم لنا في ذلك اليوم ، وشاغلت الطبيب بعد إكماله حقن ذراعها بالمحلول المغذي ووجهت إليه بإلحاح أسئلة عن وضعها الصحي ، موحية بآمال زائفة وتشبُّث تمثيلي بالحياة ، فانطلى ذلك على الطبيب ونسي أخذ حقنة كان قد هيأها للزرق في حال رفضت المغذي ، فخطفتها من طبق معدني صغير فيه أداوت طبية كان الطبيب يحضره معه باستمرار ، وأخفتها تحتها لتخوض بها معركة خلاصها بمفردها دون تدخل من أحد .

كان باب زنزانتها مفتوحاً عندما وصلت ورجلاي بالكاد تحملانني . أسندت ظهري إلى جدار الممر في الخارج ، لم أشأ النظر إلى الداخل خشية أن يكون ما قالته الحاجة رقية صحيحاً وأواجه الألم ذاته الذي اعتصر قلبي يوم عثرت على أمي وهي جامدة بلا حراك بين التنور وطشت العجين في باحة منزلنا .

بقيت في مكاني منتظرةً سماع صراخها ، بكائها ،

خشخشة جبيرة رجلها وهي تحركها على الأرض . أن يأتي صوت أحدهم قائلاً بأن هذه الفتاة العنيدة بألف روح ولا يمكن أن تموت . لكنه الموت يحركه خودي كما يشاء ، ويذيقني وجع رؤية حدوثه في الأشخاص الذين أحببتهم ، كأنه يريد إثبات قوته لي وقدرته مقابل ضعفي وعجزي .

كانت مطروحة على ظهرها وسط الزنزانة ، ورأسُها مائلٌ يساراً ناحية الباب ، كأنها انتظرت قدومي لكي تنقل لي بشرى انتصارها على الداعشي أمير الصحراء ، وعلى زنزانتها وخذلاني لها . شعرت بحرقة في صدري وأنا أقترب من جثتها وأشاهد ذراعها اليسرى مليئة بثقوب صغيرة كأنها آثار لسعات عقارب أو لدغات أفاع متوجة بدماء متيبسة . أردت أن أجثو إلى جوارها وأبكي ، مانحةً إياها العزاء الذي تستحق ، غير أني لمحت على وجهها ما يشبه الابتسامة أكدتها غمازة خدها الأيمن ، فتذكرت ما قالته لي في إحدى المرات أننا الأيزيدية لا يشكل الموت نهايةً بالنسبة الينا وإنما هو محطة ننتقل بها إلى حياة أخرى جديدة بالكامل .

-١٣-

انتظر أبو رواحة وهو يشع تحت أضواء قاعة مسرح ابن الأثير حتى فرغ الولاة والأمراء والقضاة من إلقاء نظرة سريعة على مطويات مصورة وزعت إليهم عن غنائم دولة الخلافة الأثرية ، ثم أشار إلى الستارة بحركة متفق عليها ، فانزاحت عن شاشة عملاقة أظهرت صورة قديمة لجامع النبي يونس قبل تفجيره . قال متحدثاً عبر مايكروفون لاسلكي مربوط إلى قميصه : «بنى المرتدون ضريحاً بداخله وغطوه بالحرير الأخضر ، ثم وضعوا عليه عمامة وطوقوه بالقضبان والزخارف ، وقالوا هذا قبر النبي يونس فأصبح مزاراً يطوف حوله المشركون» .

قهقه الحاضرون ورد عليهم بضحكة مُجامِلة وواصل :

«على تل التوبة كما يسمونه ، وقبل بناء الجامع بقرون عديدة ، كان هنالك قصرٌ للملك المشرك أسرحدون ، وبعد أن أزال الله ملكه وملك ابنه آشور بانيبال وأبنائه من بعده ، جاء حكم الساسانيين الفرس المجوس ، فبنوا معبد النار فوق أنقاض القصر وعبدوا فيه إلههم أهورمزدا» .

تعمد أبو رواحة قراءة الاسم بطريقة ساخرة فضجت القاعة بالضحك .

«وفور دخول النصرانية إلى نينوى في القرن الثاني لتقويمهم الذي يطلقون عليه الميلادي ، شيدوا ديراً على معبد النار أصبح فيما بعد مسكناً للصليبي البطريرك الأرثدوكسي الملقب بالأعرج ، وتقول كتبهم إنه دفن على التل بداخل الدير» .

اختنق من الضحك وهو يقول :

«قد يكون هذا الصليبي النجس في الضريح الذي زاره المشركون والمرتدون الأغبياء طوال عقود ، وأغدقوا عليه بالأموال وانتظروا وساطة منه لتجاب دعواتهم .» .

استعاد صوت أبو رواحة الجدية شارحاً كيف عثر عمال في زمن حكم البعث ، أثناء أعمال توسيع الجامع ، على نفق أدى إلى قصر الملك أسرحدون المدفون تحت التراب بجوار الجامع ، ولما علم رئيس العراق آنذاك صدام حسين بذلك أمر بردم النفق بالكونكريت .

تفاعل أبو رواحة مع أجواء المسرح ، فسار مقترباً من الصورة التي تغيرت إلى أخرى بالزاوية نفسها لكن بأنقاضٍ محل الجامع وقال بحدة مصطنعة :

«لهذا فجرنا الجامع» .

صاح أحدهم :

«تكبير»

فرد الجميع بصوت واحد :

«الله أكبر» .

أدار ظهره للصورة وقال رافعاً وجهه إلى فوق فلم يلتقط المايكروفون صوته :

«وهذا ما منّ الله به علينا من غنائم وجدناها في قصر الكافر أسرحدون» .

حين رجع إلى وضعيته السابقة كانت مكبرات الصوت قد أطلقت نشيد صليل الصوارم(*) بدون إيقاع ، فتمايل الحاضرون في مقاعدهم وهم يرددون كلماته متحمسين ، بينما الشاشة تعرض صوراً لأسود ذهبية وتيجان مرصعة بأحجار كريمة وقطع فخارية ومعدنية وتماثيل حجرية وبرونزية متعددة الأحجام والأشكال ، بشرية وحيوانية .

استقرت الشاشة على صورة لعلم دولة الخلافة حين قرأ أبو رواحة في ورقة تعليمات بيت مال المسلمين لإدارة غنائم الآثار :

«تحفظ غنائم الآثار من متحف الموصل أو المستظهرة من قصور الوثنيين ، وكذلك المخطوطات من مكتبات المرتدين ، ولا يتم التصرف بها إلا بعد تنفيذ إرادة أمير المؤمنين سيدنا أبو بكر البغدادي بتدمير معالم الشرك وعبادة الأصنام ، في النمرود والحضر والمتحف ، وتصويرها لكي يعتبر الناس في الأرجاء .

(*) صليل الصوارم : نشيد خاص بتنظيم الدولة الاسلامية راج كثيراً في مناطق سيطرة التنظيم بعد حزيران ٢٠١٤ .

ذلك سيلفت أنظار الكفار في كل العالم إلى الآثار ، وستحشر منظمات دولية كاليونسكو أنفها في الموضوع ، مما سيؤدي إن شاء الله تعالى إلى رفع قيمة غنائمنا ، وبيعها سيأتي بمردود مالي وفير لبيت المال» .

طوى أبو رواحة الورقة وقال كأنه يضيف فقرة جديدة إلى التعليمات :

«نشر فديوهات تدمير مواقع الآثار سيمنع ملاحقة الحكومات لما سنبيعه لأنها في حُكم المُدمرة أي غير موجودة» .

صرخ أحدهم :

«دولة الإسلام باقية» .

رد الآخرون كأنهم في حصة مدرسية :

«باقية وتتمدد» .

سار مفتي دولة الخلافة أبو سفيان السلمي بخطوات متثاقلة ، مقترباً من أبي رواحة الذي دعاه إلى المسرح ، من أجل وضع حد شرعي أمام همس الشكوك بشأن الأموال المستحصلة من بيع الأصنام الشركية ، وإنفاق عوائدها على الرعية فقال ببرود متحدثاً بلكنة بدوية :

«الضرورات تبيح المحظورات ، هذه هي فتوانا» .

صمت لدقيقة حرك خلالها رأسه بالاتجاهين كمن يراجع معلومات من ذاكرته وتابع بالبرود ذاتها :

«الأمر الذي يجب فعله قبل الوقوع في الضرورة هو التثبت

من وقوع الاضطرار ، وذلك بتعذُّر البدائل المباحة وتعين ارتكاب المحظور الشرعي . وما يجب فعله أثناء الضرورة فهو الاقتصار منها على القدر الذي يرفع الضرر دون زيادة ولا اعتداء . ويجب بعدها السعي الدؤوب الجاد لإزالة هذه الضرورة وبذل الجهد في سبيل رفعه وعدم الركون إلى الترخص والاستسلام له والطمأنينة إليه . والله الموفق ، والحمد لله رب العالمين» .

علا نشيد صليل الصوارم مجدداً ، ووقف الحاضرون يتعانقون مستبشرين بالفتوى وعيونهم مليئة بدموع النصر .

-١٤-

أرجع مراد بفرح غامر سجلات أشهر آب وأيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني إلى مكانها داخل صندوق سنة ٢٠١٤ الخشبي ، دون أن يعثر على إشارة إلى اسم فيروز أو وجه تقارب بينها وبين ثماني سبايا أفردت لهن صفحات في سجل أيلول مع صورهن . كان الحاج بومة يتابع باهتمام من مقعده الجلدي مقوس المسندين السعادة التي طرأت فجأة على مراد ، وتحركه الاحتفالي في المساحة الضيقة المتبقية من غرفة سجلاته التي يسميها المقبرة . كان مناسباً تماماً لسد الثغرة التي أحدثتها شيخوخته ، فلم يكن مربوطاً بحبل مسؤولية عائلة تشده إليها ، ولا يبدو من الذين يفكرون بنفخ جيوبهم بالأموال . طموحه في الحياة مجرد متابعتها لا غير . في وقت وجد مراد فيه دليلاً لا يقبل الشك على أن العناية الإلهية تخبئ له هديةً في مكان ما ، خلف أحد أبواب الدولة الإسلامية التي عثر على مفتاحها أخيراً وكان عليه استثماره إلى أقصى حد ممكن . لذلك قابل عرض العمل الذي قدم إليه كمساعد لصاحب سجل الموتى ، بموافقة مباشرة دون تفكير ، واستلم سجل تشرين الثاني الذي بقي منه يومان وعينه على الباب لبدء جولة التوثيق الأولى .

لم يستغرق التدريب وقتاً طويلاً ، إذ استقبلت حواس مراد الفتية مهام عمله المحدود بتفهم سريع ؛ إذ كان عليه ، كما فعل مع فريق الخبراء ، تدوين ما تسلمه من معلومات وإرفاقها بالمستمسكات والصور في حال توافرها . مائتا صفحة في السجل الواحد الذي يحمل اسم الشهر والسنة ، تخصص كل صفحة منها لمتوف واحد فقط بخانات رئيسية ، يدون فيها رقم التسلسل والاسم الكامل والجنس والعمر وتاريخ الوفاة ومحل الدفن ، مع مساحة تحتل نحو ثلث الصفحة تقريباً لكتابة تفاصيل تقرير صاحب سجلات الموتى عن الكشف الذي أجراه على الجثة ، معروفة كانت هويتها أم مجهولة ويكتب هامشاً لا يخرج عن إطار التأكيد ، في حال كانت المعلومات مرسلة إليه ، وتذيل الصفحة عادةً بتوقيعه الذي يشبه رسم قطار ينفث الدخان .

هتف مراد ليؤكد جدارته بالعمل :

«كنت أوثق بيانات يومية مشابهة تقريباً للهلاكات في قطعان الدجاج التي أربيها» .

انطفأت ابتسامته عندما اصطدمت عيناه بوجه لم تمر به الابتسامة يوماً فقال مستدركاً :

«الفارق أنني كنت أشرحها بنفسي لأتأكد من سبب نفوقها ، كما أنني كنت المعني الوحيد بخسارتها» .

***

تجمع العشرات من الشبان والأطفال في ساحة باب الطوب وسط مدينة الموصل ، غير مبالين بهطول الأمطار ، منتظرين بفضول تنفيذ حكم الإعدام الذي دعت إليه مركبات ديوان الحسبة بمكبرات الصوت منذ الصباح الباكر . دخل في تلك الأثناء الحاج بومة إلى مقهى قريب أرائكه الخشبية متقابلة ، تبعه مراد حاملاً السجل بعناية موظف في ساعة عمله الأولى .

مد إليه ظرف رسائل صغير مكتوب على أحد جانبيه بخط اليد وبحروف كبيرة حمراء «حكم الله في الجاسوس» . فض مراد الظرف وسط رقابة من عامل المقهى وزبونين بدا على وجهيهما القلق ، أخرج ورقة الحكم المطوية وشرع بالقراءة :

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ .

سعل أحد الزبونين ، فيما رفع عامل المقهى غطاء إبريق معدني ضخم فتصاعد منه البخار وعلا إلى السقف .

«ثبت لدى المحكمة الإسلامية في ولاية نينوى أن المدعو (جودت فائق)جاسوس يعمل لصالح قوى الكفر من المرتدين وأعوانهم الصليبين ، وينقل إليها أخباراً ومعلومات عن الدولة الإسلامية عبر الانترنيت ، لذا حكمت عليه المحكمة الإسلامية بالقتل ضربةً بالسيف جزاءً على أفعاله ، وليكون

عبرة لغيره ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

تعثر عامل المقهى وهو في طريقه إليهما وبيده صينية الشاي ، وخرج الزبونان يسرعان . قال الحاج بومة الذي كان ينصت واضعاً رجلاً على الأخرى :

«المحكوم بالإعدام حيٌ حتى ينفذ فيه الحكم وتثبت الوفاة ؛ لذا فإننا لا ندون الأحكام حتى نتأكد من إزهاق الروح» .

بلع مراد ريقه عندما علت فجأة أصوات الهتافات في الخارج ، فأشار الحاج بومة إلى السجل وهو يهم بالوقوف :

«سأعاين الحالة وأعود إليك» .

***

كان عليهما في ذلك اليوم ، وضمن جولات البحث والتقصي اليومية ، زيارة الطب العدلي في مستشفى المدينة القديم ، وهناك علما بوجود عشرين جثة جديدة لمقاتلين من جيش العسرة(*) ، أوربيين وعرباً ، غير أن الإدارة منعت إعطاءهما معلومات إضافية بسبب أوامر من ديوان الجند ، واكتفت بمنحهما أسماء مدنيين توفوا خلال الساعات الأربع

(*) جيش العسرة : واحد من تشكيلات جيش الدولة الاسلامية في العراق والشام . يشبه قوات طوارئ ومعظم عناصره من الأجانب .

والعشرين الفائتة . قال الحاج بومة وهما في طريق الخروج :

«يحاولون باستمرار التقليل من حجم خسائرهم البشرية ، والبيانات الشهرية التي أحصل عليها من ديوان الإعلام المركزي غير صحيحة ، لذا أحاول الوصول إلى حالات الوفيات بنفسي» .

سأله مراد :

«لماذا يفعلون ذلك» .

فأجاب بثقة :

«لأنهم يخشون الموت» .

طرق الحاج بومة زجاج النافذة الأمامي للسيارة فرفع السائق رأسه من على المقود وأخذ يدعك عينيه .

التفت إلى مراد الذي كان يقف حائراً : «معظم الذين جاؤوا من قارات العالم المختلفة هدفهم الأول والأخير الدخول في مغامرة يحدثون بها تغييراً في حياتهم الرتيبة» .

تابع بعد أن استقرا في الحوض الخلفي للسيارة :

«وهنالك هاربون من أحكام جنائية لجرائم اقترفوها ، ومطرودون لمخالفة شروط الإقامة ، وباحثون عن الثروات والنساء» .

نظر إلى مراد المصغي باهتمام :

«لا أحد هنا في الموصل من أجل الله ، حتى الانتحاريون الذين يفجرون أنفسهم بأحزمة ناسفة أو مركبات مفخخة أو

الذين يخوضون المعارك في الجبهات ، هدفهم الحصول في السماء على ما أتى الباقون من أجله إلى هنا على هذه الأرض» .

ضحك السائق مقهقها فقال له الحاج بومة :

«وأنت يا أبا عجلة ألم يُغروك بالغنائم والحور العين قبل أن يلقوك في السجن لعدم تنفيذ أوامر بسيطة» .

التفت السائق إلى مراد وقال كمن يدلي بشهادة في قضية منظورة :

«أقسم واضعاً يدي على المصحف ، أنني كنت سأتعفن في السجن وربما كانوا سيقتلونني لولا تدخل الحاج . . . .»

تلعثم السائق وأراد أن يجد الاسم المناسب ، فانتبه الحاج بومة إلى أن السيارة مازالت واقفة في محلها ، فدفعه من كتفه وأمره بالتحرك نحو مقر ديوان الصحة وواصل حديثه :

«ترسم لهم الدولة الإسلامية في العراق والشام عوالم متخيلة عندما تجندهم بواسطة الانترنيت ، وتغريهم بمقاطع فيديو متقنة الإخراج ، وحين يفِدون تحاول قدر الإمكان أن تُظهِر لهم الجوانب المشرقة لكي تبعد عنهم الخوف . لكنهم يكتشفون الحقيقة لاحقاً ، فتنطفئ حماستهم وتظل عيونهم معلقة بالسماء ، ليس تضرعاً لله وإنما خوفاً من الصواريخ والقنابل» .

ضحك السائق مجدداً بينما كان مراد مستغرقاً في التفكير بما سمعه ، فوجد أنه صحيح تماماً بالنسبة إليه في الأقل فهو

يخشى الموت بالفعل ولم يكن ليطلق لحيته ويرتدي تلك الثياب الأفغانية المضحكة لولا هدف الوصول إلى فيروز .

قال الحاج بومة :

«هؤلاء ينتقلون لاحقا إلى مرحلة الخوف من الدولة الإسلامية ذاتها التي أتوا من أجلها ، لأن أبسط تمرد يظهرونه تكون عقوبته القتل بتهمة الردة . يمكنني رؤية هذا الخوف في عيونهم . إنهم عالقون ولا يريدون الموت» .

***

سرعان ما اكتشف مراد أن شخصاً هازئاً بالحياة مختبئٌ خلف صورة الرجل القاسي التي حرص الحاج بومة على إظهار نفسه بها أمام الناس ، وبوسعه أن يحول مثل ساحر متمرس كآبة الموت ووحشته إلى مجرد نكتة . واكتشف أيضاً مقدرته الخارقة في فهم الآخرين وقراءة أفكارهم ، لذلك كانوا يتجنبون النظر في عينيه مباشرة ، ويتذرعون بأي شيء للفرار من أمامه . أعجب بأفكاره المعارضة لنظام حكم الدولة الإسلامية القائم على تكفير المخالف ، فقد كان مثله يعي جيداً أنها لا ترفع من التحضر شبر بناء ، وأن طريقها يؤدي في اتجاه واحد لا غير هو الوراء . قال له الحاج بومة وهما يُجريان جولة التفقد الروتينية في مقبرة وادي عقاب ، مشياً على الأقدام بحثاً عن جنائز أفلت أصحابها من رصدهما :

«معظم ما يفعلونه مبنيٌ على اجتهادات فقهاء بعينهم دون آلاف سواهم عاشوا قبل مئات السنين ، وقضوا حياتهم اللعينة من أجل إرضاء السلاطين» .

وقفا أمام قبر رجل حُفِر على شاهده المرمري سنة الوفاة ١٩٤٨ فقال الحاج بومة مشيراً إلى الأرض :

«تخيل لو أن هذا الشخص عاد إلى الحياة الآن . أما كان سيُذهل من التطور الذي توصلت إليه البشرية خلال فترة رقوده» .

هز مراد رأسه مؤيداً وسمعه يتابع :

«فماذا لو ، على سبيل المثال أن الشيخ أو الفقيه الذي به يقتدون يفتح عينيه في عصرنا ، هل كان سيظل متمسكاً بشيء من آراءئ واجتهاداته في حياته ، والتي أنتهت بسببها حيوات الآلاف في عصرنا . كيف لي إذنْ أن أسمح لشخص مثله بتنيظم حياتي ووجهتي فيها وحتى إنهائها وهو لم يزرق بإبرة ، لم يتصل به أحد على هاتف ، لم يتطلع إلى ملكوت الله عبر نافذة طائرة ، لم تلتقط له صورة ، لم يستمع إلى راديو أو يشاهد نشرة أخبار» .

صعدا على ربوة صغيرة تطل على الجزء الجنوبي من المقبرة المفروشة على مد البصر ، كان مراد ممسكاً بيده ويعينه على الصعود بحذر عندما قال :

«ليس صحيحاً أن داعش مخلوق هجين بثت المختبرات

الأمريكية الروح فيه كما يزعم السذج . فداعش ولد قبل ١٢٠٠ سنة ، وترعرع في عقول كثير من علماء المسلمين ونما في كتبهم وتضخم في زمننا هذا حتى أصبح مسخاً» .

سأل مراد وهو يترك يده :

«هل تعرف كيف ولد داعش؟» .

لم ينتظر إجابة ، رفع ذراعيه إلى الجانبين قليلاً وصاح بصوت عال مخاطباً الموتى في القبور المتناثرة أمامهما :

«هل تعرفون أنتم ؟» .

سكت لحظات ثم قال بحرقة :

«ولد داعش يوم ألغى فقهاء السلطة مجلس الشورى وعدوه غير ملزم . يوم ألغوا إرادة الأمة الإسلامية في اختيار حاكمها . يوم أخذوا البيعة بالسيف وذل الرقاب ، وقالوا بجواز ولاية الفاسق والجاهل وجواز التوريث للحكم ، وجعلوا من ينال السلطة بالقوة خليفةً شرعياً ، وإذا جاء واحد آخر أقوى منه وأزاحه يصبح الشرعي باطلاً والجديد شرعيا وخليفة ، حتى وإن لم تبدر من السابق أية مخالفة . ولد داعش يوم أجازوا تولي الحكم ولو بمبايعة رجلٍ واحد ، ضاربين عرض الحائط إرادة جمهور الأمة . ولد يوم أصبح أهل الحل والعقد يعينهم الحاكم على مزاجه ويغيرهم متى أراد ، وشرعوا له فعل ما شاء ولا يحق لأحد سؤاله ومحاسبته بذريعة أنه يحكم بأمر الله ، وأشاعوا ثقافة العقيدة الجبرية الاستسلامية التي تخدم وتمهد

للطغاة ، وأشاعـوا فكرة أن الإيمان في القلب وإقرار باللسان دون العمـــل» .

«إنه تناقض رهيب يا مـراد» . قـال مـاداً يده ليـهـبطا إلى الطريق غير المعبد ، حيث كانت تنتظرهما السيارة :

«يحق في الإسلام للمرأة أن تختار زوجها ولا تجبر عليه . يسألها القاضي إن كانت تقبل به ، فإن رفضت لا يعقد القران . بينما الأمة لا يؤخذ رأيها في من يحكمها ، لا يحق لها أن تختار حاكمها» .

***

استثمر مراد صداقته المتنامية مع مديره وحصل منه على إذن خطي باستـلام بيـانات الوفيـات الشـهرية من الدواوين مباشرةً ، بدلاً من مراجعة ديوان الإعلام المركزي ، كما جرى روتين العـمل قـبل توظيـفـه . وأُفـرغ السـائق مع سـيـارة الدفع الرباعي كل يوم سبت لتسهيل أداء مهامه . أتاحت له هذه الحجة فرصة حلمية لفتح الأبواب الموصدة ، مستغلاً الرهبة التي يتركها عنوانه الوظيفي كمساعد لصاحب سجل الوفيات في نفوس الموظفين أينما دخل . ففُتحت دونه سجلات عصية ، ومُنح معلومات سرية غير متاحة للعامة ، وعلى رأسها المتعلقة ببيوعات السبايا .

تخلص أخيراً من عـادة تحنطه أمام لوحة الإعـلانات في

المحكمة الشرعية وتملق موظفي الاستعلامات للقبض على أي معلومة جديدة ، وأصبح بإمكانه الإطلاع مباشرة على سجلات ملكية السبايا في ولاية نينوى ، بما فيها من أسماء وعناوين وحركات بيع وشراء وهبة ، ونبش سجلات عقود النكاح وتحرير الرقاب ، ودقق في سجلات الأحكام القضائية الجنائية منها والمدنية .

تذرع عامل غرفة الأرشيف بواجبات وظيفية في أقسام أخرى وساعد فراره من المكان ، على تأني مراد في البحث وتوسيعه ليشمل ملفات الشكاوى والخصومات ومسودات الأحكام وحتى الطلبات والأوامر الإدارية . لكنه ومع انتصاف نهار ذلك اليوم عاد ليشعر بتأنيب ضمير ما بعد جولات البحث الخائبة ، لأنه أهدر الكثير من الوقت في الموصل وفوت على نفسه الاهتداء إلى مكان فيروز بتصديقه روايات سمعها من الناس ، وأجمعت على أن السبايا لابد وأن يمروا بعاصمة دولة الخلافة في حين أنها ربما لم تكن قد غادرت تلعفر قط :

«ماذا لو أنكِ لم تذهبي أصلا إلى هناك؟» ، سأل بهلع صورة فيروز المستقرة في راحة يده ، ثم داهمه افتراض أن تكون قد نجحت بالوصول إلى جبل سنجار وأصبحت بأمان . خفف هذا عنه قليلاً وقال متمعناً في وجهها ومستسلماً لنوبة عشق :

«لاشيء في هذا العالم يعادل لحظة من لحظات تأملي فيكِ وأنت متربعة على عرش ذلك الطريق . أعينيني في العثور

عليك ، افعلي أي شيء مستحيل يدلني عليك . أفتقدك في كل حين وأيامي تمر بغيابك مملة كئيبة ولا أعرف إن كُنت ستشرقين مجدداً في حياتي أم . . . .» .

دخل عامل الأرشيف مسرعاً ووضع ملفاً سميناً بالأوراق فوق منضدة وسط الغرفة ، ثم انصرف دون أن ينبس بكلمة . ابتسم مراد عندما لمح ورقةً ملصقة على وجه الملف مكتوب عليها بخط عريض أسود (ولاية الجزيرة بلدات تلعفر ، بعاج ، سنجار) .

-١٥-

دخولنا في الإسلام أنقذنا من الموت من جهة ، وفتح علينا عيون الذكور المتواجدين في سجن بادوش من جهة أخرى . وبدلاً من مكافأتنا بشيء من الحرية لأننا أصبحنا مسلمات مثلما أرادوا ، شددوا الرقابة على تحركاتنا ، وفرضوا علينا وعلى الأطفال تعلم الصلاة وقراءة القرآن ، وكلفوا امرأة سورية تدعى حُذام ، تجيد العربية والكردية ، بواجبات تدرسينا والصلاة بنا جماعة خمس مرات في اليوم ، وتوجيه النصائح والعظات الدينية إلينا بعد كل صلاة عصر . علمنا بعد ذلك أنها كانت تتقاضى أموالا من الحراس والجنود خارج الزنزانات ، لتدلهم على الأصلح منا للشراء ، وصار عددنا منذ ظهورها ينقص يوماً بعد يوم . بدؤوا بالفتيات أولا .

لم يسمحوا لنا بإعلان الحزن على شيرين ، وقالوا بأنها عاشت كافرة وماتت كافرة منتحرة ولا حداد على الكفار . بالنسبة لي هي عاشت مؤمنة تقية وماتت شجاعة وشهيدة . لكن بكائي اقتصر على يوم وفاتها الأول فقط ؛ إذ شعرت في اليوم التالي وحتى بعدها بأشهر طويلة أنها تراقبني من مكان قريب جدا ، ويكلمني صوت يشبه صوتها ، وفي المرات القليلة

التي تصرفت بها بجرأة كبيرة على غير عادتي كنت أعزو ذلك إلى أن روحها ربما حلت في جسدي .

لا أعرف متى توقفت نعام عن الكلام نهائياً . منذ أن وجهوا إلينا فوهات البنادق ليجعلونا مسلمات ، أم يوم عدت من زنزانة شيرين ولطمت على وجهي ، وفعلت مثلي عمتي والأخريات ، أم يوم وزعوا مكبرات الصوت بالقرب من الزنزانتين والممرات ، وصار صوت الأذان في خمسة أوقات متفرقة يفزعنا ويصيبنا بالصمم ، وصوت القرآن يطاردنا طوال ساعات النهار أينما ذهبنا . كانت تنظر إلى فمي حين أكلمها وتكتفي بهز رأسها إلى الأعلى والأسفل موافقة ، وإلى الجانبين إذا رفضت . تماماً كما حدث لها بعد وفاة أمي .

كَلي وجدت في صمت شقيقتنا فرصةً للاقتراب مني مجدداً ، وطرح أسئلتها التي لا تنتهي عن كل شيء تقريباً ، وكانت عمتي تتدخل في الأوقات المناسبة وتنقذني بتكفلها الإجابة عن المحرجة منها .

سألتني ذات ليلة :

«لماذا يكرهنا المسلمون؟» .

فقلت لها مقتبسة من حوارات زميلاتي في شاحنة البصل :

«لأننا بسطاء وديننا يختلف عن دينهم» .

سألتني مجدداً :

«هل قتلوا شيرين مثلما قتلوا دميتي ونوري الأعور؟» .

«كلا لقد انتحرت» .

«ماذا يعني انتحرت» .

«يعني أنها قتلت نفسها» .

«كيف؟» .

«يقول الطبيب بأنها حقنت ذراعها بالهواء مرات عديدة فتوقف قلبها» .

لا شك أن كَلي حاولت تصور الأمر . أعرفها حين تسرح بخيالها ، فهي تنظر إلى لا شيء وتلف بإصبعها خصلات من شعرها وأحيانا تكلم نفسها . بدلا منها قالت عمتي وهي تزيح عن بطنها رجل نعام الغارقة في النوم :

«الانتحار حرام . إنه قتلٌ للنفس ، أدركنا ياطاووس ملك» .

***

كان عددنا الكلي ستا وخمسين . تسع عجائز واثنتي عشر فتاةً . لم أحسب بينهن طبعاً بل مع الخمس عشرة الأخريات ، الأمهات . ومعنا عشرون طفلاً وصِبية بقوا معظم الأحيان ضمن حدود الزنزانتين . أخبرنا أبو عائشة أنهم بدؤوا بنقل السجناء من الزنزانات في الأبنية الأخرى الممنوعة علينا إلى سجون أخرى ، بسبب قصف طائرات المرتدين والكفار الصليبيين . ولن يصل المزيد من الجرحى ، والموجودون منهم سينقلون إلى مستشفيات الموصل لذا فإن عليهم التصرف بنا .

وعندما سألنا حُذام بعد صلاة العصر ماذا يعني أنهم سيتصرفون بنا ، قالت ببساطة وكأنها تتحدث عن أكياس من البصل وليس البشر :

«سيبيعونكُم أو يُهدونكُم إلى الإخوة رجال الدولة الإسلامية» .

كان من الواضح أن تكسير الأذرع لن يجدي نفعاً هذه المرة ، والقيام بما فعلته شيرين تطلب شجاعةً لم يكن أي منا يمتلكها ، وهكذا لم يبق أمامنا سوى الاستسلام وانتظار ما كتبه خودي على جِباهنا .

في اليوم التالي جاءت حُذام وبيدها ورقة صغيرة فيها اسم واحدة من الفتيات مكسورات الأذرع تُدعى خاني ، وكذلك اسم الرجل الذي اشتراها وكان في الخمسين من عمره ، انتظر في ساحة السجن الخارجية ريثما يتم تهيئتها ليأخذها معه . جلبت معها ثياباً جديدة لم أصدق أبداً أنها مصادفةٌ أن تكون على مقاس خاني تماماً . منحوها وقتاً للبكاء ولتوديعنا ثم جاء الحراس وجروها معهم وقلوبنا منفطرة لصراخها .

تصنعت حُذام الحزن والأسف ، ثم وزعت علينا ورقة بلونين زهري وبني مطوية عدة مرات ، وطلبت منا الجلوس في صفوف على الأرض كما نفعل في الدروس ؛ لتقرأ علينا بالعربية ثم بالكردية ما صدر عن دولة الخلافة من تعليمات بخصوصنا نحن السبايا . وفي تلك الأثناء وصل أبو عائشة

العفري وجلس خلفنا بحيث لم نعد نراه . قرأت حُذام من تلك الورقة ما حفظته لاحقاً عن ظهر غيب :

«الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد ، فهذه لمحة من علم شبه مغيب في أبواب الفقه المعاصر استدعت الحاجة إليه بعد أن وجد له تطبيقاً علميا في دار الخلافة الإسلامية أدام الله ظلها» .

سمعنا صوت أبو عائشة الغليظ يقول :

«أدام الله ظلها وأعز خليفتها»

فردت عليه حُذام بصوتها الرفيع :

«آمين»

ثم عادت للقراءة :

«السبي هو ما أخذه المسلمون من نساء أهل الحرب ، فتباح لهم الكافرات بعد وضع اليد عليهن وإحضارهن إلى دار الإسلام . فإذا كانت بكراً فله أن يعاشرها مباشرة بعد امتلاكها ، وإذا كانت متزوجة فيجب انتظارها حتى ينظف رحمها . ويجوز بيع وشراء وهبة السبايا والإماء . إذ إنهن مالٌ يمكن التصرف به» .

هنا توقفت حُذام ونظرت ناحيتي وابتسمت هازة رأسها في إشارة تأكيد لإجابتها عن سؤالنا لها في اليوم السابق . بينما كنت أنا أتتبع بسمعي أزيز طائرة آت من الخارج يعلو ويخفت ، وأقول في سري :

«خودي لن ينسانا فإن أراد لنا النجاة سيفتح لنا طريقاً أو ليجعل هذه الطائرة تسقط قنابلها فوقنا ولا تبقي منا أحدا» .

لكزتني عمتي عندما قالت حُذام إنه لا يجوز التفريق بين الأم وأبنائها الذين لم يبلغوا سن الحلم في البيع والشراء والهبة ، ويجوز التفريق بينهم إذا كان الأبناء بالغين . ثم همست بأذني كأنها متأكدة :

«لن يبيعونا إلى أن تكبر الفتاتان أي بعد سنوات طويلة» .

صفق أبو عائشة ليوقف الأحاديث الجانبية ، فيما كانت حذام مستمرة في القراءة :

«لا يحل وطء السبية إلا لمن تملكها ملكاً تاماً ، أما من كان ملكه لها منقوصاً بشراكة فلا يحل له وطؤها حتى يشتري نصيب الآخرين فيها ، أو يتنازلون له هبة ، ولا يجوز له بيعها إن كانت أم ولد ، وإن مات عنها مالكها تصبح حرة ، وتقسم السبايا ضمن تركته كتقسيم الإرث . غير أنهن يكن في الخدمة فقط دون الوطء إذا وطأها أب أو ابن أو إذا اشترك في ملكها عدد من الوارثين . لا يجوز للرجل وطء أمة زوجته لأنها ملك لغيره ، ولا يجوز للرجل تقبيل أمة غيره لأن التقبيل من الاستمتاع ، ولا يجوز الاستمتاع إلا بالملك التام . وعورة السبية في الصلاة كعورتها خارجها وهو ما سوى الرأس والعنق واليدين والقدمين . ويجوز للأمة أن تكشف الرأس والعنق واليد والقديم أمام الرجال الأجانب إذا أمنت الفتنة ، ويجوز الجمع بين

الأختين وبين الأمة وعمتها والأمة وخالتها في ملك اليمين ، ولكن لا يجوز الجمع بينهما في الوطء ، فمن وطأ واحدة منهن لا يجوز له وطء الأخرى» .

شدتني عمتي من ذراعي وقالت بصوت سمعه الجميع هذه المرة :

«لن يفرقنا شيء يا فيروز سنظل سويةً» .

أشارت حُذام بإصبعها نحونا وعلى وجهها ابتسامة خبيثة ، وصاح أبو عائشة :

«سكوت أيتها الكافرة» .

ويبدو أنه تذكر أننا أسلمنا قبلها بأيام فعاد ليقول :

«سكوت يا سبية» .

تابعت حُذام :

«يجوز ضرب الأمة ضرب تأديب ويحرم ضرب التكسير أو التشفي والتعذيب كما يحرم ضرب الوجه . وهروب العبد أو الأمة من كبائر الذنوب ، وبما أن لا حد شرعي للسبي الهاربة فهي تعزر تعزيراً يردع أمثالها عن الهرب . وإن احتاجت السبية إلى نكاح فلسيدها إعفافها أو وطؤها أو تزويجها ، ولا يجوز وطء السيد لأمته المتزوجة من غيره بل للسيد خدمتها والزوج التمتع بها . وإذا ارتكبت الأمة ما يوجب الحد أقيم الحد عليها ، ولكن ينصف عليها في الحدود التي تقبل المناصفة ، ويجوز أن تشتري الأمة نفسها من مالكها وتسمى هذه المعاملة بالمكاتبة . وأجر

عتق رقبة عتق الفاعل من النار ، ولمن قتل بالخطأ أو أراد الجنة بماله أن يعتق رقبة فيكون لها ما أراد ، وكذلك فإن عتق الرقبة المؤمنة كفارة للحنث باليمين والظهار وجماع الزوجة والأمة في شهر رمضان» .

عندما أنهت حُذام ترجمة آخر شيء قرأته كنا جميعاً مطرقات برؤوسنا خجلاً لما سمعناه ، بحضور رجل غريب ، أو ربما خوفاً من مستقبل مجهول ينتظرنا مع غرباء آخرين قد لا يكتفون فقط بمراقبتنا . مشى أبو عائشة بيننا في وقت كان بوسعه الخروج كما دخل مع مسار الجدار نحو الباب . كان يتفحصنا واحدةً واحِدة ، وفي عينيه النظرة نفسها التي كانت في عيني ذلك الداعشي الذي كشف مخبأنا في غرفة بيتنا .

-١٦-

أكملت نديمة طشت الغسيل الخامس لها في ذلك اليوم ، مختتمةً واجباتها التي تقلصت كثيراً بعد قرار إفراغ السجن وتحويله إلى ثكنة لسرية من جيش العسرة . وخلافاً لما جرت عليه عادة العمل في سائر الأيام ، مسحت في الصباح الباكر بقطع القماش المبللة أرضيات الزنزانات الفارغة وممراتها ، وتولت زميلاتها تنظيف الحجرات ونشرن حصتها من الغسيل ظهراً ؛ لذا وجدت نفسها في عطلة وقررت استغلالها بزيارة مفاجئة لفيروز في المطبخ ، فربما تحصل هناك على شيء آخر غير البرغل ومرقة البطاطس وأوراق الخس التي فرضتها الحاجة رقية في وجبتي الغداء والعشاء ، لاختبار ثبات السبايا على دينهن الجديد .

سارت بهدوء متحاملة على آلام أطرافها ومتخلفة كالعادة عن الأخريات في الممر ذي الأبواب الحديدية المتقابلة ، بين المبنى الذي فيه الحمامات وبناء المطبخ وقاعة الطعام الملحق بزنزانات الأحكام الخفيفة حيث يبيتون . كانت تترنم بلحن أغنية قديمة لم تحفظ أبداً كلماتها ؛ لتحجب عن ذهنها صوت قراءة القرآن المنبعث من مكبرات الصوت المتدلية من السقف

في طريقها ، وهي مقاومة تدربت عليها وأتقنتها في سنوات رعايتها الطويلة لزوجها الراحل ، الذي كان الشلل قد خرب عقله وجعله يردد كلمات بعينها آلاف المرات ليلاً ونهاراً بلا توقف . جَفَلت عندما رأته فجأة واقفاً أمامها ضاماً يديه إلى صدره مثل صنم . هتفت بلا وعي «يا شيخ آدي» ثم تذكرت فوهات البنادق وعقوبات التلفظ بأسماء رموز الشرك التي رددتها حُذام في كل درس مثل ببغاء ، وتؤدي جميعها إلى الموت فقالت مصححةً وهي تنظر في الأرض : «يا الله» .

«تركتم حجرتي بلا تنظيف هذا اليوم؟» .

ردت متلعثمة : «نظفوها لك في الصباح الباكر» .

«لا تناقشي أيتها السبية . نظفيها بنفسك الآن وعلى الفور . أريد أن أراها جاهزة بعد ساعة» .

«أمرك سيدي أبو عائشة» .

رجعت نديمة من الممر ذاته جارةً خطواتها الثقيلة ، ومستبدلةً لحن الأغنية التي لا تعرف كلماتها بسباب وشتائم لزميلاتها اللواتي ورطنها بأعمال إضافية بسبب تقاعسهن . انعطفت صوب الحمامات وأخذت من هناك أدوات التنظيف ودلواً فيه قليلٌ من المياه ، ثم سارت تندب حظها العاثر عبر الممر الطويل الموحش المنتهي بحجرات نوم القادة . خف صوت القرآن تدريجياً ثم لم تعد تسمع بوضوح سوى أصوات أنفاسها المتعبة ، وجلبة المياه في الدلو المعدني وقرع نعليها على بلاط

الممر المتفاقمة عتمته كلما اقتربت من حجرة أبو عائشة العفري .

كان الباب مواراً فدفعتهُ برجلها مبقيةً جسدها وما في يديها عند العتبة ، وفتشت بأصابع يدها اليمنى في الظلام متحسسة الجدار من الداخل عن زر المصباح ، فأشعلته ودلفت لتجد أمامها السرير الخشبي ذا الغطاء الأحمر مرتباً ، والأحذية في مكانها والأرضية ملتمعة وسلة المهملات فارغة ، ولا شيء يوحي بإهمال تنظيف ، فساورها شك في تواجدها بالحجرة المقصودة ، فقد عانت تلك الفترة مما وصفته في اعتراف ليلي لفيروز بالخرف المنتقل إليها من والدتها وجدتها ، وعلاماته الكبرى نسيانها الكثير من الأحداث المهمة في حياتها ، وقضائها ساعات من الشرود في محاولة تذكرها ، وقيامها بغسل الثياب نفسها مرتين ، وأحياناً دون إضافة مسحوق الغسيل لتظل روائح العرق الرجولي في الثياب ، وحدث أنها اكتشفت وجودها ولمرات عديدة في دورة المياه دون حاجة فعلية ، لكنها لم تخبرها أبداً عن المرتين اللتين استفاقت فيهما في الزنزانة لتجد نفسها سابحة في بولها .

ابتسمت عندما تذكرت ذلك وقالت ممازحة شبح كَلي :

«كنت سأخبر الجميع أنك من فعل هذا إن علموا بالأمر . لا باس أنا أمك الآن» .

والتفتت لتغادر بحثاً عن الغرفة الصحيحة ، غير أنها صعقت بجسد أبو عائشة الضخم قد سد الباب ناظراً إليها

بِأجفان مرخية ويده على مقبض الباب . أرجعتها الصدمة إلى الخلف خطوتين ، فتعثرت بالسرير وسقطت على حافته ثم انكبت على وجهها مرتطمة بالأرض .

سَمِعته يقول وهي تنهض مستندة بالسرير :

«هل رأيت بنفسك ، هنالك شيء لم يتم تنظيفه بعد» .

دارت الحجرة بنديمة بسبب نهوضها السريع فاستندت بكتفها إلى الجدار . قالت بلا وعي :

«سأنظفه الآن» .

أغلق أبو عائشة الباب وقلب المفتاح في القفل مرتين ، ثم جره ملتفتاً برشاقة على قدم واحدة إلى نديمة التي كان الفزع قد جمدها . تقدم نحوها قائلاً وهو يداعب لحيته :

«إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يُحب أن تؤتى عزائمه» .

لم تفهم شيئاً مما قال لكنها أدركت من غلق الباب وحركاته المخيفة أنه يريد بها سوءاً . قالت بعربية ركيكة :

«حجرتك نظيفة ماذا تريد مني؟»

فقال مادا يده إلى عضوه :

«نظفي هذا» .

لطمت صدرها ثم وجهها وقالت متوسلة :

«أقبل رجليك أستر عليّ فانا امرأة عجوز ، انظر إلى شعري إنه أبيض . دعني أذهب أرجوك» .

أثاره صدرها المترجرج حين أسرعت نحو الباب فدفعها لتنحشر في الزاوية بين الجدار والسرير . كَور يديه ووضعهما على صدره مشكلاً نهدين ، حركهما يميناً ويساراً :

«أنت ناضجةٌ مثل موزة وسأقشرك اليوم» .

تخلت عن تحوطاتها الدينية عندما رأته ينزع ستـرته العسكرية ، وبدأ يفك أزرار قميصه الأسود ولاح شعر صدره ، فاستنجدت بطاووس ملك وما كان بمتناول بالها من أسماء الصالحين ، وتذكرت تعليمات السبي والرقاب التي قرأتها حُذام ، فقالت بعجل منبهةً إياه على الخطأ الجسيم الذي يكاد يقترفه :

«أنا أم لطفلة صغيرة» .

«تقصدين عمتها» قال أبو عائشة العفري ، وألقى القميص بطريقة مسرحية على السرير ، ثم أمسكها من رقبتها وجرها إليه دون أن تمنحها الصدمة فرصة للمقاومة :

«فيروز ونعام وكَولي . ماتت أمهن بائعة البصل بنوبة قلبية وقبلها بعدة سنوات ، أعدم إخواننا في الموصل أباهم الذي هو شقيقك بسبب سعيه في الأرض فساداً ببيع الخمور التي حرم الله . وزوجك المصاب بشلل كامل توفي قبل أشهر» .

استجمعت قواها وحاولت التخلص من قبضته وأخذت تصرخ مستغيثة ، فقربها من وجهه حتى لامست لحيته الكثيفة ذقنها وسألها :

«هل كانت لديه أعضاء غير مشلولة أم أنه كان يستخدم فمه فقط؟» .

سحبها من خصرها بيده الأخرى فالتصقت بجسده وصرخ في أذنها :

«نحن خلفاء الله على هذه الأرض ونعلم صغيرها وكبيرها . وأنا من يأمر وينهى في هذا السجن ، وأنت ملكي وسأستمتع بك كما أشاء أو أقتلك إن أردت دون أن يجرؤ مخلوق على منعي . فوفري صراخك لما سأمنحك إياه الآن من لذة بعد طول حرمان» .

ضربها بباطن قبضته على رقبتها من الخلف بقوة ودفعها على السرير ، فانهارت متدحرجة عليه واستقرت على ظهرها غائبة عن الوعي . مال فوقها ، تحسس بأصابعه صدرها الناهد من فوق الثياب ، ثم مد يده إلى أسفل بطنها معايناً بنحو مادي غنيمته . تسارعت أنفاسه وهو يقول قبل أن يطبع قبلته الأولى على رقبتها الدافئة :

«بِسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيطَانَ ، وَجنِّبِ الشَّيطانَ ما رزَقْتَنَا» .

فرض وضاح أبو حفص تعليمات الدولة الإسلامية بحذافيرها على سكان قرى جنوبي الجبل ، التي أصبح أميرها ومتحكماً بمصير أبنائها ، فمنع النسوة من الخروج إلا في حالات الضرورة القصوى وبرفقة محرم ، منقباتٍ وفي أيديهن الكفوف ، مرتديات ثياباً طويلة فضفاضة غير ملونة . وأجبر الرجال على إطلاق اللحى وتقصير الشوارب والتوقف عن حلاقة الرأس . وعين من باب الاحتياط الحلاق ابن مختار قرية (الجديدة) خادماً في مسجد أم نهود لكي يظل أمام العين ليل نهار . وجعل مدخل القرية حيث الصخرتان مركزاً لتنفيذ العقوبات المفروضة من المحكمة الشرعية في سنجار على الأهالي ضمن سلطته ، بدأها بجلد شقيقه عاثر الحظ همام سبعين جلدةً ، بعد أن ضُبط متلبساً بتدخين سيكارة في مدجن مراد ، ونفذ الحكم بنفسه أمام أنظار الأهالي لتنتشر سيرة عدله بين القرى . وبعد شهرين منع استخدام وحمل الهواتف النقالة ؛ لكون أعداء دولة الخلافة الإسلامية يستخدمونها لنقل الأخبار إلى المرتدين والكفار ، وعلق على جدار المسجد عقوبة المخالفة وهي خمس عشرة جلدة ومصادرة الهاتف ، والتعهد تحريرياً بعدم حمل آخر . وأضاف

قنوات البث الفضائي إلى قائمة المحرمات الطويلة ؛ لأنها مروجة للرذيلة وأفكار الكفار ، وجاب القرى الست الأخرى مع شاحنة كبيرة ملأها بالأطباق والأجهزة وأرسلها إلى بيت المال في ولاية الجزيرة .

ولقمع ثورة زوجة أبيه مزنة التي قررت الدفاع عن ستلايتها حتى النفس الأخير ، كونه السلوى الوحيدة المتبقية لزوجها ، حدد تشغيل مولدة الكهرباء الديزل بأوقات الصلوات فقط . فردت مزنة بدعوة الملا حسن والملا دحام إمام جامعة قرية (النعمان) مع عدد من فضوليي أم نهود إلى وليمة عاجلة ، وحلفت أمامهم ويدها على المصحف أنها سمعت بأذنها الشيخ حامد يتبرأ من وضاح ، وأنه كرر ذلك بعد فقدانه للنطق بإشارات من يده غير المشلولة . مرر وضاح غضبه كردة فعل عبر قنوات شرعية ، فأوقف الملا حسن والملا دحام عن أداء أي خدمات اجتماعية غير مرخصة منه شخصياً ، ومنعهما منعاً باتاً من صعود المنابر والصلاة بالناس ، متذرعاً برفضهما مبايعة الخليفة . ووضع عمه عواد وابنه هشام تحت الإقامة الجبرية ، وقصر مغادرتهما للمنزل على أداء الصلوات الخمس في المسجد ؛ لعدم ثبوت رسوخ الإيمان بدولة الإسلام في قلبيهما . وأصدر قراراً بتغيير اسم قرية (أم نهود) إلى (أم فهود) وشرح الأسباب خلال خطبة جمعة مطولة ألقاها ممسكاً بقبضة سيف ، قال فيها :

«كان والدي شاباً سليم النية عندما أطلق الاسم الخادش للحياء والمخالف للعقيدة على القرية ؛ لمجرد أن في مدخلها صخرتان تشبهان والعياذ بالله نهدي امرأة» .

وإمعاناً في انتقامه رحب بطلب مُعلق لعمه أبو رواحة لزيارة القرية بعد حظر دام عقوداً ، ودعا الأهالي لاستقباله بحفاوة ، كاسراً بذلك وصية أبيه الشفهية ، وعلل إجراءه أمام قاضي المحكمة الشرعية بعد شكوى تقدمت بها مزنة برقود الموصي على فراش الموت وقد تعطلت معظم حواسه ، وبعدم وجود دليل كتابي على ما تفوه به سابقاً ، وأن شهادة امرأة واحدة لا تكفي . قال هذا ببال مستريح ؛ لأن أمه وزوجة أبيه الأخرى امتنعتا عن الشهادة لصالح ضرتيهما ، ورضخ إخوته لتهديدات الجلد ، فرد القاضي الشكوى لعدم استيفاء الشروط الشرعية .

***

زُين جانبا مدخل القرية من عند الصخرتين وحتى باحة منزل الشيخ حامد بأعلام الدولة الإسلامية وشعارات تمجيدها ، ونصبت بجوار المسجد خيمةٌ كبيرة وضعت بداخلها صفوف طويلة ومتقابلة من الكراسي ، وهيئت الخِراف للنحر على الطريق تحت لافتة كبيرة علقت بين جداري منزلين كتب عليها «أم فهود ترحب بابنها البار الأمير أبو رواحة كبير مستشاري والي

نينوى» . ولحظة ترجله من الحوض الخلفي لسيارة دفع رباعي كانت وسط الموكب ، ومد خطوة حنينه الأولى على أرض القرية علت أصوات الأطفال المستقبلين مرددين نشيد «طلع البدر علينا» ، وأطلق الشبان حمامات بيض تابعها أفراد الحماية المتأهبين بكثير من الريبة والحذر وفوهات مسدساتهم نحوها .

رفضت مزنة استقباله وحاولت منعه من دخول المنزل ، لكن لسانها وعصاها لم يكونا كافيين لمجابهة رجال حمايته العمالقة ذوي العيون الزرق ، فانسحبت وهي تردد بيت شعر غير موزون من نظمها :

«عبود صاحب الخصي السود صار آدمياً ويسود!» .

«قسوتم عليّ كثيراً بحكمكم الجائر يا حامد» ، قال عبود متحدثاً إلى شقيقه الذي أحالته الشيخوخة وتبِعات الشلل إلى هيكل عظمي ، وما عاد متحركاً منه سوى عينين لا تميزان الوجوه حتى مع عدسات مكبرة .

لم يكن متأكدا إن كان قد سمعه فاقترب أكثر من فراشه ورفع صوته :

«سنوات طويلة مضت وأنا أفكر بما سأقوله لك في يوم كهذا . كنا لنلتقي حتما يا أخي أليس كذلك؟»

ثم التفت إلى وضاح الجالس في الزاوية البعيدة ينظر إليهما ويفرك خصلة من لحيته بإصبعين . دارت عينا الشيخ حامد يميناً ويساراً بحثاً عن شبح مزنة . قال وضاح :

«إنه يسمعك جيداً أكمل» .

«لترضوا مشركين بالله عنكم حرمتموني دون وجه حق من قريتي التي ولدت وعشت فيها سنوات صباي وشبابي الأولى فقط ، لأنني سرت على نهج الشرع الكريم وتزوجت إيزيدية على سنة الله ورسوله بعد أن جعلتها تعتنق الإسلام» .

استغرب لعدم تمكنه من إيجاد ذكرى صورية لها في ذهنه . فكر قليلاً ، استرجع بعض الأحداث والوجوه عله يهتدي إلى ملامحها من بين آلاف الناس الذين عرفهم في حياته . لكنه لم يجد سوى أثر طفيف لوخزة ضمير قديمة جراء هجره لها في البصرة ، وتركها مع طفلين أحدهما رضيع لتواجه معهما قسوة الحياة ، وهروباً أبدياً من أهل يفتشون عن رقبتها لجزها بأي ثمن .

قال بتباهٍ كمن يريد إثبات أحقيته بشيء :

«أنا من ساعده في بناء أول منزل أقيم هنا بأم نهود» .

حرك وضاح مؤخرته على الحصيرة وقال مصححاً :

«تقصد أم فهود يا عماه» .

«كنت أحرث الأرض وأحصدها واهتم بماشيتنا وأقضي حوائج الأهل والأقرباء ، وكان يحصل هو على الثناء دائما لأنه الشقيق الأكبر والأقرب إلى قلب أبينا وجيبه» .

نظر في عيني الشيخ حامد التائهتين وقال مستغلاً عدم قدرته على الرد :

«كان لابد أن أجد نفسي في مكان آخر ، فلم يكن هذا المكان الصغير بحجم نهد يسعنا نحن الاثنين» .

سعل وضاح ليداري حرجه من زلة لسان عمه .

رفع عبود صوته مجدداً محدثاً شقيقه عن ما فاته من سيرته :

«عشت فقراً مُدقعاً وغنىً وترفاً . جربت متعة الاقتراب من سلطة الدولة في عهد نظام البعث ورفعت عصاها ، ثم اختبرت رفعها بوجهي والهرب منها من جُحر إلى آخر . سافرت بين دول وقارات . تزوجت مراراً وتعلمت لغات . لكن كانت كلها مجرد محطات ثانوية في حياتي حتى قابلت إخواني .

أدخل واحدٌ من أفراد حمايته الشخصية رأسه عبر الباب للتأكد من الوضع الأمني ثم سحبه بسرعة . وسمعا صوت مزنة تصيح في الخارج موزعة شتائمها بين الاثنين .

«لم تشفع لي جنسيتي البريطانية عند دورية للجيش الأمريكي ، قامت بإنزال جوي واعتقلتني في منزل استأجرته قبلها بأيام فقط في الصقلاوية بمحافظة الأنبار . لكنهم يمكرون والله خير الماكرين» .

تفاعل وضاح مع الآية :

«آمنت بالله» .

«المخبر السري الذي دلهم علي ، منحني دون أن يدري مفتاح الجنة ، فقابلت في سجن بوكا حيث اعتقلت بالبصرة

سيدي وولي أمري ونعمتي أمير المؤمنين وسيد المجاهدين أبا بكرٍ البغدادي القرشي» .

فتح الشيخ حامد عينيه على وسعهما وعاد صوت مزنة في الخارج محملاً بالشتائم ، ومعه نباح كلاب ومنبه سيارة .

«تعلمت منه أنا ومهتدون آخرون كثر ، وعلى مدى عشرة أشهر وكانت تلك مدة اعتقالنا التفسير الصحيح للقرآن ، وأخذنا منه فقه الحديث وطرق الجهاد بالنفس والمال والمعرفة» .

توقف عن الكلام لحظات ثم قال وهو يفرك سبابته بباطن إبهامه : «أنا اخترت المال» .

ارتفعت حرارة حديثه وبدا يروي كيف مكنته قدره إلهية في تتبع واكتشاف الموارد المالية وطرق تحصيلها لصالح المجاهدين ، فدلهم على أنابيب نقل النفط الخام بين مصفيي بيجي والقيارة . وعبر عن فخره بأنه هو من أشار بضرورة مساهمة الرعية في الموصل وباقي بلدات نينوى ، بمختلف فئاتهم ، بالجهاد لصالح دولة الإسلام المنشودة بجزء من أموال تجارتهم أو وظائفهم ، وحثهم بالترهيب لعدم القعود عن ذلك ، وأنه صاحب الفكرة الأساسية لمضمون فتوى تسخير ما تركه الكفار لمصلحة المؤمنين الأخيار . وجزء منها يتعلق ببيع الآثار الشركيةو سواء من التي غُنمت أو التي يتم استظهارها في أراضي دولة الخلافة ، ولا مفسدة في ذلك ما دامت المنفعة العامة متحققة .

ضرب عبود ظهر يده اليمنى بكف الأخرى وقال مخاطباً الأب والابن سوية :

«لهذا أنا جئتكم اليوم وليس للانتقام أو رد الإساءة بمثلها والعياذ بالله» .

رفع وضاح رأسه مستفهماً بيما كان عبود يقول للشيخ حامد بنبرة فرح :

«هل تذكر حلم طفولتنا ونحن نتسلق التلال الصغيرة المتناثرة بين الحقول ، بأن نحفر التراب تحتنا لنجد الكنوز الأثرية التي تحدث عنها كبار السن وقالوا إنها لأجدادنا القدماء» .

تقلصت ملامح الشيخ بألم وأغمض عينيه عندما سمع آخر كلمات ضيفه غير المرحب به :

«سأحقق لنا حلمنا أخيراً يا شقيقي» .

-١٨-

عاد مراد من جولته المكوكية بين بلدات ولاية الجزيرة برفقة سائق الحاج بومة خائباً ، يأكله الندم لأنه أغفل نصيحة ضياء بإشراك عمه أبو رواحة في بحثه عن فيروز ، لما يملكه من علاقات وسلطة تختصران الأزمان والمسافات ، وتجربة قلبية قديمة مماثلة ستجعله متفهماً ومتعاونا إلى أقصى الحدود .

«أنت عنيد كالبغل»

قال له ضياء ذلك عبر فايبر ، بعد أن فرغت أمه مزنة من تقريعه ونبش قبور أجداده ، وهددته بحجب أمومتها وسحب رضاها عنه إذ بقي دقيقة واحدة في منزل الخنزير ذي اللحية الحمراء .

«لن تستطيع إيجادها بهذه الطريقة حتى ولو بعد مليون سنة . قل للأمير أبو رواحة يساعدك أو في الأقل هذا مديرك ما اسمه . . . بومة؟» .

«إنها في مكان ما قريب مني يا ضياء . أشعر بهذا كل يوم . في بعض الأماكن يعتريني إحساس أنني إن التفت سأجدها جالسة خلفي على مقعدها تغطي بمنديلها نصف وجهها الملائكي» .

«قلت لك مراراً يا صديقي أنت تدفع ثمناً غالياً لشيء قد لن تناله مطلقاً . أصبحت الآن بنظر الجميع منتمياً لتنظيم داعش المتورط بسفك دماء الآلاف وتدمير مُدن بأكملها» .

قال هذا بصوت أقرب إلى الهمس ثم عاد ليرفعه :

«التنظيم سيزول وستظل أنت ملاحقاً دون ذنب اقترفته ، فقط لأنك عنيد وتفعل ما في رأسك دون سماع أحد» .

«لم أوذِ أحداً ولا بكلمة . ثم أنا أرفض داعش وأصاب بالغثيان من أشكالهم وتصرفاتهم ، لكنني قطعت عهداً والله يعرف هذا وسيعينني» .

«ضميري يؤنبني لأنني ساعدتك في ما تفعله ولم أبذل جهداً في منعك» .

«كنت سأفعل الشيء ذاته معك لو كنت مثلي واقعاً في حب بائعة بصل ، صدقني!» .

***

كانا يعاينان في الطب العدلي جثثاً جلبت للتو من معارك مندلعة في جبل سنجار ، واكتظت بها البرادات والمناضد والممرات ، وفاحت رائحتها ممزوجة بالفورمالين ووصلت إلى الطريق العام خارج المبنى .

سأله الحاج بومة من خلف كمامته الطبية دون مقدمات :

«ما اسمها؟» .

قرأ مراد من قصاصة ورق مقوى مربوطة بخيط إلى إبهام جثة أمامه :

«ذو الفقار الشامي» .

«المرأة التي تركت من أجلها أهلك وعملك وليس هذه الجثة يا . . .» .

ثم رفع رأسه وقال متسائلاً :

«أليس غريباً أنك ما زلت بلا كنية مثل الجميع في دولة الخلافة وأشهرهم أنا؟» .

بقي مراد صامتاً ينظر إلى إبهام الجثة المنتفخ . قال الحاج بومة وهو يقلب أوراقا وجدها على منضدة قريبة منه بين فخذي جثة أخرى :

«ما رأيك بأبي ريشة السنجاري» .

وتابع ممازحاً دون ابتسامة :

«هذا ينطبق على مهنتك الأصلية تماماً» .

مسح عدستي نظارته الطبية بربطة عنقه ثم قال بعد أن وضعها بهدوء :

«يجب أن يوقعوا عقوبات صارمة بحق هؤلاء الشهداء ؛ لأنهم يحرجون دولة الخلافة بتعفن جثثهم وتفسخها ، في وقت يتقافز فيه الخطباء على المنابر ضامنين للمقاتلين حفظ الجهاد لأجسادهم من الدود وإحالة دمائهم إلى مسك» .

وصل مدير الطب العدلي مسرعاً ، وكان طبيباً مصرياً

طويل القامة معقوف الأنف . صاح رافعاً ذراعيه فكادتا تلامسان السقف :

«كيف دخلتما إلى هنا . هل تريدان أن تخربا بيتي» .

في الطريق إلى الجهة اليسرى من المدينة ، حيث استهدفت غارة جوية مقراً للشرطة الإسلامية وسط حي سكني وتسببت بسقوط ضحايا مدنيين ، بادره مراد بسؤالٍ لتشتيت ذهنه وجعله ينسى ما كان يفكر به وهم بين الجثث :

«ما الذي يبقيك هنا مادمت غير مؤمن بالدولة الإسلامية . لماذا لم تغادر الموصل إلى مكان آخر كما فعل الكثيرون» .

ارتفع حاجبا السائق في المرآة متابعاً الحديث بالصوت والصورة . أخذ الحاج بومة نفساً عميقاً وأجاب :

«أنا حيادي مثل الصليب والهلال الأحمرين . أقوم بواجب لم أجرب غيره في حياتي ، وهو لا يعترض مصلحة أحد . بمعنى آخر لست هدفاً لأي جهة مؤمنة كانت أم كافرة» .

قال مراد بشيء من الخبث : «ربما ستكون هدفاً هذه المرة لقوات الأمن العراقية . ستحسبك بلا ريب على الدولة الإسلامية أو كما تسمى داعش ؛ لأنك حصلت منها على مساعدٍ وسائقٍ مع سيارة حديثة بلا لوحة أرقام تتحاشاها نقاط التفتيشك ويغض عنها رجال الحسبة أبصارهم الوقحة .

سيقولون لك ببساطة ، رداً على تبريرك ، ألم تكن أرض الله واسعة والموت في كل مكان لتحصيه وليس فقط ضمن حدود دولة الخلافة!» .

«لن يسمحوا لي في أي مكان آخر بتقصي الموت كما أفعل هنا ؛ لأنني سأكون مجرد نازح ومحسوبةً علي خطواتي . ولكن هذا ليس السبب الرئيسي وراء بقائي حتماً» .

عدل السائق المرآة الأمامية ودارت عيناه بين الاثنين غير آبه بنقطة تفتيش تجاوزها دون إلقاء التحية المعتادة ، فيما أمال الفضول مراداً وكاد أن يلامس كتف الحاج بومة الذي أقر : «السبب هو عشقي لهذه المدينة وارتباطي الوثيق بكل جزء منها ، ومغادرتي لها تعني موتي بلا أدنى شك» .

دخلت السيارة جسر الموصل الحديدي القديم ، فتابع وهو يشير إلى بيوتات قديمة مصطفة على ضفة النهر :

«الموصل ورطة كبيرة لمن يحبها ؛ لأنها تظل ملتصقة بروحه مهما كان شكل الحياة قاسياً فيها وظالماً ، وأياً كانت قوميته أو معتقده . كل من وفد إليها على مر السنين انصهر فيها وصار جزءاً من نسيجها الاجتماعي الذي فرضته بأنفةٍ جيلاً بعد جيل» .

سأله مراد بحرقة :

«لماذا إذن رضي أهلها بما يحدث لهم ولمدينتهم؟» .

أمسك الحاج بومة بذراعه وقال ضاغطاً على كلماته :

«الموصل سبية مختطفة منذ سنوات طويلة» .

دارى مراد ارتباكه بدهشة مصطنعة لمنظر عمود دخان أسود ارتفع مثل مارد بين أشجار الغابات في الضفة الأخرى من النهر . أراد أن يسحب ذراعه لكن الحاج بومة شدها برفق :

«السر الذي يعرفه الجميع وأنت منهم هو أن تنظيم الدولة الإسلامية كان يحكم نينوى والموصل عمليا بواسطة وزاراته وأدوات الموت التي امتلكها منذ تأسيسه سنة ٢٠٠٦ ، خارجاً من جلباب تنظيم القاعدة . وكان يفرض على التجار والمقاولين والأساتذة الجامعيين والصيادلة والأطباء والسياسيين والموظفين إتاوات ، وتقوم عناصره بجبايتها بنحو شهري أو كلما فرغت خزائن بيت المال . فجروا المركبات والعبوات الناسفة في الطرقات والأزقة ، واغتالوا بمسدساتهم الكاتمة للصوت أو الفاضحة من شاؤوا دون رادع في وضح النهار ، ولم يتغير شيء عندما أرسلت بغداد عشرات الآلاف من الجنود في سنة ٢٠٠٨ ، ونشرتهم لمسك الأرض في الشوارع ومداخل الجسور والأسواق ، وطوقت بهم الأحياء السكنية . ما حدث أن التنظيم ازداد قوة وأضاف العسكريين إلى قوائم ضحاياه ، بذريعة أنهم من الشيعة الروافض ، فأصبح الناس يعيشون في أتون حرب أكلت أخضر الموصل ويابسها» .

سمعوا صوت انفجار قوي فطلب من السائق التوقف على جانب طريق يمر وسط الغابات ، وواصل حديثه بعد أن أخفض زجاج نافذته :

«قبلها كانت تنظيمات القاعدة وأنصار الإسلام والنقشبنديين وجيش المجاهدين وغيرها تحارب القوات الأمريكية داخل المدينة وبين الناس ، فترد هي بكل ما أوتيت من قوة أرضية وجوية . فهاجرت العقول ورؤوس الأموال ، وتفشى الفساد وارتفعت مستويات البطالة ، وتدهورت الخدمات وفقد المواطنون ثقتهم بالسياسيين الذين خدعوهم مرارا بشعاراتهم التي سرعان ما انكشف زيفها . أصبحوا سلبيين مع القضايا العامة وقاطعوا الانتخابات المحلية والبرلمانية ، وكانت النتيجة أن ممثلي الموصل صار معظمهم من خارجها ؛ لذلك لا يكترث أحد بما يجري لها الآن ؛ لأنها بلا صوت حقيقي يدافع عنها خارج حدودها» .

ثلاثة انفجارات متتالية ارتفعت أعمدة دخانها بعيداً في الجنوب ، فيما كانت السيارة تقطع ببطء الطريق الموازي للشاطئ عائدة بهم ، لينتهي يوم عمل قصير لدواع أمنية . ظن مراد والسائق أن الحاج بومة غط في نوم عميق ، فقد أغمض عينيه والصق رأسه بزجاج النافذة وصدر عنه صوت يشبه الشخير . لكنهما فوجئا بصوته يقول : «الآلاف من أبناء الموصل كانوا يشكلون عماد الدولة العراقية في زمن حكم البعث . اشتهروا ضباطاً أكفاء في الجيش العراقي وإداريين ناجحين في المحافظات والوزارات والمؤسسات الحكومية والجامعات ، وحزبيين أوفياء لنظام الحكم ، وعندما احتلت القوات الأمريكية البلاد

سنة ٢٠٠٣ أحالتهم جميعاً إلى تقاعد قسري ، ومنعتهم من المشاركة في الحياة السياسية وكتابة الدستور الجديد ، واعتقلت الكثيرين منهم وعذبتهم في سجن أبو غريب ، فصنع منهم كل هذا جيشاً جاهزاً عززت الفصائل المسلحة بجزء منه قواها واستخدمته في حربها المدمرة» .

اعتدل في جلسته لكنه أبقى عينيه مغمضتين وواصل كأنه يتحدث عن حلم يشاهده :

«فتحوا الحدود بأسرها أمام الجهاديين القادمين من كل أنحاء العالم ، وعندما اكتظت بهم البلاد أبدلت الحرب وجهتها من مقاومة للاحتلال إلى طائفية بين أبناء الشعب لتصفية حسابات ماض بعيد لا يد لأحد منا في أحداثه» .

سأل مراد دون أن يلتفت إليه :

«هل تعرف لماذا تم الإعلان عن الدولة الإسلامية؟» .

بلع السائق ريقه ورد مراد بصوت فيه بحة :

«لأن الظروف كانت ملائمة لذلك» .

فتح الحاج بومة عينيه وهو يقول :

«بل لأن الكثير من السلفيين المتشددين يشترطون لمشاركتهم في الجهاد وجود دولة إسلامية مع راية وخليفة . هكذا تخلصت بلدان العالم من خلايا نائمة لطالما أقلقتها وفُتحت لها ممرات آمنة للوصول إلى هنا دون رقيب أو حسيب» .

ألصق كفه بأذنه اليمنى ثم تابع : «في نهاية الأمر ستجتمع قوى عسكرية عالمية لتصفيتهم هنا على هذه الأرض ، وسيدفع سكانها ضريبة ذلك خراباً كبيراً وأنهراً من الدماء» .

مال برأسه إلى جهة اليمين وأغمض عينه مجدداً : «هنالك مثل مشهور عند أهل الموصل يقول بأن الرضيع الذي سيموت يُعرف من لون برازه» .

ضحك السائق وحاول مراد ربط المثل بما سمعه فعاد الحاج بومة ليوضح :

«أحرقت الدولة الإسلامية الكتب في المكتبات وعطلت التعليم في المدارس ، وأغلقت الجامعات ودمرت معالم تاريخية ودينية ، وقتلت الناس وسلبت ممتلكاتهم بدواع مختلفة ، وهذه مؤشرات على أن عمر هذه الدولة لن يطول» .

قال مراد بغضب :

«لابد من الاحتكام إلى العقل . ما يحدث جنون مطبق» .

«ما فائدة العقل إذا كنا لا ندرك به كثيراً من تفاصيل ديننا . غيرنا استخدمه بنحو صحيح ففتحت لهم الحياة الرغيدة ذراعيها ، ونحن عطلناه وأغلقنا باب الاجتهاد فبقينا مسجونين في ماضينا» .

«مؤامرات الغير الذي هو الغرب ودسائسه هي التي صنعت الدكتاتوريات وداعش وأمثاله» .

«لماذا نسمح له بفعل هذا . ثم نحن نستر أجسادنا بأقمشة

وثياب الغرب ، ونعالج أنفسنا بعلمه وأدويته ، ونعلم أبنائنا وفقاً لمناهجه . نركب وسائط النقل التي صنعها ونستعمل أجهزته وآلاته في البيت وخارجه . نستخدم الكهرباء والانترنيت اللذين اخترعهما ، ونقتل بعضنا البعض بأسلحته التي صنعها ، كل ذلك ونأتي ببساطة لنرفع أكف الدعاء متضرعين لله أن ينصرنا عليه ، وأن يزلزل الأرض تحت قدميه ، ويبتم عياله ويورثنا أمواله وديارة» .

أبقى الانفعال الحاج بومه جالساً في السيارة عندما وقفت أمام باب منزله :

«يجب أن يحدث تغيير يتم فيه تعديل المفاهيم الخاطئة في ديننا . فنحن لسنا أمة سيف كما صورونا بل أمة محبة وسلام وعِلم ، وأول كلمة من القرآن هبطت للأرض كانت اقرأ . وليس في نهج الإسلام غدر الجار للجار ، فالنبي محمد قال إن جبريل أوصاه بالجار حتى ظن بأنه سيورثه . قال بالجار ولم يحدد عرقه أو دينه . لهذا فإن ما وقع للإيزيديين المسالمين من ظلم خروج عن نهج النبوة بل وعن تعاليم الإسلام برمتها» .

تجاوب مراد مع الجملة الأخيرة بهزة رأس متواصلة قطعها الحاج بومة بسؤال مباغت :

«لم تقل لي ما اسمها؟» .

-١٩-

استدعتني الحاجة رقية إلى غرفتها قبل ساعة من رحيلها مع مساعدتيها البدينتين إلى مدينة الرقة في سوريا للعمل في مطبخ سجن آخر هناك . مدت رأسها لتتأكد من أن لا أحد في الممر ، ثم أغلقت الباب بالمفتاح وأجلستني إلى جوارها على سرير حديدي سميك الفراش ، وطلبت مني إبقاء ما ستقوله سراً بيننا لأن إفشائي له سيعرضها للخطر . حركت رأسي موافقة وأنا أرتعش فقالت لي مطمئنةً :

«لا تخافي ، أنت فتاة طيبة ولن يتخلى عنك الله في محنتك» .

زادني ما قالته خوفاً وشعرت بقلبي يرف في صدري ، فوضعت يدها على كتفي وجذبتني إليها قائلة :

«سيأخذونكم إلى مدينة الموصل صباح يوم غد ليبيعوكم هناك» .

توسلت باكيةً أن تأخذنا معها إلى حيث ستذهب ، أن تعتبرني ابنتها ، خادمتها . وعدتها بالعمل ليلاً ونهار في المطبخ وغسل الثياب والتنظيف وأي شيء تريده ، فقط أن لا تدعنا نسقط بأيدي الرجال . امتلأت عيناها بالدموع :

«الله يعلم أنك مثل ابنة لي ، وأنني منعتهم من بيعك مرات عديدة خلال الفترة الماضية . كنت أقول لهم في كل مرة ألحوا فيها إن المطبخ يحتاج إليك ، كونك تعملين بجد وإخلاص . لكن الظروف تغيرت الآن يا فيروز ولم يعد بوسعي فعل شيء لك» .

خرج صوتي بصعوبة :

«خذينا أرجوك» .

«صدقيني ، حاولت لكن بلا جدوى . الأمر صادر من فوق» .

دست في راحة يدي ورقتين مطويتين من فئة مائة دولار ، وكانت تلك المرة الأولى التي أمسك بها مبلغاً كهذا . أقسمت إنها لا تملك غيره ، وإنني إن تمكنت من الحصول بطريقة ما على مبلغ إضافي عندها سيكون بوسعي شراء نفسي وأختيّ وعمتي ونصبح أحرارا . بالكاد تمكنت من الوقوف لوداعها ، كان جسمي ثقيلاً وروحي مكسورة ، وفيّ وجع لم يعد يكفيه البكاء ، لذلك استسلمت لدفء أحضانها وهي تضمني في عناق طويل ذكرني برائحة أمي وحنانها في زمن الطفولة التي كان فيه بيتنا الصغير هو كل عالمي .

***

سألتني كَولي في تلك الليلة :

«هل يختلف خودي الذي في قريتنا عن خودي الموجود هنا؟» .

لاحقت عينيّ بنظرتها الفضولية منتظرةً إجابة مني . أردت أن أقول لها نعم إنه مختلف في كل شيء ، فالأول غفور رحيم ، يرى ويسمع ويجيب الدعاء بلا مقابل ويرسل الصالحين لتنفيذ مشيئته بنصرة الخير على الشر . أما الذي في السجن فلا رحمة لديه ولا ينظر إلينا لكي لا يشاهد بعينه الظلم الذي وقعنا فيه . يأخذ الأرواح البريئة التي أحببنا ويترك الشريرة تتحكم فينا . نقدم له طاعة وعبادة ودموعاً ولا يعطينا غير عقابه . أردت أن أخرج لها ما في قلبي من غضب على سماء حجب سقف السجن إرادتها ، وتركتنا ببساطة لنصبح عبيداً لغيرها ، لكنني بدلاً عن ذلك سألتها عن سبب سؤالها ، فقالت إن عمتي نديمة تردد هذا في نومها وترفض أن تقول لماذا عندما تستفيق . في تلك الأثناء كانت عمتي مقرفصة على مقربة منا مستندة بظهرها إلى قضبان الزنزانة ، وعيناها متورمتان من البكاء . كان بادياً عليها المرض ذاته الذي أصابها يوم وفاة زوجها واستمر بعدها لأيام ؛ إذ رفضت الحديث إلى أي منا أو حتى النظر في أعيننا ؛ وبدلاً عن ذلك كلمت الوسادة وأشباحاً في هواء الزنزانة ، وأصابع يدها واحدة بعد الأخرى على أنها زوجها . سمعتها تقول له قبلها بيوم أنها ستمنح جنينه الذي في بطنها كل حبها ورعايتها ، وأنهما سيزورانه . اعتقدت أن ذلك نهاية أكثر شيء مجنون يمكن أن يصدر عنها ؛ لتعود إلى رشدها فيما بعد وتخبرني حتماً عن ما أصابها غير

أنها واصلت جنونها وسارت في منتصف الليل بين أجساد النائمين في الزنزانتين ، حاملةً وسادتها مثل طفل رضيع تقول لها مرة بعد أخرى بصوت عالٍ :

«إن الذي ضاع لا يسترد» .

فأيقظت الجميع صغاراً وكباراً وأتى الحراس يهرولون وبأيديهم المصابيح ، اضطررت إلى جرها بمساعدة العجوز كوري إلى مكاننا ، وتمكنا من إسكاتها أخيراً بانتزاعنا للوسادة من بين يديها .

***

اختفت عمتي نديمة . لا أدري متى حدث ذلك أو كيف ، كل ما أعرفه أننا لم نجدها في مكانها عندما أيقظتنا مكبرات الصوت لصلاة الفجر . كانت كَلي تحتل نصف وسادتها وملتحفة بغطائها ، لكن لم يكن لها أثر في زنزانتنا ، فظننت أنها تقوم بإحدى حركاتها في الزنزانة الأخرى وشعرت بالضيق لأنني سأجد ابتسامة سخرية على وجوه النساء والفتيات وهن يراقبن عمتي تحدث نفسها ، غير أنها لم تكن هناك أيضاً ، ولم يعر الحراس في الخارج اهتماما لصياحي منادية عليها ، ولا حتى لعدم وقوفي مع الأخريات لأداء الصلاة . أخبرتني عجائز أنهن سمعن في جوف الليل ، بعد انطفاء كهرباء مولدة الديزل ، صوت الباب يفتح ثم يقفل لكنهن لم يعرفن من الذي

دخل أو خرج بسبب العتمة .

مع شروق الشمس جاء أبو عائشة العفري ومعه مجموعة من الملتحين ، وعليهم ثيابٌ سوداء بالكامل ، قرأ أحدهم أسماءنا في أوراق كان يحملها ، ولم أنتبه وقتها أنه لم يأتِ على ذكر اسم عمتي . بينما التقط آخر صوراً لكل واحدة منا من الأمام والجانبين بكاميرا كان يرتديها كالقلادة عندما وصل . ثم وزعوا علينا نقاباً وكفوفاً وثياباً واسعة وطويلة بألوان غامقة ، وأمهلونا ومعنا الفتيات الصغيرات بضمنهم كَلي نصف ساعة لارتدائها ، وأبقوا باب الزنزانتين مقفلاً ، ووقف أربعة منهم يراقبوننا من الخارج وبنادقهم موجهة إلينا عبر القضبان .

بعدها حضر رجلٌ أبيض الوجه ، لحيته شقراء يلف رأسه بقطعة قماش خضراء . وقف في الخارج يتابع مبتسماً تهديد الحراس للواتي رفضن ارتداء النقاب . قال بصوته الرفيع متحدثاً إليهم :

«رفقاً بالقوارير يا شباب» .

بدا ذلك مثل أمر صدر عن قائد ، فامتثلوا وتراجعوا واحداً بعد الآخر ليقفوا خلفه ، فيما كان أبو عائشة يراقب من الناحية الأخرى وإحدى يديه في جيب بنطاله .

على الرغم من ضيق التنفس الذي أصابني جراء ارتدائي للنقاب ، لكنني شعرت بشيء من الآمان وأنا بداخله ، فقد كان بوسعي مشاهدة رجال داعش وسماعهم دون أن يروني ،

تماماً مثلما كنت أفعل وأنا صغيرة في مخبأي خلف برميل المياه في باحة منزلنا ؛ إذ كنت أستطيع مشاهدة أبي خارجاً من الغرفة بعد أن أشبع أمي ضرباً ، ويمشي مترنحاً صوب باب الخروج دون أن ينتبه إلى وجودي . كنت أسمعه يسب ويشتم وأحياناً يغني . قالت كَلي وهي تمسك ذراعيّ بيديها ان النساء كلهن متشابهات الآن وإنها تخاف إذا تركت يدي أن تضيع كما ضاعت عمتنا نديمة . أخرجت نعام رأسها من تحت ثوبي العريض وأعادته مرة أخرى ما إن بدا الرجل ذو اللحية الشقراء ينصحنا :

«الله تعالى يحبكن لهذا أخرجكن من ظلماتِ الكُفر إلى نور الإسلام ، وسيبدل أزواجكن الكفار بخير منهم ، وأهلاً مؤمنين خيراً من أهليكُن المشركين ، فارضينّ بما منّ الله عليكُن ولا تخرجن عن طاعة سادتكم الذين سيشترونكن ؛ لأنه سيكون خروجاً عن حكم الله وحقٍ شرعه للمجاهدين في سبيله مما يستوجب العقاب» .

سمعت فتيات يشتمن باللغة الكردية قلدهُن أطفالٌ ، فطرق ذو اللحية الشقراء بخاتمه أحد القضبان وارتفع صوته :

«تصل عقوبة العبد الهارب من سيده إلى حد القتل ، فلا تُقدمن على ما لا يحمد عقباه ، وكن مطيعات للأوامر ، واعلمن أنه يحل لمن يشتري أياً منكن الاستمتاع بما ملكه أو الاستفادة منها في خدمته وأهله ، وله أن يبيعها أو يهديها أو

يعتقها أو حتى يتزوجها إذا وجد أن ذلك أقرب إلى العفة» .

كان المشهد واضحاً جداً من مخبئي تحت النقاب ، فرجال داعش كانوا يعرفون جيداً أن خودي لم يعد يهتم بنا وانصرف لشؤون أخرى غيرنا ، لذلك لم يكونوا خائفين من غضبه بل على العكس كانوا يتحدثون باسمه ويقولون إن ما يحدث لنا يجري بعلمه . ونحن العاجزات لم تكن بيننا شيرين أخرى لكي نستطيع مقاومتهم والوقوف بوجههم ، فخرجنا واحدة بعد الأخرى من الزنزانتين إلى حافلتين صغيرتين انتظرتانا في الخارج ، وبدأنا البكاء والنحيب ذاته الذي قابلنا به اختطافنا ذات يوم من أيام مصائبنا الكبرى .

نادينا أنا وكَلي عمتي نديمة في الممرات التي قطعناها ، وحين خرجنا من المبنى . كنت أحمل نعام على كتفي وأحاول قدر الإمكان أن نكون آخر من يركب الحافلة . توسلت بهم أن يبحثوا عنها فلا بد من أنها في مكان ما تُحدث نفسها ، وستعود إلى الزنزانة ولن تجد أحدا . أدخلوا كَلي عنوة إلى الحافلة ودفعوني مع نعام خلفها بقوة ، فسقطنا في مدخلها وأنا لا أستطيع الرؤية بسبب النقاب الذي استدار فأصبحت فتحةُ العين على أذني . سمعت السائق يقول :

«قومي يا حلوة . سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» .

وجدنا مكاناً صغيراً بالقرب من النافذة في نهاية الحافلة .

حشرت نفسي فيه بصعوبة وأجلست الفتاتين في حجري ، وما إن صعد اثنان من الحراس مع بنادقهما وأغلِق الباب وسارت بنا الحافلة بهدوء بين أبنية السجن باتجاه الباب الرئيسي ، حتى بدأنا جميعنا بكائنا الذي لم نملك غيره للاحتجاج . وفي لحظة تشبه ومضة برق لمحت وجه عمتي نديمة وهي تنظر إلينا بذهول من خلف زجاج نافذة في مبنى حجرات القادة . لوحت لها . أنا واثقة منْ أنها رأتني ، صرخت على السائق ليوقف الحافلة لكن أصوات البكاء وزمجرة المحرك كانا أعلى بكثير ، فانتزعت نفسي من المكان عنوةً وركضت في الممر الضيق ، ونعام المتشبثة بثوبي تسحل على الأرض دون أن أدري . حاولت إخبار الحارسين بأن عمتي التي نُسيت موجودة هناك في النافذة التي كانت تبتعد ، لكنهما لم يصغيا إلي . بقيتُ أصرخ وأجر أحدهما من سترته فصفعني ودفعني من صدري ، وكدت أن أسقط فوق نعام لولا تمسكي بأحد المقاعد . شاهدت من خلال نافذة السائق باب الخروج الأسود الكبير يقترب ببطء . قفزت شيرين إلى داخلي ، كانت غاضبة وتريد الانتقام . رفعتُ النقاب عن وجهي وركضت إلى الحارس وأنا أسبه بالكردية ، ثم أخذت أضربه بكل ما أوتيت من قوة ، مستخدمةً قبضتيّ ، فجاء الثاني من خلفه لمساعدته وكان آخر شيء رأيته عقب بندقيته يمتد بسرعة خاطفة نحو وجهي .

أخرج مراد ما في قلبه دفعةً واحدةً ، سارداً التفاصيل الدقيقة لحكاية عشقه لفيروز ومحاولاته اليائسة للعثور عليها ، فيما كان الحاج بومة يتابع مسترخياً في مقعده الجلدي في غرفة المقبرة ، كأنه أمام عرض مسرحي لم يترك بطله وسيلةً حركية إلا واستخدمها للتعبير عن مأساته القلبية . كان قد برك بين عمودي سجلات حينما باغته العجوز بسؤاله :

«لماذا أحببتها بالذات؟»

تذكر المرات التي سأله فيها ضياء السؤال ذاته في حواراتهما السرية ، وكيف كان يتملص بإجابات مبهمة لأنه ببساطة لم يكن يعرف لماذا . غير أن الحاج بومة يختلف عن ضياء لأنه لن يقنع بإجابة مراوِغة . فكر في هذا وقال بثقة :

«ربما لأنني لم أكن لأحب غيرها» .

سادت المكان لحظاتُ صمتٍ قبل أن يظهر مراد من بين السجلات ، ممسكاً صورة فيروز بما يليق بأثر مقدس :

«أول مرة رأيتها فيها أحسست بأنني أعرفها منذ زمن بعيد ، وأن حياةً بطولها وعرضها قد جمعتنا سوية في عالم ما ، ديانات الناس فيه وقومياتهم فيه لا تفرقهم . كنت بحاجة فقط

لأن تتعرف هي عليّ . أن تقول لي هذا أنت يا مراد لقد عدت أخيرا» .

جلس على صندوق خشبي مواجه للحاج بومة ثم أشار له بصورتها :

«لم أستطع التوقف عن التفكير بها لحظة واحدة ، كنت أعد ساعات الليل الثقيلة بانتظار قدومها ؛ لأطوف حولها وأملأ عيني بها طوال النهار . قد تظنني مجنوناً أو مصاباً بنزوة مراهقة مزمنة إذا قلت لك بأنني كنت أشتاقُ إليها ، وهي أمامي لا تفصلني عنها سوى كومة البصل ، فكيف بي الآن وقد ضاعت مني» .

أفلتت دمعةٌ شطفها بظاهر يده وتصنع بضحكة قصيرة تماسكاً لم ينطلِ على صاحبه ذي الملامح الجليدية ، فسأله مجدداً :

«ماذا لو لم تعثر عليها مطلقاً؟» .

حدق فيه مراد وأجاب :

«لقد قطعت شوطاً بعيداً والرجوع أصبح مستحيلاً ؛ لذا سأستمر في المحاولة حتى النهاية . يا إلهي يصعُب شرحُ هذا ، كل ما أطمح له في حياتي الآن هو العثور عليها وتحريرها ، لا أريد شيئا لنفسي» .

نهض الحاج بومه دون أن ينبس بشيء ، سار متخطياً صناديق الحفظ الخشبية ودخل في ممر شكلته السجلات امتد

إلى الجدار في نهاية الغرفة . عاد بعد دقيقتين ومعه سجل نحيفٌ أزرق اللون ناوله لمراد ، وعاد ليجلس في مقعده . شابك أصابع يديه وقال منوها :

«ستجد في هذا السجل أنني لم أكن دائما رجل موت بل رجل حياةٍ كذلك» .

قلب مراد على عجل عددا من الصفحات ، فوجد فيها جداول بأسماء طيور الكناري والحمام والفناجس والبلابل والببغاوات والصقور . ظن بادئ الأمر انها أسماء حركية لأشخاص غامضين مدونة إزاءها تواريخ متباعدة ، وخانة المكان أشارت في معظمها إلى سوق باب الطوب . نظر إليه مراد مستفهماً فبين له الحاج بومة ، بعد أن وضع رجلاً على الأخرى وأراح ذراعيه على المسندين :

«أحب مشاهدة المخلوقات طليقةً تمارس حياتها التي وجدت من أجلها . ولطالما كرهت في شبابي صائدي العصافير ومربي الحمام ؛ لأنهم كانوا يستمتعون بذريعة الهواية على حساب أرواح ضعيفة وبريئة» .

قال مستدركاً بمزحة وملامحه باقية على برودها :

«هذا لا يشملك أنت يا أبو ريشة ؛ لأن عملك في تربية الدواجن كان تجارياً ، وعلى أية حال الدجاج لا يستطيع الطيران» .

«حسنا» تابع الحاج بومة وهو يشير إلى السجل :

«كلما وجدت نفسي محاصراً بالكآبة أذهب إلى سوق الطيور في باب الطوب لأشتري طائراً ، وأشترط على البائع أن أخرجه بنفسي من قفصه ، فأطلقه وأتلذذ بمراقبته يخفق بجناحيه ويبتعد محلقاً في جو حريته حتى يختفي . أمارس هذا العلاج الروحي منذ عقود وسأجربه معك لكن بطريقة أخرى» .

كانا ينظران إلى بعضهما عندما سأله مراد مندهشاً :

«كيف؟» .

«لن نقطع الأمل ، سأساعدك في البحث عنها وفي غضون ذلك سنشتري إيزيديات ونُطلِق سراحهن . من يدري قد يسعفك الحظ ويضعها أمامك . وفرضاً إن لم يحدث هذا ، عليك أن تعد كل واحدة تنقذها من الأسر فيروزاً ، وبهذا يستريح ضميرك» .

وقف مراد لا يدري ما يفعل من حماسته للفكرة . قال بانفعال :

«وفرتُ من تربية الدجاج مبلغاً جيداً من المال . . .» .

قاطعه الحاج بومة :

«سأدخل شريكاً معك بالنصف» .

***

استأجر مراد منزلاً صغيراً مدعوماً بخدمة الأنترنيت مكوناً من غرفة واحدة وصالة مستطيلة ضيقة ؛ ويفتح بابه الخارجي مباشرةً على الزقاق الخلفي لمنزل مديره ، ضماناً لتواجد قريب منه قدر الإمكان . ترك لعمه رسالة ألصقها بالمرآة في دورة المياه تعلمه بانتقاله دون أن يعطيه تفاصيل أخرى ، وكتب لضياء عبر فايبر كلمتين فقط :

«شكراً لك» .

وشرع بمساعدة من الحاج بومة ولهفة قلبه بمرحلة بحث أخرى ، أنفق عليها إلى جانب وظيفته الأساسية معظم ساعات اليوم . كان يقول لنفسه كلما أضاف أسماء متوفين جدد إلى سجل كانون الثاني ٢٠١٥ :

«سأجدها ما دامت حية» .

عمم الحاج بومه خلال الأسبوع الأول اسم فيروز على معارفه في ولايتي الموصل والجزيرة ، للبحث عنها بذريعة امتلاكها معلومات عن متوفيات بياناتُهن منقوصة في سجلاته . ومشط مع مراد الدواوين والمحاكم الشرعية والمستشفيات ، وحضرا حلقات دين وندوات إرشادية عن السبي . فتشا في الملفات المحفوظة وذاكرة الموظفين ، وأخذا معلومات كاملة عن سبايا معروضات للبيع ، وأجروا الكثير من الاتصالات ، وتعرفا خلال بحثهما على مقاتلين أجانب ومحليين أرادوا الحصول على سبايا شراءً أو هبةً ، نظير

خدماتهم الجهادية ، وعرضا عليهم مبلغاً جيداً لقاء أية معلومة عن سبية بمواصفات فيروز . وخلال الأسبوع التالي قابلا ثلاث سبايا في أوقات متفرقة بحضور مالكيهن ، اثنتان مراهقتان لم تعرفا من الحياة سوى بيتيهما في مجمعات سنجار ، وبيوت مالكيهما المتعددين التي تنقلا فيها مباعتين بعد أسرهن . بينما كانت الثالثة امرأة في عقدها الرابع ومنعزلة عن العالم تماماً بلا سمع أو كلام .

عند انتصاف الشهر أمسكا بخيط رفيع حين أخبرهما أمير عسكري من ولاية الجزيرة يدعى أبو صقر بأن مركز تجميع السبايا الرئيسي كان مدرسةً بطابقين في مدينة تلعفر ، ووزعن من هناك بين ولايات الدولة الإسلامية من الموصل إلى الرقة . وفسر لهما عدم ظهور اسم السبية التي يبحثان عنها في السجلات الرسمية ، إلى أنها ربما تكون قد لقيت حتفها ووريت دون إخطار الشرطة الإسلامية أو ديوان الصحة ، أو ما زالت ضمن عهدة ديوان الفيء والغنائم ، أو عدت ضمن الخُمس (*) العائد لبيت مال المسلمين ، الذي تدار ممتلكاته بسرية تامة ولم يجرِ بيعها أو إهداؤها لغاية الآن .

الجزء المتعلق بتلعفر كان تأكيداً لمراد ما ذكره له ولضياء الحارس ذلك اليوم في قرية فيروز ، أن نساء القرية نقلن ومعهن

(*) الخُمس : هي حصة بيت المال من الغنائم .

الأطفال إلى هناك . فأشعره ذلك بالراحة بعد أن أسقط احتمالات الموت مجدداً عن ذهنه ، وفكر فقط بأنها الخطوة الأولى الموفقة له منذ بدء مشوار بحثه ؛ إذ بات يعرف في الأقل من أين يبدأ .

-٢١-

أخذونا إلى مكان في الموصل يسمى الطيران ، وأبقونا لأكثر من أسبوعين داخل قصر كبير سقوفُه عالية ، نقوشُ آثاثه وجدرانُه مطرزة بلون الذهب ، وبلاط أرضيته مثل المرآة ، لفته حديقة كبيرة ازدحمت على الدوام برجال داعش . تركونا في الصالة ساعات لنفرغ من بكائنا ونعتاد على سجنهم الجديد ، وأبقينا نحن النُقب على رؤوسنا كسجن خاص بنا . كانت جبهتي منتفخة إثر ضربة الداعشي ، ورأسي كله ينبض موجوعاً ، لكن خوفي على عمتي ووجع فراقها كان أكبر . ولم أجد أحدا لسؤاله عنها هناك ، وحتى الشخص الوحيد الذي دخل علينا خلال تلك المدة كان ملثما ويرتدي قميصاً أزرق يصل إلى ركبتيه . وقف على سجادة مستديرة وسط الصالة ، وأشار بعصاً صغيرة كان يحملها إلى جدار فيه نوافذ كبيرة بستائر تشبه أجنحة الفراشات ، تحدث بلغة غريبة لم نفهم منها سوى «قِبلة ، الله أكبر» ثم خرج وعدنا نحن إلى بكائنا .

كانت كَلي أشدنا افتقادا لعمتنا نديمة . فقد اعتادت على خدعة البنت وأمها التي مارستاها في سجن بادوش ، وأحبت كثيراً كلمة ماما التي قالتها لها مراراً أمام الدواعش أو وحدهما

في حوارات ليالي الزنزانة الموحشة ، لِتُعوِض عن ما فاتها من حنان منذ وفاة أمي . أبقت عينها باستمرار على باب الصالة الزجاجي الموصد ، على أمل أن تدخل منه في أية لحظة ، وقامت بجولات عديدة بين النساء المغلفات بالنُقب علها تسمع صوتها ، إشارة سرية منها توحي بأنها مختبئة وتمارس لعبة من ألعابهما الكثيرة . تخيلت مرتين أنها سمعتها تنادي باسمها ، فركضت تفتش عن مصدر الصوت الخيالي ، وعادت مسرعة إلى مكانها ذاته الذي كانت تجلس فيه على الأرض بجواري ، كأنها لن تقوى على سماع صوت ندائها من مكان آخر . بينما لم تغادر نعام الصامتة على الدوام حِجري ، وامتزجت أنفاسنا ببعضها كلما أدخلت رأسها معي في النقاب لتتأكد من وجودي . كانت تقول لي كل شيء بنظراتها دون حاجة إلى كلمات ، فأرد عليها بضمة تجيبها :

«وأنا أيضاً ليس لدي في هذا العالم غيركما أنت وكَلي» .

في المساء انفرج باب الزجاج عن داعشي لحيته تشبه رأس مِكنسة مستعملة ، انعكست على رأسه الحليق أضواء مصابيح السقف عندما مشى بيننا ، وأحصى أعدادنا يرفع رأسه ويخفضه دون أن يتكلم . أمرنا بإشارات من يديه بالوقوف في صفوف ، ثم قسمنا إلى مجاميع من ست نساء مع الأطفال ، ووزعنا إلى غرف متجاورة بطابق القصر الثاني وأقفل أبوابها .

حلُمتُ بمراد في تلك الليلة . لا أعرف متى تمكن مني النوم

ليضعه أمامي في ذلك الحقل الأخضر الفسيح المليء بالزهور والطيور والأشجار المثمرة . كان يرتدي قميصاً أبيضَ بياقةٍ مستديرة ، كالتي يرتديها رجالنا الايزيديون ، وعلى وجهه تلك الابتسامة والنظرة الحبيبتين على قلبي . مد لي خاتماً ذهبياً مرصعاً بأحجار ملونة يشع منه نورٌ أخاذ ، وقال دون أن يرفع عينيه السوداوين عني :

«صنعته لك من القمر . سيحميك من الحزن والظلام» .

أمتعني صوته وملأ الفرح قلبي ؛ لأنني فهمت كلماته واستطعت أن أنظر إليه وأتفحصه بشوق ، دون خوف أو خجل كما فعلت لمرة يتيمة في زمن الحرية . نهضت من على كرسيي الخشبي الصغير ودرت حول نفسي بفرح غامر لكي أريه فستاني الزهري الجديد . درت ودرت سعيدة بهدية خودي الذي ما زال يتذكرني ، وفكرت بما سأقوله لعمتي عندما أعود إلى البيت ومعي خاتمي السحري ، لكنني حين توقفت ويداي على خصري لم أجده بقربي . كان بعيداً يمشى في نفق ضوئي طويل شابكاً يديه من الخلف وينظر إلى الأرض . ركضت لألحق به غير أن خطواتي أبقتني في حدود مكاني دون أن أتجاوزها . لم أجد اسمه في ذهني لأناديه به ، حاولت تذكر الأسماء التي أعرف ، سمعتني أتحدث بالعربية لكن بصوت عمتي ، ذكرت أسماء صالحين وأخرى غريبة لا أعرف أصحابها . انطفا النفق وتغير الحقل . أصبح مقفراً ولا شيء

يحيطني سوى رمال وصخور مبعثرة ، وطيور سود برؤوس بشرية تحلق في دائرة واسعة جدا في السماء . فتشت عن الخاتم في يدي لكن لم أجد سوى قطعة ممزقة من فستاني الزهري الجديد .

«أين خاتمي ، أين خاتمي»

قلدت كَلي صوتي حين أفقت . كانتا هي ونعام جالستين على الأرض تنظران إلي باستغراب ، فيما كانت الأخريات اللواتي معنا في الغرفة ذاتها يعدن مع أطفالهن إلى نوم كنت قد انتزعتهن منه بصراخي .

***

في الصباح اكتشفنا أنهم اقتادوا عند منتصف الليل وقبيل موعد إطفاء مولدة الديزل ، العجائز التسع بضمنهن كوري إلى مكان مجهول ، وبعد ساعة من تجميعنا في الصالة لتناول فطورنا المكون من الخبز والتمر والماء ، اقتحم دواعشٌ الصالة ، تحركوا بسرعة كأنهم بين قطيع ماشية ، التقطوا الصبية الذين تزيد أعمارهم على خمس سنوات وأخذوهم جراً إلى الخارج ، مخلفين عويل الأمهات وصخب لطمهن على صدورهن ووجوههن المكشوفة .

عند العصر أعادوهم يمشون في طابور وقد ألبسوهم الزي الأفغاني ، حاملين نسخاً من القرآن ، رافقهم داعشيان أحدهما قصير القامة ، أجفانه منتفخة ولحيته مجرد شعيرات ، وقف يستمع للآخر وكان ضخماً رأسه عبارة عن كتلة شعر . ذكر بأن

الصبية أصبحوا جنوداً في معسكر أشبال الخلافة ، وعليهم إكمال تدريبهم المكثف على مدى أسبوعين في مسجد قريب . انسدلت النُقب على الوجوه ولم يعد يسمع في الصالة سوى جلبة الصغار . قال الضخم :

«لا تخفن فأبناؤكن لن يصبحوا باشا بازي(*)» .

وأخذ يضحك بشدة ثم أخفى وجهه بكفيه قبل أن يرفع يديه إلى الجانبين ويحركهما فيما يشبه رقصة استمر معها بالضحك ، في حين كان الآخر ينظر إلى لاشيء مثل تمثال .

تمالك الضخم نفسه :

«سنعيد تربيتهم وفقاً لمنهاج النبوة . سنعلمهم القرآن والسنة واستخدام السلاح ليصبحوا رجالاً أشداء» .

شد قبضته وصاح بصوت عالٍ : «دولة الإسلام باقية» .

فرد الصبية بصوت واحد :

«باقية وتتمدد» .

كان الضخم مستمرا في الضحك وهو يخرج مع الرجل التمثال ، عندما سألتني كَلي :

«ماذا يعني باشا بازي؟» .

***

(*) باشا بازي : هو مُصطلح عامي أفغاني يُطلق على الأنشطة التي يُمارسها الأطفال الذكور من رقص وتقرب جنسي من البالغين الذكور .

الصبية أصبحوا جنوداً في معسكر أشبال الخلافة ، وعليهم إكمال تدريبهم المكثف على مدى أسبوعين في مسجد قريب . انسدلت النُقب على الوجوه ولم يعد يسمع في الصالة سوى جلبة الصغار . قال الضخم :

«لا تخفن فأبناؤكن لن يصبحوا باشا بازي(*)» .

وأخذ يضحك بشدة ثم أخفى وجهه بكفيه قبل أن يرفع يديه إلى الجانبين ويحركهما فيما يشبه رقصة استمر معها بالضحك ، في حين كان الآخر ينظر إلى لاشيء مثل تمثال .

تمالك الضخم نفسه :

«سنعيد تربيتهم وفقاً لمنهاج النبوة . سنعلمهم القرآن والسنة واستخدام السلاح ليصبحوا رجالاً أشداء» .

شد قبضته وصاح بصوت عالٍ : «دولة الإسلام باقية» .

فرد الصبية بصوت واحد :

«باقية وتتمدد» .

كان الضخم مستمرا في الضحك وهو يخرج مع الرجل التمثال ، عندما سألتني كَلي :

«ماذا يعني باشا بازي؟» .

***

(*) باشا بازي : هو مُصطلح عامي أفغاني يُطلق على الأنشطة التي يُمارسها الأطفال الذكور من رقص وتقرب جنسي من البالغين الذكور .

في اليوم الثالث وكان يوم جمعة ، تولت امرأة داعشية نحيلة اسمها أم البراء الإشراف علينا لتهيئتنا وإعدادنا للبيع . ذكرت لنا مهامها هذه في كلمة قصيرة ألقتها علينا ، وهي واقفة على السجادة الدائرية وسط الصالة ، ونبهت قبل أن تشير إلى مساعداتها الأربع بالبدء بالعمل ، إلى أن المعترضة منا ستعاقب بالجلد ، وإذا كررت ذلك تلحق بزميلاتنا الكبيرات في السن ثم رفعت وجهها إلى فوق . وكان ذلك آخر ما سمعناه عن العجائز .

قضت أم البراء نهار ذلك اليوم في تعليمنا حقوق الرجل المسلم على المرأة التي يملكها ، ووجوب الانقياد له في كل شيء يأمر به ، وخدمة أهله كون طاعتهم من طاعته . وحكت لنا قصصاً عن نساء سبايا مثلنا في زمان قديم وصل فيه الإسلام إلى بلاد بعيدة . تحدثت طويلاً دون أن تمنحنا إجازة من صوتها المزعج الذي يشبه منبه السيارة ، واعتقدنا في البداية أن الحركات التي تحدثها في وجهها لها علاقة بما تقوله ، لكننا اكتشفنا بمرور الوقت أنها مصابة بمرض غريب جعلها لا تسيطر على ملامح وجهها ، وسمعت النساء في الغرفة ليلتها يفسرن ما يحدث لها بغضب من خودي بسبب شيء سيء اقترفته . فتعجبت ساعتها كيف أنه فعل بهن كل ذلك ومع هذا بقين مؤمنات به وبغضبه .

في الأيام المتبقية من ذلك الأسبوع جعلونا أربعة مجاميع

لتعليمنا آيات القرآن واللغة العربية ، في حين فصلوا الفتيات الصغار عنا لإعطائهن دروساً خاصة قالوا إنها تناسب أعمارهن ، ولم تنجح محاولات عديدة قامت بها أم البراء ومساعدة لها في نزع نعام عني ، واكتفتا في نهاية الأمر بكَلي التي عادت مساءً وقد أنهكها الإجهاد ، ومع ذلك وجدت متعة في تقليد المعلم الشيخ بحركات من جسمها أضحكت من في غرفتنا جميعاً ؛ لأننا علمنا وبوضوح أنه كان مقوس الظهر ، لحيته بيضاء مثل صوف وسادة ، ينام وهو جالس ولا يلفظ حرفي السين والصاد لأنه بلا أسنان تقريباً .

في صباح الجمعة التالية أخبرتنا مساعدات أم البراء أنهن سيبدأن السبت بتعليمنا كيف نهتم بمظهرنا ، لكي نحصل على سادة يحتفظون بنا ولا يبيعوننا مرة أخرى . ودفعت الثرثرة بإحداهن وكانت أصغرهن عمراً ، إلى أن تفضي للمجموعة التي تتولى تدريسها بسر أنهم سيعرضوننا للمزاد بعد أسبوع واحد ، وهو ما أدى إلى إنهاء إجازتنا من الحزن ، وضجت الصالة عند اجتماعنا للغداء بالبكاء والنحيب كأننا اكتشفنا للتو بأننا سبايا .

قبيل انصرافنا لصلاة الظهر والاستماع إلى الخطبة الطويلة من جامع قريب ، وجدت فرصة للحديث مع أم البراء . نظرت إلى كتفي وطلبت أن أقول لها وبسرعة ماذا أريد . فقلت بكلمات عربية غير مرتبة ولكنها واضحة المعنى ، إنني أريدها

أن تجد لي عمتي . انقبضت ملامحها وانفرجت ثلاثة مرات متتالية قبل أن تقول بعصبية ودون أن تنظر في عيني مباشرة :

«وماذا بعد» .

لم أتمالك نفسي من البكاء . قلت متوسلة :

«وسأفعل أي شيء تريدونه مني . أي شيء فقط لا تحرموني من ابنتي نعام وابنة عمتي كَولي» .

«الله كريم» قالت هذا فقط ثم تركتني حائرة وغير متأكدة تماماً من أنها فهمت قصدي . لكنها عادت وسحبتني من الدرس عصراً وأوقفتني بعيداً بالقرب من السلالم . قالت لي وخداها يرفان :

«مكتوب في أولوياتك المرسلة من سجن بادوش أن لديك شقيقتان هما كَلي البالغة من العمر تسع سنوات ونعام خمس سنوات ، وهنالك ملاحظة مكتوبة من قبل مسؤول معني أن عمتك ليس لديها أبناء» .

«أرجوك أخبريني أين عمتي»

صحت وأنا امسك بذراعها . فردت وعينها في الأرض :

«إذا استمر ادعاؤك أن كَلي ابنة عمتك سنعطي حق رعايتها إلى عائلة مؤمنة على سبيل الهبة لكونها فتاةٌ بلا أبوين» .

سحبتُ يدها إلى فمي وقبلت ظهره :

«أرجوك لا تفرقيني عن أختيّ» .

***

هز القصر انفجارٌ هائل تلك الليلة . كنت مستلقية بين نعام وكَلي في مكاننا على يمين الباب ووجهي ناحية الستارة البنية السميكة المسدلة على النافذة ، أذرف دموع الخوف الليلية من خبايا الأيام المقبلة ، وعلى عمتي التي كنت بحاجة ماسة إلى وجودها قريبةً مني . في لحظة خاطفة ارتفع نصفا الستارة من الأسفل وتناثرت شظايا زجاج النافذة على الأرض والأجساد ، ثم امتلأت الغرفة دفعة واحدة بالدخان ومعه صوت التفجير المرعب . نجحنا في الهبوط إلى الصالة وسط الظلام والضجيج والدخان . سرت ملصقةً كتفي بالحائط الرخامي البارد ، حاملة نعام بين ذراعي ، وكَلي ممسكة بثوبي من الخلف . علمت حين دخل جزء مني فجأة في الفراغ أنه الممر الرفيع المؤدي إلى دورة المياه ، فتذكرت أنه بلا نوافذ وسيكون آمنا فلذنا بظلامه .

اتكأت بظهري على الحائط وأنزلت جسمي وجلست على الأرض ، مادةً رجلي ، واستقرت نعام في حجري بلا حراك فسرني أنها نائمة ولم تشعر بشيء . سألت هامسة على يميني حيث كَلي : «هل أنت بخير» .

فجاءني صوتها عبر العتمة :

«لقد فعلتها في ثوبي» .

أحسست بعدها بوخزات ألم في قدميّ ، وشيء لزج بين أصابعهما ، فيما كانت ذراعي اليسرى ساخنة ، فسحبت ذراعي اليمنى بهدوء من تحت رجلي نعام ، وقبل أن أمدها

لأتحسس بيدي تلك السخونة ، سمعت صوت مولدة كهرباء فرفعت رأسي في محاولة التأكد أنه صوت مولدة القصر نفسها ، بعدها بلحظات أضاء المصباح الذي كنت أنظر إليه مباشرة ، واحتاجت عيناي إلى التكيف مع الضوء المفاجئ فأغمضتهما لا إرادياً ، ومال رأسي نحو الأسفل . في تلك الأثناء صرخت كَلي صرخةً طويلة فتحت معها عيني لأشاهد رأس نعام مائلاً من فوق ذراعي ورقبتها محزوزة وغارقة بالدماء .

أمسك مراد والحاج بومة في شهر شباط بخيطٍ جديدٍ مصدره شخص من ديوان الفيء والغنائم . أخبرهما مقابل مبلغ مالي أن سبايا بيت المال غير المقسمات هن آخر ما تبقى مما غُنم من الإيزيديات في غزوة سنجار ، وقد وزعن للخدمة في المعسكرات والسجون والمستشفيات ، وأهدي عدد محدود منهن لمجاهدين قاموا بأعمال بطولية في الجبهات ، بينما نقل معظم الصبية الذين تزيد أعمارهم على عشر سنوات إلى الرقة ، وأدخلوا معسكراً لأشبال الخلافة . وقال الشخص الذي كان مُلثما وقابلهما على الرصيف الموازي لسور نينوى الأثري في الجهة اليسرى للموصل ، إن قراراً صدر قبل شهر بالتصرف بهؤلاء السبايا واستغلال المبالغ المتأتية من بيعهن لصالح ديواني الدعوة والمساجد والتعليم . وسلمهما متطوعاً قائمة بأسماء ستِ سبايا قضين بقصف جوي في الموصل قبل أسبوعين . وعبر لهما عن أسفه لتلك الخسارة ، ولاسيما أنهن كُن سيعرضن للبيع في مزاد خاص .

حفزهما ذلك للتحرك السريع ، فقاما بتدقيق سجلات المحكمة الشرعية وعثرا بالفعل على عدة تسجيلات جديدة

لمشترين معظمهم مهاجرون أجانب . وتوصلا إلى أن المزادات أصبحت مخصصة لقادة مهاجرين ، لضمان عدم قيام المحليين بشراء وإطلاق السبايا . كما أن أسماؤهم لن ترد في سجلات المحكمة الشرعية لإبقاء بياناتهم الشخصية سرية ، وهو ما دفع الحاج بومة للاستعانة بثقل علاقاته في ولاية نينوى ، وتمكن بعد زيارة قصيرة لديوان الوالي من تحديد مكان وزمان مزايدة جديدة لبيت المال ، وحصل على إذن المشاركة فيها لشخصين .

في الطريق لمتابعة المهام اليومية بدا على مراد التأثر وهو يراجع مع الحاج بومة تفاصيل خطتهما في دخول المزاد السري كمُزايدين ، وقبل ذلك توفير كاميرا لالتقاط صور شخصية وإيجاد من يزور لهما هويات أحوال مدنية ، ومهرب يفعل أي شيء مقابل حفنة مال . قال له بنبرة ود :

«أنت تعرض نفسك للخطر من أجل مساعدتي» .

وضع الحاج بومة كفه على أذنه اليمنى ومال برأسه مقترباً من السائق :

«أعطني دوائي يا أبا عجلة» .

فانساب صوت موسيقى هادئة اعتدل معها الحاج بومه وهو يتمتم :

«نعم هكذا أفضل»

ثم التفت إلى مراد المستغرب وقال مجارياً نبرته الودية :

«أنا أساعد نفسي يا أبو ريشة . أحاول أن أفعل شيئا للحياة

بعد أن سخرتُ معظم حياتي للموت» . حرك يديه متفاعلاً مع الموسيقى وترنم :

«مونمور» .

«لكنك ستخرج عن حيادك بسببي . لن تعود صليباً أو هلالاً أحمرَ!» .

«لطالما أردت توثيق الولادات أيضاً لكي أتوصل إلى الكيفية التي يوازن بها الله بيننا . كيف يجعل أعدادنا تزيد مع كل هذا الموت الذي تخلفه الحروب والأمراض والحوادث والكوارث الطبيعية . تحرير سبيه يعني بالنسبة لي ولادة جديد» .

قال مراد بشيء من الخجل :

«على أية حال أشكرك لما تقوم به» .

أرجع الحاج بومة رأسه إلى مسند المقعد ، ووضع يديه على صدره شابكاً أصابعهما :

«أشاهد وجوه بعضهم في نومي» .

تلفت السائق ، وسأله مراد مندهشاً :

«من؟» .

«الموتى الذين أسجل أسماءهم» .

أغمض عينيه مع بروز عزف الكمان منفرداً :

«أشعر خلال النظر في سَحناتهم الحزينة والمعلومات التي أوثقها عن طريقة وفاتهم ، أنه كان بالوسع إنقاذهم لو تخلى أحد ما عن حياديته» .

أعاد وضع كفه على أذنه وقال بعصبية :

«لا شك أن هذا الطنين الذي في أذني له علاقة بهم أيضاً . قد تكون أصواتهم البرزخية» .

لم يكن واضحاً لدى مراد إن كان في الأمر مزحةً . حاول التقاط نظرة من السائق غير أنه كان مندمجاً مع الموسيقى والطريق . عاد الحاج بومة ليقول :

«راجعت ، على مدى عشر سنوات ، عدداً من الأطباء الأغبياء ، نصحني جميعهم بأن أتعايش مع حالتي لأن الطب لم ولن يجد لها علاجاً . كيف يمكن للمرء أن يتعايش مع شيء يصدر صفيراً في رأسه ليل نهار وبلا توقف . يمنعني من النوم ، يوقظني منه . كلما فكرت به ارتفع صوته وكلما نسيته قل . إلى وجدت علاجي بنفسي وهو استماعي للموسيقى ، فيطغى جمالها على التلوث السمعي في أذني» .

شاهد من خلال النافذة جهة مراد صفاً طويلاً من رايات متجاور للدولة الإسلامية فأشار إليها :

«يحرمون الموسيقى معتقدين بأنها وسيلة لارتكاب الزنا كونها تحرك كوامِن الشهوة في النفس ، ويتهمونها بالإلهاء عن ذكر الله . يستندون في ذلك إلى أن قلب المؤمن لا يجتمع فيه حب القرآن وحب كلام الشيطان ، ويقولون أيضا إن الموسيقى تنبت النفاق في القلب . أما انتهاك الأعراض وتدمير بلدات بما فيها وقتل سكانها وتشريدهم ليست أعمالاً شيطانية وتنبت نفاقا في القلوب!» .

قال مراد مؤيداً :

«ماذا عن الموسيقى التي في الطبيعة . . .» .

قاطعه الحاج بومة مفرقعا بإصبعيه :

«بالضبط يا أبو ريشة . هذا ما فكرت به منذ زمن بعيد . فلو سلمنا جدلاً بما يدعونه ، فهذا يعني أن طيورا مثل الكناري الصغيرة الجميلة التي تصدر أصواتاً موسيقية متعددة ، وزقزقة العصافير الأخرى ونوح الحمام ، رجس من عمل إبليس اللعين . لا أفهم لماذا لا يصدرون فتاوى جهاد بإبادتها . لماذا لا يحرمون الاستماع إلى خرير المياه وعزف الريح وأصوات الرعود ، لماذا لا يجلدون المطر مئة جلدة؟» .

تنهد مشيرا إلى صدره ثم ردد مثلاً ممازحاً به مراد :

«لمن تشتكي حبة القمح إذا كان القاضي دجاجة!» .

انحرفت السيارة داخلة بهم إلى المقبرة الشمالية للمدينة . توقفت قرب حشد من الرجال كانوا يسيرون ببطء ، وفوقهم تابوت باتجاه قبر محفور حديثاً . أمسك الحاج بومة بذراع مراد قبل أن يخرج جسده من السيارة . قال بدفء دون أن ينعكس ذلك على وجهه :

«أنا الذي أشكرك لأنك أخرجتني من حيادي» .

***

انتظر الحاج بومة حتى فرغ مراد من بحثه في صور وقائمة أسماء سبايا المزاد الموضوعة باهتمام مع زهور حمر على منضدة مستطيلة في مدخل قاعة الألعاب الرياضية المغلقة . راقبه إلى أن عاد إلى مكانه على بعد عدة مقاعد والخيبة في وجهه . ثم تلقى منه الإيماءة المطلوبة كإشارة ، فنهض يسير بخطاه المتثاقلة متجاوزاً صفاً متأهبا من المقاتلين المهاجرين ، الذين التزموا بالحد المسموح لهم أمام منصة أعدت وسط القاعة لعرض السبايا . شاور أحد المشرفين ودخلا سوية عبر باب أسفل الساعة الالكترونية الكبيرة المطفأة . وما إن ضجت القاعة بصخب بدء المزاد وظهور طابور السبايا السائرات بانكسار على الخط الأبيض ، حتى خرج مجدداً ومشى بمحاذاة الجدار صوب ممر باب الخروج وبعد دقائق لحق به مراد .

نجحت مفاوضات قصيرة أجراها الحاج بومة في شراء امرأة وابنة شقيقتها بمعزل عن المزاد ، مقابل ثلاثة آلاف دولار ، إضافةً إلى عشرين في المئة من قيمة المبلغ لدعم بيت المال ، ونظير إعلامه عن المزايدات التالية وضعها الموظف في جيبه وهو يتلفت قبل أن يعبر عن شكره :

«لم يكونا ليصلا إلى نصف هذا المبلغ في المزاد . بارك الله فيما تفعله من أجل دولتك الإسلامية» .

في الخارج كانت المرأتان منقبتين وتنوحان في الحوض الخلفي للسيارة التي انطلقت فور ركوب مراد متوجهةً إلى منزله .

بينما استقل الحاج بومة سيارة أجرة إلى المحكمة الشرعية لتسجيلهما باسمه حسب تعليمات الدولة والخطة الموضوعة .

استغاثت الخالة بطاووس ملك لحظة أن وقع بصرها على الحاج بومة داخلاً في المساء إلى الصالة بوجهٍ كأنه عائد من الموت لتوه . لطمت رجليها ثم رأسها وقالت باللغة الكردية مؤنبة الفتاة :

«كان عليك أن تتركي النار لتحرقني بدلاً من أن يأتي يوم يعتدي فيه على شرفي خنزير مثل هذا» .

كانت المرأتان متجاورتين على الأرض بين الأريكة الوحيدة والجدار يلفهما سواد النقاب ، قابلهما الحاج بومة بالجلوس على كرسي خشبي بلا مساند ويحدث زقزقة مع كل حركة . قال ويداه على ركبتيه :

«الخنزير بالكردية هو ذاته الموجود باللغة العربية» .

أما بالنسبة لباقي ما قلته وأكمل بلغة كردية سليمة :

«لن يعتدي أحد على شرفك وستعودان إلى أهلكما معززتين مكرمتين» .

دفعهما الذهول إلى الكشف عن وجهيهما في وقت واحد . سألهما مراد وكان واقفاً في المدخل :

«هل تتحدثان العربية» .

هزت الفتاةُ رأسها بسرعة ثم شفطت رشح أنفها ورسمت على وجهها ابتسامة فرح ، فيما اكتفت خالتها بإيماءة متأخرة .

فتابع الحاج بومة منتقلا إلى العربية :

«حاولوا أن تعطونا أرقام هواتف أو معلومات عن أقرباء لكم في دهوك أو أربيل أو أي مكان آخر وسنعمل على إخراجكما من هنا» .

دارت الخالة ببصرها بينهما وقالت غير مصدقة :

«أنتما لا تخدعاننا أليس كذلك» .

زقزق كرسي الحاج بومة وبادر مراد بالإجابة :

«ستمكثان في هذا البيت لوحدكما ، وسنؤمن لكما كل ما تحتاجان إليه لحين مغادرتكما ، ولن نسمح لأحد بإيذائكما مهما حصل» .

«هم أيضاً قالوا لنا الكلام ذاته وغدروا بنا» .

وضع الحاج بومة كفه على أذنه ومال برأسه ناحية اليمين وسألها بلهجة آمرة :

«أخبرينا بكل ما حصل» .

فتحدثت المرأة متعطشةً لأسماع تروي لها قصتها :

«عندما جاؤوا أول مرة إلى قريتنا كوجو في آب الأسود أظهرنا لهم السلام ، ورفعنا رايات بيض فوق أسطح منازلنا ، فطلبوا من رجالنا تسليم أسلحتهم من بنادق ومسدسات وذخيرة . جمعوها وأخذوها معهم ، واعتقدنا أن هذا كل شيء وأننا نجونا ، لكنهم عادوا بعد مرور أربعة أيام ليمهلونا ستة أيام لإعلان إسلامنا ، وإلا ستكون عقوبتنا موتاً بالرصاص ، وقبل انقضاء المدة بيوم واحد

بشرنا أمير يدعى أبو حمزة الخاتوني بصدور مكرمة من الخليفة أبو بكر البغدادي بعدم إجبارنا على التخلي عن ديننا» .

أغرقت عتمة مفاجئة الصالة بانقطاع الكهرباء ؛ فعالج مراد الموقف بإنارة فانوس التقطه بخفة وطرد به الظلام . أكملت الخالة :

«في اليوم التالي عرض وجهاء قريتنا على الأمير أن يعاملنا أسوة بالمسيحيين في مناطقهم التي غُزيت بترك ممتلكاتنا ، مقابل مغادرة القرية بثيابنا التي علينا ، فأعلن عن ترحيبه بالفكرة وطلب أن نذهب جميعاً إلى مدرسة القرية ، وهناك بقي رجالنا في الطابق الأرضي ونحن صعدنا إلى الطابق العلوي . ثم مرروا إلينا حقيبة سوداء كبيرة وضعنا فيها أشياءنا الثمينة من ذهب وفضة وحتى خواتم الزواج وساعات اليد ، وبعد أن أخذوا كل شيء وقف الأمير وسط ساحة المدرسة وقال يترجم له واحد من رجاله إلى اللغة الكردية ، بأنه سبق وأن نصحنا بترك ديننا الذي نعتنقه وندخل في الإسلام لكننا لم نفعل . وقال إنها فرصتنا الأخيرة للرضوخ ، فمن يفعل سيبقى في القرية ويحتفظ بممتلكاته ، ومن يرفض سينقل إلى الجبل» .

تاه صوتها لبرهة في نوبة بكاء ولحقت بها ابنة شقيقتها ثم رجعت لسرد مواجعها :

«أعلن مختار القرية أنه سيذهب إلى الجبل ، وأعطى للأهالي حرية البقاء أو المغادرة معه ، فقرر الجميع أتباعه .

عندها أمر أبو حمزة بنقل الرجال أولاً . أخذوهم على شكل وجبات وكنا نلوح لهم من فوق سعيدات بنجاتهم ، دون أن نعلم أنهم ذاهبون ليرقدوا في مقابر جماعية ، وأنها آخر مرة نراهم فيها . زوجي ، ابناي الاثنان ، إخوتي الخمسة» .

ثم أشارت إلى الفتاة بالنقاب الملفوف في يدها قبل أن تستسلما لنوبة بكاء جديدة :

«وهذه المسكينة ماتت أمها حزناً على أولادها الثلاثة وزوجها» .

تحرك خيال مراد على الجدار ثم استقر على الأريكة قريبا منهما . سأل باهتمام :

«كيف وصلتما إلى هنا؟» .

أجابت الفتاة :

«نقلونا مع الأطفال إلى تلعفر وأبقونا هناك في مدرسة لعدة أيام . وعدونا أنهم سيرسلوننا إلى جبل سنجار ، حيث ذهب معظم أهالي القرى والمجمعات ، وجلبوا ذات يوم حافلات ظننا أنها ستأخذنا إلى هناك ، لكنها بدلاً من ذلك توجهت بنا إلى بعاج ثم إلى الرقة ، وأجبرونا هناك على العمل كخادمات للجنود في معسكر خارج المدينة . وهددونا بالقتل إذا لم نصبح مسلمات» .

زقزق كرسي الحاج بومة مرة أخرى فسألت الخالة متحدثةً إلى مراد :

«هل هذا أبوك؟» .

فهمت الفتاة من الصمت والعيون المتطلعة أن عليها المواصلة :

«اعتدوا على الكثيرات منا» .

تبادلت مع خالتها نظرة سريعة ثم تابعت بألم :

«هم لا يعرفون غير استخدام العنف ويأخذون كل شيء بالقوة ، كل شيء» .

سد خيال الحاج بومة معظم مساحة الجدار خلفه عندما نهض وعينه على الفانوس :

«لن تعوضكما الكلمات عن خسارتيكما . وحريتكما أقل ما ستحصلان عليه . أعدكما بهذا» . سار مراد معه إلى الباب . مد خطوة وهو يمسك بالمقبض الحديدي البارد ثم أعادها والتفت إليهما وبيده الصورة :

«هل تعرفانها . إنها بائعة بصل اسمها فيروز؟» .

***

-٢٣-

أبقيت دماءها المتيبسة على ذراعي وثوبي . أردت أن يظل شيء منها ملتصقاً بي مثل وشم ، كما كانت هي في حياتها القصيرة التي كُنت فيها الأم والأب والحضن الدافئ . لماذا أخطأتني تلك الزجاجة وتجاوزني الموت ليقطف روحها البريئة . هل تعمد خودي أخذ الذين أحبهم واحداً بعد الآخر ، وتركي محطمة بعدهم . أي ذنوب ارتكبتها ليعاقبني عليها بتلك القسوة . أسئلة بلا إجابات كالعادة بقيت دائرة في فلكها ثلاثة أيام عزاء كاملة ، سمحوا لي بها مع كَلي التي كانت الصدمة قد أخرستها وأبقتها في شرود دائم .

حصد الموت أرواح خمسة أخريات ، فتاتان من اللواتي كسرن أذرعهن في سجن بادوش وثلاث أمهات ظل أطفالهن يفتشون عن روائحهن من غرفة إلى أخرى حتى آخر يوم لنا في ذلك القصر الملعون .

الموت وحزننا على من ذاقه ، والجراح التي أصيبت بها كثيرات نتيجة الانفجار ، لم يمنع الدواعش من الاستمرار في المتاجرة بنا ، فنحن بالنسبة إليهم مجرد غنائم ولا نختلف عن الخِراف والمركبات والأثاث والأموال التي يستولون عليها من

غـزواتهم للبلدات المسـالمة . وزعت علينا أم البـراء في اليـوم الخامس للفجيعة ثياباً بألوان زاهية وأحذية بنصف كعب وحُلياً مزيفة ، وسخرت مُساعِداتها لتركيبها علينا وتجميلنا بالمساحيق ونحن محبـوسات في الغـرف ، بينمـا كـان ثلاثة دواعش في الصالة وبأيديهم السياط ينتظرون إشارة منها لينفذوا العقوبة الشرعية .

كانت تلك المرة الأولى التي أتبرج فيها بكل حياتي . فقد كانت أمي تكره المرايا ، ووجهها آخر شيء فكرت في تجميله . لذلك لم أرث منها سوى مكحلة وزجاجة عطر بحجم إصبع قالت لي ذات مرة إنها بمثل سني ، أهداها إليها أبي في أحد أيام صحواته البعيدة .

أوقفوا كل واحدة منا وخلفها ستارة زرقاء واستعجلوا التقاط الصور لنا قبل أن تخرب دموعنا الأصباغ التي لطخوا بها وجوهنا . ثم أوقفونا على شكل دائرة في الصالة ، وألقت علينا امرأة متفحمة الوجه خطبةً لم يبق شيء منها في ذاكرتي ؛ لأنني بالكاد وقفت بسبب آلام جراح شظايا الزجاج في قدمي ، وكان بعضها مازال غائراً فيه . كما أن منظر كُولي ، المميزة باستدارة وجهها عن غيرها من الفتيات الواقفات لمراقبتنا على السلالم ، جعلني أتذكر كيف جاملتها أم البراء بخبث ذات مرة ، قارصةً خدها في أنها أصبحت برتقالة وستقطف قريبا لتؤكل . فشعرت بِذعر شديد وأنا أفكر بشكل حياتي لو

سلبت هي الأخرى مني . وفور إيذانهم لنا بالانصراف ، أخذت لفافة ضمادة طبية من صندوق الإسعافات الأولية ، بحجة مداواة الجراح في قدمي ، وسحبت كَلي من ذراعها إلى الحمام . قمت هناك بتجريدها من ثيابها كلها دون أن تبدي أية معارضة ، ولففت صدرها ضاغطة بالضمادة على نهديها النابتين حتى اختفيا بالكامل .

«ماذا تفعلين؟» سألتني وأنا ألبِسها ثانية . فقلت وأنا أمسك بكتفيها :

«لا أريدك أن تكبري أبداً يا كَلي هل فهمت . يجب أن تظلي صغيرة» .

سألت مجدداً وهي تبعد يدي :

«لماذا تقولين هذا؟» .

فأجبت مقاومةً دموعي :

«لأن عالم الأطفال آمن» .

«ألم تكن نعام طفلة؟» .

وضعت كفي على فمهما وأرخيت بيدي الأخرى جانباً من شعرها الطويل فغطى نصف وجهها . ثم وضعت جبهتي على جبهتها :

«أبقيه هكذا وتواري دائما عن أنظارهم لكي لا يكتشفوا جمالك . أنا الآن أعيش من أجلك فقط» .

لفت رقبتي بذراعيها وقالت بحزن :

«سمعت المرأة في الصالة تقول إن الرجال سيأخذونكم بعد أربعة أيام» .

«لن أذهب إلى أي مكان بدونك» .

***

دار همس في الغرف أن شابةً تدعى ليلى تخطط للهرب ظهيرة يوم الجمعة ، في الوقت الذي يكون فيه الدواعش منشغلين بالصلاة والخطبة ، وهي تفتش عن شريكة لها في مجازفتها بعد رفض قريباتها وتخلي صديقات لها عن وعود سابقة في مشاركتها ، خوفاً من الوقوع بأيدي الدواعش . سمعتها تقول والنساء محيطات بها كأنهن يودعنها إلى مثواها الأخير :

«قد لا تكون لدي فرصة كبيرة للنجاح . لكنني سأحاول لكي لا يقولوا إن الإيزيديات راضيات بمصيرهن» .

أيقظ كلامها شيرين في داخلي ، والتي أخذت تحثني بحماسة ما قبل أن يدكوا جمالها بعصيهم ، على أن أفعل شيئاً في الأقل ، من أجل كَلي ما دمت راضيةً أنا بقيدي . وعاتبتني لأنني لم أفكر في هذا من قبل ، وسلمت نعام لقدر أعمى لا يفرق بين ظالم أو مظلوم . ثم ذكرتني بالمال الذي أعطتني إياه الحاجة رقية ، وكنت أخبئه داخل جيب صغير أحدثته في ثيابي الداخلية عندما كنا في السجن . لا أدري لماذا أصرت

شيرين على أن تراني بغير صورتي الحقيقية ، وبقت على خطأها القديم معتقدةً أن بوسعي فعل شيءٍ يمكنه إحداث تغيير ما . لماذا لم تصدق أبداً بأنني مجرد بائعة بصل ، ولا أملك من القدرة سوى الجلوس وانتظار ما يجود به الطريق .

عانقتني ليلى مودعةً كما فعلت مع الجميع ، وطلبت مني أن أدعو خودي ليساعدها ويسهل لها طريق الهروب . شعرتُ بأنني أرتكب خيانة بتركها تذهب وحيدة وأراد شيء مني منعها ، إمساك ذراعيها وغلق الباب لحين انقضاء النهار ، لكن شيرين تدخلت وسألني صوتها محاججا إن كنت أقوى على تخليصها من مصير البيع في اليوم التالي . فقلت بصوت مسموع : «لا» .

نظرت إلي الفتاة مستغربة وهي تتراجع خطوة إلى الوراء ثم عاد صوت شيرين :

«إذن اتركيها تختار مصيرها» .

في الصباح قامت ليلى بواجبات تنظيف القصر اليومية ، وشاركت معنا في درس الطاعة ضمن مجموعتها ، واستمعت معنا ونحن نفترش أرضية الصالة إلى خطبة الجامع القريب المليئة بالصراخ ، ودعوات الموت والانتقام ، وعندما تكتفت أم البراء ومساعداتها لأداء الصلاة وفعلنا مثلهن وظهورنا للمخرج الذي حطم الانفجار بابه الزجاجي ، انسلت ليلي دون إحداث جلبة ، وبعد لحظات لمحت بطرف عيني عبر النافذة الواسعة شيئاً أسود يتحرك بين سيقان الأشجار البعيدة في نهاية

الحديقة ، قبل أن يتسلق الجدار ويختفي بمهارة قط .

لحِقتُ بأم البراء إلى عند السلالم ، بناءً على إشارة منها . تقلص خداها هناك وانبسطا عدة مرات قبل أن تقول لي وهي تنظر إلى ثوبي ويداها على خصرها :

«جعلت اسم أختك كَلي مع اسمك في القوائم بسبب سنها الصغيرة . هل فهمت أم أن دماغك لا يستوعب ما أقول» .

كان صعباً علي تتبع كلماتها السريعة والغامضة ، وقلقة من أن أثير غضبها فتتركني وتذهب دون أن تفسر لي ما قالته بشان كَلي . فقلت مذلولةً :

«دماغي لا يستوعب» .

رف خدها الأيسر ولم تفقد أعصابها كما توقعت ، بل شرحت بهدوء كمن يقنع طفلاً بشيء :

«ستُعرض كَلي معك للبيع يوم غد . مثل أن يبيع شخصٌ بقرةً مع عِجلها ، مائدة مع الكراسي ، سريراً مع الفراش . ويتوقف الأمر على من سيشتريكِ من الإخوة المجاهدين فقد لا يرغب بغير البقرة آو المائدة أو السرير» .

***

عند منتصف الليل كنت مُسندة ظهري إلى جدار الغرفة ، ورأس كَلي في حجري يشغل جزءاً من الفراغ الذي تركته نعام . سمعتُ ضجة في الخارج ، بعدها دُفع بابُ الغرفة بعنف

ليرتطم بالحائط ويعود لينصفِق قبل أن يطل منه رأس داعشي تأملنا طويلاً ، وبدا أنه نسي ما أتى لأجله فقد ظل على وقفته لبعض الوقت ، واضعاً قبضة يده على جبينه ، ثم أمرنا بصوت مبحوح بالخروج دون نقاب إلى الممر المطل على الصالة .

كانت ليلى تتلوى بين اثنين أمسكا ذراعيها في الأسفل ، والثالث حمل عصاً غليظة قال فور اكتمال وقوفنا :

«هروب السبية من سيدها يعني خروجاً عن طاعته وله الخيار في العقوبة التي يراها مناسبةً لتأديبها . أما هروبها من عهدة بيت المال فيعني تمردها على الدولة الإسلامية ، ولا مجال للرأفة عند إيقاع العقوبة بحقها» .

ألقى الداعشيان بليلى على الأرض أمام الثالث الذي ركلها ببسطاله في رأسها ، فتأوهت متدحرجة على البلاط وانكشفت ساقاها ، فعاد وأمسك بذيل ثوبها وجره ليعريها أمام أنظارنا ، لكنها أفللت وحاولت النهوض ، فانهال بالعصا على رقبتها فخرت على الأرض ، وأحدث ارتطام رأسها صوتاً أثار فزعنا وفي الوقت عينه أسعد الدواعش بنصرهم المتحقق على الفتاة وضجت الصالة بأصوات ضحكاتهم .

***

أوقفونا صباح يوم السبت في الممر الأعلى بعد أن أكملوا تزييننا ، وعلقوا في رقابنا قلادات تحمل أرقامنا . وقفت أم البراء

على أول دركة منتظرة إيعازا من الداعشي الأصلع ذي اللحية المكنسة لكي ترسلنا إليه في الأسفل ، فيقوم بعرضنا على المزايدين وكلهم قادة . سمعت النساء أمامي وخلفي يلحون بالدعاء ، مستنجدات بخودي والصالحين لإنقاذ شرفهن ، كأن أحدهم سيلقي لهن بالاً ويرمي عليهن حبلاً من السماء أو يشق أرض الصالة فتبتلع من فيها . كن يحاولن تجاهل حقيقة أننا نسير أخيراً إلى مصير سبقتنا إليه كثيرات غيرنا من الإيزيديات ، اللواتي صلين وصُمن وتضرعن مثلهن إلى كل ما هو مقدس دون أن يفلح أيٌ من ذلك في تغيير قدرهن المحتوم . لم يقتنعن حتى ونحن نساق كالمواشي ، أن المعجزة الوحيدة التي تحققت لنا هي إبقاؤنا على قيد الحياة أطول فترة ذل ممكنة لا غير .

صاح الأصلع :

«سبايا» .

فأسرعت أم البراء نحونا واقتادت أول ثلاث بحسب أرقامهن . مشين وعيونهن المليئة بالدموع معلقة بسقف أصم . تذكرت يوماً خرجنا فيه أنا وأمي لنتابع عُرساً فقيراً زُفت فيه العروس جارتنا ، مصحوبة بزغاريد أمها وأخواتها نحو سيارة نقلٍ زُينت بالورود والبالونات الملونة .

لمحت في وجهها دموعاً وحزناً منافياً لطقوس الفرح القائمة فسألتُ أمي ويدي الصغيرة في يدها :

«لم تبكي الفتاة في يوم عرسها؟» .

فأجابت :

«إنها دموع الفرح» .

وفي يوم آخر بعد أن أفرغ أبي غضبه في جسدها وهرعتُ إليها من مخبأي خلف البرميل ، سألتها وأنا أمسح بيديّ دموعها :

«لماذا تبكين يا أمي؟»

فردت بالإجابة نفسها :

«هذه دموع فرح» .

بعد كل تلك السنوات ، أدركت أنها كانت تحاول تجنيبي تعلم مسميات الألم والجراح التي يعاني منها الكبار . أرادتني ، كما تمنيت بدوري لكَلي ، أن أظل محبوسة في عالمي الطفولي ، ولا أنمو لأغادره أبداً إلى عالم قائم بطبعه على الظلم .

سمعنا الأصلع يعلن :

«رقم واحد ، اسمها دلفين ، عمرها خمسٌ وثلاثون ، ممتلئة ، وَلادة ، معها طفل ذكر . جمالها فيما يمكن أن تقدمه من خدمة وطاعة مضمونة . نبدأ على بركة الله بثلاثمئة دولار» .

سألتني كُلي قبيل بزوخ فجر يوم مصيبتنا الجديدة وكان نصف جسمها في حجري ، تداعب خصلات من شعري كما أدمنت المسكينة نعام :

«لماذا رجال المسلمين فقط يريدون أخذكم وليس نساءهم» .

التفتُ بلا وعي إلى جهتي اليمنى لتنجدني عمتي من ورطة الإجابة ، فلم أجد سوى فراغاً عميقاً تركته وواقع خسارات لم يكن بوسعي تحمله ، فأجهشت بالبكاء خلافاً لجميع العهود التي قطعتها على نفسي بالثبات والصبر لكي لا تنعكس نتائج انهياري على كَلي وأتسبب بفقدانها . مسحت بكفها على وجهي وقالت محاولة التخفيف عني بكلمات حفظتها من عمتي :

«لا تبكي يا فيروز سينجدنا طاووس ملك ولن يفرقنا إلا الموت» .

ضممتها بقوة إلى صدري وقلت منهية نوبة بكائي :

«هذه دموع الفرح لأنك باقية معي» .

علا الصوت القبيح :

«رقم اثنان ، اسمها لمياء ، عمرها سبع عشرة سنة ، بِكر ، سمراء شعرها طويل . دقيقة الجسم لكن رشيقة الحركة وتجيد الطبخ والتطريز ، نبدأ بألفِ دولار . . . .» .

سقطت رقم أربعة مغشياً عليها بين أقدامنا . منعتنا أم البراء من إنهاضها بتوجيه كفها نحونا ، ودنت من رأسها وخداها يتراقصان لتتأكد إن كانت المرأة تدعي أم أنها غائبة عن الوعي بالفعل . قالت لنا من مكانها دون أن تنظر إلينا :

«ستحل رقم سبعة محلها في الوجبة المقبلة . هذه الغبية

ستجعلنا نضيع الوقت في تعديل القائمة بالأسفل» .

صاح الأصلع : «رقم ثلاثة . . . . . .» .

المصائب التي شهدتها سابقاً كانت تأتي لتحفر جراحها العميقة في روحي بغتةً دون مقدمات أو إشارات تمنحني وقتاً كي أتهيأ لها ، حتى وإن لم أكن قادرة على منع وقوعها . بخلاف تلك المصيبة التي كنت أنتظر دوري فيها ، فقد كنت أمتلك خيار إيقافها بموافقة شيرين على فكرتها المتردد صداها في رأسي ، بأن ألقي بجسمي من فوق صارخةً في الدواعش : «أهذا ما تريدونه . هيا خذوه» .

نادى ذو اللحية المكنسة :

«سبايا» .

سحبت أم البراء اثنتين ودفعتني خلفهما . ترددتُ . كان ثمة أمل صغير استنفد بنظرة خاطفة وأخيرة للسقف . هددتني أم البراء :

«فكري بأختك» .

سمعت أصوات صفيرهم ، ضحكاتهم . ولمحت أقدامهم بعد أن تلقيت دفعةً في ظهري وسرت بتعثر إلى السجادة الدائرية وسط الصالة . قال الأصلع وبيده ورقة :

«رقم ستة ، أسمها فيروز ، عمرها عشرون سنة ، بكر ، عسلية العينين ، تمرية الشعر ، حسنة القوام ، ماهرة في الطبخ . نفتتح والأمر كله لله بألفٍ ومئتي دولار . .» .

-٢٤-

لم يكد يمضي أسبوع واحد على شرائهما حتى وجد الحاج بومة طريقة لإخراج الفتاة وخالتها إلى خارج حدود الدولة الإسلامية ، عبر طريق تهريب بري مؤدٍ إلى محافظة الأنبار ، ومن هناك إلى العاصمة بغداد . وبعد أن التقط مراد صورتيهما بخلفية بيضاء حصل لهما على هويتي أحوال مدنية باسمين جديدين زُورتا بدفعة مالية سخية انتفخ بها جيب موظف سابق أخفى عن عناصر الدولة الإسلامية الأختام الرسمية التي في حوزته . وفجر الآخر من شباط أوصلهما سائقه يرافقه مراد إلى طريق صحراوي غير معبد جنوب الموصل ، حيث كانت تنتظرهما سيارة أجرة يعلوها الغبار ، وفيها سائق بدوي اسمه أضحوي ، احتاجتا إلى نصف ساعة حتى حفظتا اسمه ، وجملا قصيرة لقنهما بها لتردا على أي استفسار من نقاط تفتيش تابعة للدولة الإسلامية قد تظهر على طول الطريق .

تابع مراد خطواتهما الفرحة نحو سيارة الأجرة ، بعد أن عبرتا بالبكاء ودعوات امتزجت فيها كلمات كردية بالعربية عن شكرهما . فلوح لهما بتأثر لتمكنه أخيراً من تسديد أولى كفارات ذنب تركه لفيروز تؤخذ سبية . وقبل أن يحول الغبار

بين السيارتين ركضت إليه الفتاة عائدة وخالتها في إثرها تصيح :

«إلى أين أيتها المخبولة» .

رفعت النقاب عن وجهها وقالت ناظرة بإشفاق إلى عينيه المليئتين بالدموع :

«سأرد لك الدين وأجدها» .

ابتسم حين سمعها تقول وهي تبتعد :

«سأخبرها بكل شيء تفعله لأجلها ، هذا وعد» .

بعدها بيومين تلقى مراد رسالة عبر البريد الإلكتروني من رقم مجهول ذُكرت فيها عبارة كان قد خطها للفتاة وخالتها في قصاصة ورق :

«الطائر وصل العش» .

في ذلك الوقت كان الحاج بومة قد أغرى مهاجراً ألمانيا قابله في تلعفر ببيع سبيته الموهوبة بألف دولار . أنجزت خلال ساعاتٍ بطاقتها الشخصية وسلمت دون تسجيل في المحكمة الشرعية إلى أضحوي الذي انطلق بها سعيداً بازدهار عمله .

وخلال جولة تقصٍّ يومية عن الوفيات صادفهم مجلس عزاءِ مقاتل محلي شاب في حي عشوائي أحدثه التنظيم على أراض مصادرة في الجانب الأيمن للموصل . ومع انشغال مراد بتدوين المعلومات المطلوبة مباشرة في سجل آذار ٢٠١٥ ، كان الحاج بومة ينهي صفقة شراء سبية المتوفى من والده ، الذي

أراد الإسراع بتصفية تركة ابنه الفقيد من أجل تبيض سيرته الأرضية فتنعم روحه بالسكينة في السماء .

بحلول شهر نيسان كان أضحوي قد أوصل بنجاح ثماني سبايا محررات إلى مشارف بغداد ، لم يُسجل منهن سوى ثلاث فقط في سجلات السبايا لدى المحكمة الشرعية . عد الحاج بومة ذلك إنجازاً إنسانياً نادراً تحقق في حياته الموشكة على الانتهاء ، وعبرة تقترب من المعجزة ، بجعل مراد الطبيب البيطري العربي المسلم يقع في حب أيزيدية تبيع البصل في الطرقات لغاية ربانية أفضت إلى إنقاذ شرف أخريات وحيواتهن من ميتات محققة .

***

في نهار غابت عنه ملامح الربيع ، أفرغت عاصفة ترابية حجبت الرؤية شوارع المدينة من المارة ، وأوقفت مبكراً عملهما ، فالتزما غرفة المقبرة يناقشان مجريات خطتهما وما لديهما من خيارات للوصول إلى سبايا جدد ، استنادا إلى ما في حوزتهما من مال . سمعا طرقاً خفيفاً على الباب الخارجي ، فاعتقدا أنه متطوع جاء ليكمل حسنات يومه بتسليم بيانات وفاة جديدة ، لكنهما فوجئا برجل في عقده الخامس ومعه امرأة يلفها السواد . شرح لهما بلكنة مصرية وهو ينفض الغبار عن لحيته وشعر رأسه كيف أن أضحوي أعطاه عنوان المنزل ، وأخبره أن فيه شيخاً يقضي حوائج الناس . نظر الحاج بومة إليه ملياً ثم

خرج صوته دون أن تتحرك شفتاه :

«لا شك بأنك قد أضعت العنوان بسبب الغبار . هذا ليس بيت المال . أغلق الباب وراءهما يا . . . .» فأكمل الرجل : «مراد» .

واقترب منه ماداً يده التي بقيت معلقة في الهواء :

«أريدك أن تشتري سبيتي ، إنها مجرد صبية لا يغرك طولها» .

وأشار لها فكشفت عن وجهها الطفولي ، وارتمت على قدمي الحاج بومة مستنجدة بكرمه ليعتق رقبتها .

قص حكايته وهو جالس إلى جوار مراد فوق صندوق الخشب ، وأمامه الفتاة على الأرض والحاج بومه متسمرٌ في مقعده . حلف برؤوس أبنائه الذين تركهم مع أمهم في بلاده ، برعاية الله والمحسنين ، أنه تعرض للخديعة من أشخاص أوهموه بأشياء لم يجدها عندما جاء للجهاد في العراق والشام ضد الكفار والمشركين ، وأن كل الذين نُحروا بالسيوف أو أعدموا بالرصاص كانوا مسلمين يشهدون أن لا اله إلا الله . قتلوا فقط لترويع الناس ليس أكثر . وعندما أعلن عن وجهة نظره منعوه من القتال ومرافقة الجند ، وأدخل في دورة شرعية خرج منها عنصراً في الحسبة يلاحق في شوارع الرقة المدخنين وحليقي اللحى وغير المنقبات ، والساهين عن الصلوات ، فقرر العودة وتركيز جهاده في رعاية أسرته ، غير أنهم اتهموه بالردة

وأرسلوه إلى سجن بادوش على مشارف الموصل ، وكان سيُعدم مع مهاجرين آخرين لولا قرار رأفة صدر من الخليفة لم يشمل الأنصار معه في السجن ، فدُقت أعناقهم جميعاً وألقيت جثثهم في حفرة عميقة تسمى الخسفة ، أو كما يطلقون عليها مقبرة المرتدين .

نظر الحاج بومة إلى الفتاة ففهم الرجل بأنه أغفل جانب القصة الأساسي ، فلفت إلى أن بقاءه حياً تطلب الامتثال للتعليمات والاقتياد بما يفعله الأمراء ، ولهذا طلب مستغلاً مكرمة الخليفة بإطلاق سراحه سبية يثبت من خِلالها رغبته في البقاء داخل حدود دولة الخلافة وعدم مغادرتها حتى يُنسى أمره .

«وهكذا حصلت على خاني هبةً من بيت مال المسلمين»

قال المصري وأكمل رافعاً يده اليمنى :

«كان ذراعها مكسوراً فاعتنيت بها بدلا من أن تعتني بي . اسألها إنها أمامك» .

قال له الحاج بومة معنفاً :

«والآن تريد بيعها» .

فرد بمكر :

«عتق رقبتها . والمال صدقة منك أنفِقه على سفري راجعاً إلى أهلي» .

تطلع الرجل إلى أعمدة السجلات وعلق مازحاً :

«أنتما تُعتقان رقاباً كثيرة كما قال أضحوي . هذا يعني ذنوبا كثيرة» .

فضحك لوحده قبل أن يضع الحاج بومة خمسمئة دولار في يديه عدها ووضعها في جيبه بعجل . عند الباب سأل الحاج بومة مجدداً :

«ما كل تلك السجلات» .

فأجابه مغلظاً صوته :

«أدون فيها أسماء الموجودين في الخسفة» .

اكتسب مراد خبرة تلقي خيبة الأمل بجرعاتٍ وليس دفعة واحدة ؛ لهذا لم يسال الفتاة عن أي شيء ، بل تركها وفعل مثله الحاج بومة ، تفرش مواجعها وتنتقي ما تشاء لتحكي عنه . بكت طويلاً قبل أن تتمكن من القول بعربية متعثرة :

«الكلب فعل معي ذلك الشيء . كان يضربني كل يوم ليجبرني . وجلب في أحد الأيام أصدقاء له يتحدثون لغات أجنبية لا أتذكر عددهم . . .» .

أسكتها الحاج بومة . قام من مكانه ويده اليمنى على أذنه . أجلسها محله وانساب صوته ممزوجاً بألم وحنان :

«لن يجرؤ أحد على مسك يا ابنتي . أنت حرة الآن وسيدة نفسك» .

استعد مراد لنقلها إلى منزله بعد أن تكمل طعامها والعودة لمناقشة الخطوة المقبلة مع الحاج بومة ، الذي توارى في غرفة

نومه العلوية . سمع خاني تتحدث من تلقاء نفسها عن الطريقة التي قتلوا بها أبويها أمام عينيها وسط سنجار ، وكيف أسروها وسجنوها مع كثيرات غيرها في مدرسة بطابقين في تلعفر ، أخذ منها مقاتلون فتياتٍ ونساء ، ونقلت هي مع الباقيات إلى سجن بادوش لخدمة السجناء والجرحى والجنود .

بلعت خاني لقمة كبيرة وبذلت جهداً في انتقاء الكلمات العربية التي تحفظها :

«أعلمونا بأن الرجال سيأخذوننا ، فتعاونا أنا وخمس فتيات كانوا معي في الزنزانة على تكسير أذرعنا برجل سرير حديدي ، فهددونا بالقتل لأننا أصبحنا غير نافعات للبيع أو الخدمة . ثم عفوا عنا عندما صرنا مسلمات ، وبعد أيام أعطوني للمصري ذي الرائحة النتنة ولم أسمع شيئاً بعدها عن الأخريات» .

بصقت ناحية الباب وجفلت عندما رأت الحاج بومة واقفاً عنده . سألها مراد بيأس :

«هل تذكرين أسماء جميع اللواتي التقيتهم من الإيزيديات بعد أسركِ؟» .

ردت على الفور :

«نعم أحفظ الأسماء والأشكال والأصوات» .

وضعت لقمة أخرى في فمها . فسألها وهو يجلس على ركبتيه بين السجلات وصندوق الخشب :

«هل قابلت فتاةً كانت تعمل بائعةً للبصل اسمها فيروز» .

لاكت بهدوء لقمتها ثم توقفت متذكرةً :

«عمتها نديمة وأختاها كَولي ونعام أليس كذلك؟» .

حرك رأسه وبالكاد نطق :

«لا أعرف» .

فقالت :

«أنا أعرف . شعرها تمري طويل وعيونها عسلية واسعة . طيبة القلب وخدومة كانت تعمل في مطعم السجن عندما غادرته أنا» .

***

اشتراني قائدٌ في الشرطة الإسلامية اسمه أبو دُجانة . نقلني ومعي كَلي من سجن القصر البغيض إلى آخر في بيته ، مع تعذيب مستمر مارسته بحقنا زوجته الغيورة ذات الأصابع الطويلة . قالت بعصبية وهي تستقبلنا عند الباب :

«ليست واحدة فقط بل اثنتان!» .

نزعت النقاب عني وتفحصت وجهي دون أن يكترث زوجها . سحب كم ثوبه وذهب ليتوضأ فلحقت به تصيح :

«كلمني . لِم أتيت بهاتين الإيزيديتين الشيطانتين(*) إلى بيتي . ألم نتفق بأنك لن تشتري سبايا؟» .

سمعناه يقول قبل أن يغلق باب الحمام بعنف :

- «أردتِ خادمةً فجلبت لك اثنتين» .

أدخلتنا غرفةً صغيرة في الطابق الأعلى مزدحمة بالحقائب والدواليب . أشارت بقبضة يدها إلى زاوية بين النافذة والجدار وقالت بغضب شديد :

(*) يُتهم الإيزيدية من قبل الجماعات الإسلامية المتشددة بأنهم عبدة للشيطان .

«ستخمدان هناك بلا حراك ، ولن تخرجا إلا بعد أن تسمعا صوتي ينادي على واحدة منكما» . دفعتني بقوة من كتفي ثم حركت إصبعيها على شكل مقص وجهته نحو شعري قائلةً :

«سأقصه وألقي به في التنور إذا لمحتك تجوبين منزلي بلا حجاب» .

ابتعدت بضع خطوات لكنها عادت لتلقي تعليماتها :

«بدءاً من الغد ستستيقظين فجراً قبل أن تفتح الجوامع أبوابها . تعجنين وتخبزين وتُعدين الإفطار ثم توقظيني . بعدها تلمعين الأرضيات وتدعكين الثياب بالطشت في الحمام ، ثم تطبخين طعام الغداء وتعودين إلى جحرك هذا ، ولا تغادرينه الا لغسل الأطباق ثم إعداد العشاء . عليك أن تُريني باستمرار ما تضعينه في الأكل ، وإياكِ أن تدخلي غرفة نوم سيدك إلا بحضوري وبأمر مني فقط . هل هذا واضح؟» .

تحرك رأسي مجيباً من تلقاء نفسه فصرخت بوجهي :

«قولي نعم لأسيادك أيتها القحبة» .

وصفعتني بقوة ثم خرجت وأغلقت علينا الباب بالمفتاح .

تكورت كَلي في حجري مذعورة ، رَددَت أدعية منتهية المفعول حَفظَتها في السجون التي تنقلنا فيها . أما أنا فقد كنت مثل جثةٍ بغير حس فلا حزن ، لا دموع ولا ألم . أنتظر فقط مرور المصيبة الجديدة بكل ثقلها ؛ لأن هنالك حتماً واحدة

أخرى في طريقها إلينا ، وعلي أن أدخر لها شيئاً مما بقي لدي من قوة لأحتفظ بكلي .

***

لأيام عديدة كانت المرأة واسمها الحاجة حليمة أول من يستيقظ في المنزل . أفتح باب الغرفة فأجدها أمامي مباشرة تتعوذ من الشيطان . تتبعني حين أنزل إلى القبو لإحضار الدقيق ، وتندق مثل وتد تراقبني في حديقة البيت الخلفية ، وأنا أخرجُ أقراص الخبز الساخنة من جوف التنور ، وتظل دائرة حولي في المطبخ والحمام ، وحين آخذ الطعام إلى شقيقتي المحبوسة في الغرفة . تفعل ذلك طوال ساعات النهار مفتشةً عن أي خطأ ، مهما كان صغيراً ، لتشتمني وتضربني بنعلها المطاطي الأحمر ، وإن لم تجد سبباً لإثبات قوتها توجه لي أسئلة مُحرجة لأي امرأة :

«كم واحد لمسك منذ شهر آب العام الماضي؟» .

- «هل تأتيك الدورة الشهرية أم أنها مقطوعة؟» .

- «هل تفكرين بما يريده الرجال؟» .

أجبت عن بعض الأسئلة كأنها واجبات مفروضة على العبد تجاه سيده ، وسكتُ عن أخرى لأنني لم أعرف بماذا أجيب ، فوجدت في صمتي ذريعتها ، ولاسيما في أوقات المساء التي يكون زوجها متواجدا فيها بالبيت ، فتبدأ بالصراخ

وتضربني بكل ما يقع بين يديها ، مستهدفةً وجهي في الغالب ، وبعد أن يهدُها التعب ويحول أبو دجانة بيني وبينها ، تقول له بأنفاس متقطعة :

«أنا أو هذه الساقطة الإيزيدية في هذا البيت» .

***

أبو دجانة وزوجته كانا يتشاجران باستمرار في الليل ، وكنا نستمع أنا وكَلي إلى صوتيهما بوضوح ونحن ملصقتان أذنينا بالباب . عرفنا أنه أتى بها إلى الموصل من مدينة الحضر لكي يتغير طالعها ويتخلص بدنها من مرض داء القط ، الذي يمنع اكتمال الأجنة في بطنها ، وتطرحهم حملاً بعد آخر . ولأنها لا تشفى يريد الآن أن يتزوج بأخرى تنجب له طفلاً يحمل اسمه . لليلة واحدة فقط تواجد فيها زوجها في المنزل لم نسمع فيها صياحهما ، وكان اليوم التالي هو الأول والأخير لي في ذلك المنزل ، الذي رأيت فيه طويلة الأصابع منشغلة عني بشؤونها الخاصة تمشط شعرها أمام المرآة ، تضع أحمر الشفاه وتخفف من سمرة وجهها بالمساحيق ، أو تغني مع نفسها وهي تغسل في طشت الحمام ثياب زوجها الداخلية ، التي كان ممنوعاً عليّ لمسها .

عادت في اليوم التالي إلى طبيعتها العدوانية . تصرفت وكأن بيننا ثأر قديم ، فمنعتني من الأكل وإدخال الطعام إلى

كَلي ، ورفضت السماح لها بالذهاب لقضاء حاجتها ، وإضافة إلى كل ما أفعله يومياً سخرتني لرفع صناديق فيها أشياء ثقيلة من القبو والصعود بها إلى الأعلى ، ثم إرجاعها إلى تحت وتنظيف حديقتها الشبيهة بالمزبلة ، ومسح المراوح السقفية والمصابيح من الأتربة ، وزوايا السقوف من بيوت العناكب .

أمرتني عصراً أن أجلب إناءً فيه ماءٌ وملح لأغسل قدميها في غرفة الجلوس . كانت تريدني أن أرفض لتعاقبني مع أنها لم تكن تحتاج إلى سبب . خمنت في سري وأنا أدلك قدمها أن لطول أصابعها علاقة بعدم تمكنها من الإنجاب ، وليس للقطط المسكينة دخل في ذلك . كانت طويلة ومتيبسة مثل أغصان ميتة ، وتثير في النفس رغبةً في تقليمها ، تكسيرها . بدت صورتها الشريرة أكثر وضوحا ، وأنا أشاهد من الأسفل فتحتي أنفها الواسعتين المظلمتين ، واللحم المتهدل تحت ذقنها وشفتها السفلى المتورمة كأن عقرباً لدغتها . ذكرت وكأنها تروي لنفسها قصة بأن الإيزيديين يعبدون طاووس ملك الذي هو الشيطان ، وأننا عندما دخلنا بيتها هربت الملائكة واختفت منه البركة ، وأصبحت تشاهد الكوابيس في نومها . فركت هي قدميها واحدة بالأخرى ومالت برأسها نحوي :

«لديكم ليلة تسمونها سوداء تجتمعون فيها نساءً ورجالاً ، أقرباء مع غرباء ، فتطفئون المصابيح وتفعلون الفاحشة حتى ينبلج الصباح» .

همت شيرين بالرد لكنني منعتها وبقيت مستمرة في عملي . فعادت لتسألني والشر يقطر من لسانها :

«لا شك أنك فعلت ذلك مرات كثيرة» .

لم أجب بشيء . لففت قدميها بالمنشفة الزرقاء(*) التي أكدت عليها مراراً . أفرغت الإناء وغسلته جيداً في الحمام ، بعدها وجدتني أقف وسط غرفة الجلوس وأسألها مصطنعة البراءة :

«هنالك الكثير من الفئران في قبوك . آذانها كبيرة وأذنابها طويلة . تحتاجين إلى قطتين في الأقل للتخلص منها!» .

في وقت متأخر من تلك الليلة نشب شجار عنيف بين الزوجين . كان أطول من المعتاد ، وسمعنا خلاله أصوات تحطم أشياء وتكسير زجاج . وقبل انتصاف نهار اليوم التالي دخل أبو دجانة غرفتنا يصيح :

«ارتديا ثياب الخروج الشرعية . ستذهبان إلى مكان آخر» .

(*) اللون الأزرق كان محرماً في الديانة الإيزيدية .

-٢٦-

شق أبو تراب الحجازي عضو الهيئة الشرعية طريقهُ إلى المنبر، عبر حشدٍ من أنصار دولة الخلافة ازدحمت بهم أرضية قاعة المصلى في جامع الموصل الكبير، منتظرين بيان رأي رسمي لحسم جدال احتدم طوال أشهر بين المهاجرين والأنصار، بشأن جواز تملك السبايا والتصرف بهن بيعاً وشراءً، عجزت عن إنهائه مطوية (في السبي والرقاب)، التي صدرت بإيعاز من الخليفة ذاته. تأمل الصفوف برهة قبل أن يسحب من جيب دشداشته السوداء قطعة سواكٍ بطول قلم رصاص دار بها بين أسنان فكيه، ثم تمتم بأشياء حاولت عبثاً الوجوه تحته في الصف الأول، فك شفرتها الصوتية.

نقل مكبر الصوت كلمته الأولى ورددت جدران القاعة المرمرية صداها:

«السبيُ».

توجهت الرؤوس المصطفة جميعها نحوه فقال:

«السبيُ لغة هو الأسر، ويأتي ها هنا خاصاً بالنساء والذرية، وهو ثابت في كتاب الله؛ إذ قال عزّ من قال ﴿والذين هُم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾.

وفي السُنة المباركة قال أبو سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق ، فأصبنا سبايا وهذا متفق عليه أيها الإخوة» .

مسد لحيته بعد أن استجابت له الرؤوس بهزات شبه موحدة ومضى يقول :

«ليس في الاستمتاع بالمسبيةِ اغتصاب أو انتهاك للحقوق الإنسانية ، حاشانا الله من معصيته ، كما يروجُ عنا أعداءُ الله خارج حدود دولتنا ، بل هو تشريف لها ورفع لقدرها . فالواحِدة منهن إن دخلت في ملك أحدكم بحكم السبي ، تنضم إلى أهله للإقامة معهم فإن منعنا المالك من وطئها ففي هذا فتنة له ، كونها أجنبية تتحرك أمامه تحت السقف ذاته للقيام بشؤون البيت وخدمة من فيه ، والنفس أمارة بالسوء كما تعلمون يا إخوة» .

ابتسم كاشفاً عن خراب أسنانه بعدما كرر الجملة الأخيرة وأكمل :

«وهذا فتنة للسبية كذلك ، فهي قطعاً لديها حاجات جنسية وشهوةٌ تفوق التي تعتري الرجل في الغالب ، لِذا اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن يبيحها لسيدها فيحصل الإعفاف لكل منهما بدلا من الوقوع في الحرام لا سمح الله» .

ند عن مكبر الصوت صفير تقلصت بسببه الملامح ثم غاب ليعود صوت أبي تراب :

«وليس في هذا معاملة كريمة فقط للمرأة المسبية ، وإنما يفتح لها باب العتق بإذنه تعالى ؛ لأنها إذا حملت من سيدها ثم أنجبت له تصبح أم ولد ، والشرع الكريم يمنحها حق الخروج من الرق الكامل خروجًا جزئيًا بمجرد وضع المولود» .

دخل في تلك الأثناء الحاج بومة وفي إثره مراد ، وجلسا في آخر صف سمح به المكان . رفع عضو الهيئة الشرعية ذراعه اليمنى فانزاح كم ثوبه الواسع عن ساعة يده المطلية بالذهب . قال مذكراً :

«السبيُ قديم حتى قبل أن يبعث الله دين الحق الإسلام . كان موجوداً في مختلف أصقاع الأرض ، وفيه ظلم وإجحاف بحق المرأة . فقد كانت السبية مباحة العرض والكرامة لكل من أراد وطئها ، وكان سيدها يجبرها على العمل في البغاء ليأخذ هو أجر ذلك تكسباً ، وبموته كانت تنتقل ملكيتها للوارث ليغدو سيدها وله ما كان لمورثه وطئاً وما سواه . وراجت قبل الإسلام تجارة السبايا حتى أصبحت المرأة سلعة من السلع تُباع وتُشترى ، فجاء الإسلام ووضع ضوابط لهذا الانفلات الأخلاقي ، ورسم حدوداً وجعل شرط تحققه الوحيد نشوب حرب بين المسلمين وكفار محاربين ، وحظر قتل النساء كما الرجال ، إلا إذا شاركت في قتال أو تجسس ؛ ولذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : «لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا امرأة» .

علا الصفير بحدةٍ فوضع مراد كفيه على أذنيه ، بينما كان الحاج بومة يُصغي باهتمام إلى ما تقوله كتلة السواد المتحركة في البعيد :

«السبي تعويض للنقص الذي يحدث في المجتمع الإسلامي ، جراء استشهاد المجاهدين . هذه هي الحكمة منه . ومن جهة أخرى فإن كثيراً من رجال الكفار يقتلون في الحرب ؛ فتظل نساءهم وأطفالهم بلا معيل ، فجاء الإسلام ليقسمهم كغنائم بين الفاتحين ، وأوجب عليهم إطعامهم وكسوتهم وإسكانهم مقابل معاشرة المسبية بعد استبرائها من الحمل» .

شرب أبو تراب الماء على ثلاثة دفعات من إناء معدني قريب ثم قال مختتماً :

«مِن هنا أيها الأخوة أقول بأن التصرف بالسبايا مباح في دولتنا الإسلامية أدامها الله ، وفقاً لما حدده الشرع ، فمارِسوا بلا خوف ما أُحِل لكم ، واجتنبوا ما نُهي عنه أثابنا وإياكم الله» .

كسر الحاج بومة حاجز حلقة متملقين أحاطوا بأبي تراب فور هبوطه من المنبر ، وقال له دون مقدمات :

«ألا يفترض بالحرب أن تكون بين جهتين جهزتا لها عدتها؟» .

كان قد فات الأوان ليمنعه مراد مما وجدها حماقة ، فانسل من خلفه مندساً بين جمهور فضولي أخذ بالتشكل . انشغل

أبو تراب أولاً بإحصاء المخالفات الشرعية التي كان الحاج بومة واقعاً فيها من الناحية الشكلية ، قبل أن يسأل بنبرة متعالية :

«ما هي خلفيتك أولاً لأعرف بما أجيبك؟» .

«ومتى كان رأي الفقيه بحسب خلفية سائله؟» .

«وكيف لي أن أعرف مقصد طاعن متشبه بالكافرين ومتغافل عن سنة سيد المرسلين مثلك» .

«الله ينظرُ إلى قلوبِ الناس وليس إلى ربطات أعناقهم ولحاهم» .

وجد أبو تراب أن المجادلة لن تكون في صالحه ، فتقمص دور المتفهم ومد يده بطريقة استعراضية ليضعها على كتف الحاج بومة لكنه دفعها . قال والغضب يتملكه :

«سبي الإيزيديات تم بعد غزوة غادرةٍ لمناطقهنِ التي كُن آمنات فيها ولم يكن نتاج حرب» .

«الإيزيديون أهل شرك رفضوا الإسلام فوجب قتالهم» .

«الكفر ليس موجباً وحده للقتال ، إذا لم يجتمع مع شيء آخر كالحرب . والإيزيدية مسالمون ولطالما كانوا كذلك ، فهل أنتم أكثر علماً وتفقهاً وأحرص على تطبيق الشرع الإسلامي من عشرات الآلاف من العلماء والمشايخ ، وأكثر من مئة خليفة للمسلمين تعاقبوا على حكم دويلات إسلامية نشأت طوال القرون المنصرمة وكان الأيزيدية رعايا في أغلبها . لم يفعلوا ما فعلتموه في ساعات سلطة وجدتم أنفسكم فيها» .

تجمد مراد مذهولاً من جرأة مديره الذي خرج عن حياده بنحو جنوني ، فيما توجه عدد من الجمهور الحاضر بهدوء صوب الباب منسحبين . أخرج أبو تراب قطعة السواك وأشار بها إلى رأس الحاج بومة وأنزلها حتى جوربيه :

«عليك أن تفهم جيداً يا هذا . فشرع الله في الكافر إما الإسلام أو الجزية أو القتال ، وهؤلاء فيهم من رفض الإسلام أو دفع الجزية ، فكانت الثالثة قتلاً وسُبيت بأثره نسائهم» .

«ليس جميع سكان هذا الكوكب مسلمون وأهل كتاب . ففيهم من لا يؤمنون بالله ولا دينيون ووثنيون وعبدة أبقارٍ وفُروج ، فهل هذا يمنح عذراً لمحاربتهم وسبي نسائهم لمجرد أنهم كفار حتى وإن لم يكونوا أهل حرب» .

«لا طائل من إفهامك . من أنت وماذا تريد؟» .

«أريد أن تقر بأن سبي الإيزيديات خطأ جسيم ومخالفة صريحة للقرآن والسنة ومعاشرتهن زنا» .

«لست فقط متشبهاً بهم بل ومؤمناً بأفكارهم كذلك . . .» . قاطعه الحاج بومة مذكراً :

«حديث صحيح منقول عن النبي يقول بأن من ضمن خصومه يوم القيامة رَجُلٌ بَاعَ حُرًا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ . فما بالك بمن انتهك الأعراض» .

كان الجمهور قد اختفى عندما سأله أبو تراب منفعلاً :

«من أنت أيها الخرفٍ؟» .

اقترب منه الحاج بومة ونظر في عينيه بتحدٍ، مستغلاً فارق الطول لصالحه بمقدار شبرين :

«قل لقاضي المحكمة الشرعية الذي ستشكوني إليه بأن الحاج بومة صاحب سجل الوفيات المُعين من والي نينوى كان هذا رأيه في سبي الإيزيديات!» .

سلمنا أبو دجانة إلى رجل أجنبي ضخم يدعى أبو القعقاع ، في جبينه الأيسر أثر ندبة عميقة ، وشعره الأشقر نازل حد كتفيه . سمعته يسأل بعربية فصحى :

- «التي بالصورة نفسها؟» .

فرد عليه :

- «وبنصف السعر مع أختها هدية مني لك» .

كان لأبي القعقاع زوجة وطفلة بمثل سن المرحومة نعام ، وسبيةٌ أخرى من مجمعات جنوبي غرب جبل سنجار في الثلاثين من عمرها تُدعى فريال . استقبلتنا بالدموع والأحضان ، فخف عني حمل المصيبة الجديدة أو توهمت هذا لبعض الوقت .

أخذتنا أم القعقاع إلى غُرفة في طابق المنزل الثاني ، فتحت حقيبة سوداء مليئة بالثياب ، وطلبت أن ننتقي منها ما يناسبنا . كانت امرأة في غاية الجمال ، بدت مع شعرها الأصفر المتماوج ووجهها الأبيض كالثلج ، وعيونها الخضر الواسعة مرسومة وليست حقيقية . باسمة على الدوام ولا تكف عن ذكر الله ، عاملتنا في يومنا الأول بلطف وطيبة لم أعهدهما من

شخص آخر في أسري غير الحاجة رقية . اطمئنت بحرص شديد على سلامتي كفتاة ، وتوجهت بالشكر إلى الله على حمايته لي . عرفتنا على ابنتها كلثوم وأرتنا باقي أجزاء منزلها النظيف ، باستثناء حجرة صغيرة مغلقة الباب وعليه صورة ميزان ذو كفتين ، كالذي كنت أستخدمه في وزن البصل . الحجرة الملاصقة لها كانت لنومنا مع فريال خصص لنا فيها سريران متجاوران بغطاءين ووسادتين نظيفتين مطرزتين ، شككت بأننا سنستخدمهما لأن ظهرينا كانا قد اعتادا على صلابة الأرض وقسوتها .

صلينا نحن النساء صلاة الظهر سوية في صالة الضيوف ، ثم كلفتني أم القعقاع بلطف بمساعدة فريال في أعمال البيت ، وباقي حديثها تعلق بأمور الدين ، ولا أدري لم ذكرتني بحُذام عندما دعتنا إلى طاعة سيدنا أبي القعقاع ؛ لأنه ولي أمرٍ وطاعته من طاعةِ الله ، واستشهدت بنفسها كونها لا ترفض لزوجها طلباً حتى وإن خالف طبيعتها كأنثى تريد الاستقلال برجل دون شريكات ، وأشارت إلينا كدليل على ذلك . حاولت أن أتجنب فهم ما قالته لكن فريال التي بدت موجوعة لم تحتمل . سألتها باكيةً :

«كيف تقبلين وأنت زوجته أن يفعل معي ذلك» .

فأجابت ووجنتاها مكتسيتان بحمرة :

«قلت لك مراراً وأقوله مجدداً أمام أختنا فيروز . هذا حقه

الشرعي بموجب القرآن الكريم والسنة المطهرة ولن أمنعه عنه . طاعتي لله أحب إلي من نفسي» .

***

قالت فريال ونحن نتبادل ليلاً في عتمة الحجرة أحزاننا هامستين كي لا نوقظ كلُي :

«حاولت الهرب فعذبني بالفَلقة بمساعدة الأفعى زوجته التي تدعي حب الله ، وسأحاول مجددا متى وجدت فُرصةً مناسبة» .

عادت لتذكرني بعد صمت :

«سيمكث معها الليلة ويأخذ إحدانا في الغد إلى غرفة نومه الأخرى» .

انتفضت شيرين في داخلي ولم يسعني منعها :

«لن يمس شعرة مني حتى لو كان الثمن حياتي» .

«سيؤذيكِ إنه وحش وليس بشراً . زوجته تقول بأنه لا ينام مطمئنا الا إذا عاد من المعارك التي يذهب إليها وقد قتل شخصاً ما وهي فخورة بذلك» .

«ليفعل ما يشاء لكنه لن ينال شرفي» .

وذكرتُ لها جُملة عمتي المفضلة :

«الشرف مثل زُجاجة . قد يهشمها أي شيء لكن لا شيء يصلحها أبداً»

انتبهت إلى أن كَلي رددتها معي . بحثت عن وجهها في الظلام ، فجاء صوتها يسأل :

«ماذا تعني كلمة فلقة؟» .

لم أذق طعم النوم . فكرت في أشياء كثيرة كلها دارت حول أختي ، ولا شيء عني سوى أنني ربما لن أحتمل فقدان ما يريده الداعشي أخذه مني ، فألجأ إلى الطريق الذي مضت فيه شيرين .

«ماذا لو هربنا؟» .

جفلت من صوت فريال . كانت ما تزال مستيقظةً وتفتش مثلي عن حلٍ في جوف العتمة .

«هل يمكننا ذلك؟» .

«هوّ يأتي إلى المنزل يومين فقط ويغيب عشرة أيام . سننجح إذا تعاونا» .

تحسست بيدي الجيب السري الذي فيه المئتا دولار . تجاهلت خوفي من بنادق الدواعش وصورة ليلى وهي جثة هامدةً ، فكرت فقط ببقعة الضوء التي لاحت . كانت بعيدة وصغيرة لكن الوصول إليها استحق المحاولة .

***

في الصباح طلبت مني أم القعقاع مرافقتها إلى الحمام . أعطتني هناك كيساً بلاستيكياً أحمر اللون ، وجدت فيه مشطاً وملقطاً وموس حلاقة وفرشاة أسنان وصابون غار وعلبة عطر وأحمر شفاه ، وقالت لي بأن ثيابي الداخلية معلقة خلفي ،

وذكرتني بأن منشفتي خضراء فاتحة ، والأخرى الزهرية لفريال ، وأن الفانوس وعلبة الثقاب فوق غسالة الملابس الكهربائية يمكنني إشعاله إذا انطفأت الكهرباء ؛ لأن الحمام بلا نافذة ويصبح معتماً . قلت لها وأنا ممسكةٌ بالكيس بكلتا يديّ :

«ماذا أفعل بهذه الأشياء؟» .

فأجابت وهي تقرص ذقني بوداعة :

«تهيئين بها نفسك لسيدك ، إنه ينتظرك في الغرفة الثانية وللأسف ليس فيها حمام كغرفتي» .

شعرت بثقل في رأسي وشيء لسع ببرودته جسدي كله . قالت أشياء أخرى قبل أن تغادر ، كنت أرى فمها يتحرك لكنني لا أسمعها . جلست على كرسي الحمام الحجري ونظرت إلى الباب الموصد . سمعت صوت شيرين في رأسي يقول :

«هذا الباب فاصل بينك وبين الحكم بالإعدام ، وكَلي ستظل وحيدة مهما فعلت» .

ثم رددت : «شرف الإيزيدية مثل الزجاج» .

تحول الصوت إلى صدى وتذكرت عمتي تدق زجاج الفانوس بظُفر سُبابتها حين كانت تقول لي ذلك . التفت خلفي فوجدت الفانوس حيث قالت أم القعقاع . هرعتُ إليه كأنه بندقية خلاص ، نزعت سداد خزانه المعدني وأخذت علبة الثقاب ثم خرجت إلى صالة البيت ، وسكبت النفط على

رأسي فسال على وجهي وثوبي . كُنت أنا هذه المرة وليست شيرين ، ألقيت بالفانوس صارخةً بأعلى صوتي ، وأخرجت ويديّ ترتجفان عود ثقاب وضعته على طرف العلبة متهيئة لإشعاله . سمعت بُكاء كَلي وصراخها وأم القعقاع تطلب مني أن أستغفر الله ، بينما وقف زوجها أمامي بلا حراك يتأملني . قال بخبرة قاتل متمرس :

- «أنتظر رؤية اللهب لكي أقذف بك في الحمام ويكتمل احتراقك هناك فلا تحدثين أضراراً بأثاث منزلي» .

أفلتت كَلي من بين يدي فريال وركضت نحوي ، وما إن وجهت لها بصري حتى انقض عليّ ، أخذ الثقاب بيد ولوى ذراعي باليد الأخرى ، وجرني إلى الحجرة التي على بابها صورة الميزان . دفعني إلى الداخل فتداركت سقوطي والتفت إليه ، فوجدته يلتقط سوطاً وأصفاداً من الجدار ويقول :

«ألم يُعلمك الإخوة في الإرشاد أن قتل النفس حرام ، والخروج عن أمر سيدك من الكبائر» .

طرحني على الأرض دون أن تفضي مقاومتي إزاء قوته الهائلة عن شيء . كبل يديّ ثم قدميّ وأم القعقاع واقفةٌ بيدها إبريق ماء تسبح بحمد الله . رفع رجلي وثبتهما مائلتين بحبل على قاعدة حديدية ، فانزاح ثوبي كاشفاً عن ما دون ركبتي . دفعته بيدي المكبلتين إلى أقصى حد أمكنني الوصول إليه وأطبقت عليه بفخذي . سكبت أم القعقاع الماء على قدمي مرددة :

- «بسم الله الرحمن الرحيم» .

شاهدت ملامحه المشدود وهو يرفع السوط وينهال به على أسفل قدمي . صعقني الألم وانقبض له جسمي كله ، ثم أرتخى وسقط ثوبي على بطني وأم القعقاع تحثه قائلةً :

«الله أكبر» .

***

مثل حلم أتذكرُ وجه كَلي الحبيبة مكتسياً بالدموع ، وهي تتوسل بشيخ آدي وطاووس ملك أن لا أتركها . كُنت عاجزة عن الكلام ، والألم مثل سكاكين تنهش أسفل قدميّ ويدق وجعهما في دماغي . «ابلعي هذه وستكونين بخير» ، قالت أم القعقاع وكان هذا آخر ما سمعته وغبت عن الوعي .

وجدت نفسي مستلقيةً على السرير حين أفقت ، وفريال جالسة على سريرها المقابل لافةً ذراعيها حول ركبتيها تنظر الي عابسة . رفعت رأسي قليلاً وسألتها : «أين كَلي؟» .

لم ترُد ، سحبت من تحت الوسادة الضمادة التي لففت صدر كَلي بها في القصر ورفعتها تريني إياها . حاولت الوقوف على قدمي فشعرت بالوجع يُحرقني كأنني هبطت على الجمر . سقطت على الأرض . عاودت النهوض مستندة إلى السرير ، وتحركت خطوتين إلى الباب لكن الألم طرحني مجدداً ، فمشيت على يدي وركبتي حتى وصلت الصالة وأنا أصرخ

باسم كلي . كانت أم القعقاع جالسة وأمامها القرآن . قالت وهي تقلب صفحة :

«لقد أخذها منذ يوم أمس» .

«ماذا تعنين منذ يوم أمس . كم بقيتُ نائمة . إلى أين أخذها» .

«لا أعرف» .

«كيف لا تعرفين؟» .

«قلت لك لا أعرف إنها ملكه ويستطيع أن يفعل بها ما يشاء» .

لم تستطع خاني العثور في ذاكرتها على أسماء أقرباء أحياء أو عناوين يمكن التواصل مع أصحابها لترتيب خطة إخراجها . فاقترح مراد المنتشي بنصر تعرفها على فيروز في الصورة ، إبقاءها في منزله لحين شراء أخرى ترافقها إلى الخارج . أحاط رأسه بكفيه وقال لمديره الذي كان النعاس يغالبه :

«لا أصدق أن هذا يحدث . فيروز على قيد الحياة» .

لاح رأسُ خاني من خلف الصندوق الخشبي وقالت :

«هي في الحقيقة أجمل من الصورة بكثير» .

في صباح اليوم التالي ، وقبل ساعة من موعد بدء العمل اليومي ، توجها مباشرة إلى سجن بادوش . كان الحاج بومة والسائق مستمتعين بحيوية مُراد الذي أبدل مكانه المعتاد وجلس في الأمام ، وطغى التفاؤل على أحاديثه . فلم يعتبر ما تداولته الأخبار بشان تدمير داعش مدينتي النمرود والحضر التاريخيتين بكارثة جديدة حلت على رؤوس أهالي نينوى ، وإنما حافزاً جديداً لإعادة البناء والتقدم ، وردد بأسلوب المذيعين :

- «الإنسان هو الأهم . الجدران يمكن إعادة تشييدها في أي وقت» .

ضحك السائق لنبرة الصوت المفاجئة ، فقال له مراد باسطاً كفيه أمامه :

«أعطنا دواءنا يا أبا عجلة!» .

حفزت الموسيقى الحاج بومة لإجراء اختبارٍ قلبي فسأله :

- «ماذا لو عثرت عليها هذه المرة؟» .

فكر مراد بإجابة تناسب حجم ما يعتريه من مشاعر ، فقال مغمضاً عينيه :

«سأصالح نفسي عندها وأسامحها . وأحررها كما تفعل أنت مع الطيور» .

قبل أن تنحرف السيارة إلى اليمين في طريق يوازي جدار السجن العالي ، نبه السائق إلى أن هنالك سيارةً سوداء اللون لا تحمل لوحة أرقام تسير خلفهم منذ خروجهم من الموصل . فرد عليه الحاج بومة ممازحا :

«ربما لديه حالة وفاة مستعجلة يريد تسجيلها!» .

***

لم يعتبرها مُراد خيبةً كاملة عودتهم من سجن بادوش دون معلومة تؤكد المكان الذي نقلت اليه السبايا الخادمات ، قبل أن يحولوا المكان إلى ثكنة عسكرية منذ أسابيع .

«في الأقل كانت هنا بين هذه الجدران» خفف مُراد عن نفسه متمتماً وإصبعه على زجاج النافذة يشير إلى جدار

السجن المتوج بالأسلاك الشائكة . ثم قال بنبرة احتفالية :

«رأيتها أول مرة في شهر نيسان قبل سنتين ، وها أنا أوشك على العثور عليها في الشهر ذاته . أشعر بأنني قريب من ذلك حقاً ، وقد أجد في الغد شيئاً ما في سجلات المحكمة الشرعية» .

تناول الحاج بومة سجل شهر نيسان الملقى على المقعد بجواره . ارتدى نظارته الطبية وأخرج قلماً من جيب سترته ثم أخذ يكتب في صفحة فارغة طواها فور انتهائه ، ودفع بالسجل لمراد مخاطباً إياه بنبرة رسمية :

«ستجد فيه ورقة مطوية لا تفتحها حتى يأتي أوانها ، ولا تدخل هذا السجل إلى حجرة المقبرة . احتفظ به في منزلك» .

أمال طنين الأذن رأسه إلى اليمين . قال بعد ان تخطى هيجان الصوت :

«سنذهب لتلتقط صورة خاني ونحصل لها اليوم على بطاقة شخصية . يجب أن تكون في سيارة أضحوي في صباح الغد الباكر ، أعطه ما يريد مقابل تسليمها إلى أول نقطة تفتيش عراقية يصادفها خارج حدود الخلافة» .

قال السائق بقلق وعيناه في المرآة :

«ما زالت السيارة ذاتها سائرةً خلفنا» .

***

في اليوم التالي أنجز مراد مهمة تسليم خاني ، وعاد قبل أن تُمد أشعة الشمس خيوطها في شوارع الموصل الفارغة إلا من سيارات الحسبة المتهورة ، والراجعين إلى منازلهم بعد شحنة صلاة الفجر الإيمانية . وما إن دخل هاتفه الجوال نطاق الأنترنيت في منزله حتى انهالت عليه الرسائل عبر فايبر ، وكلها من ضياء يقول فيها جملة واحدة فقط :

«تعال إلى أم نهود فوراً أبوك يحتضر» .

بعد ساعات من ذهابه ، وبينما كان الحاج بومة منشغلاً بإعادة ترتيب رفوف كتب الدين في مكتبته ، سمع طرقاً على الباب ، فظنه مراداً قد عاد بعد أن اطمأن على والده ويريد تبديد أرقه بسهرة حوار . انتظر قليلاً لكنه لم يسمع وقع خطاه كما هو معتاد بعد أن يفتح الباب بنسخة المفتاح التي لديه . طُرق الباب مرة ثانية وثالثة بقوة ودون توقف ، حتى اقتحمهُ مسلحون ملثمون يحملون على جنوبهم مسدسات وأصفاداً وقنابل يدوية . انتشروا في المنزل مسددين فوهات بنادقهم نحو فراغاته . صفدوا يدي الحاج بومة من الخلف ووضعوا عصابة على عينيه ، ودفعوه أمامهم دون أن يكلموه ، وقبل أن تبتلعهم المركبات السود أصدر هاتف لاسلكي معلق إلى صدر أحدهم صوتاً يسأل :

«ماهو الموقف لديك يا صياد» .

فرد عليه مقرباً الهاتف إلى فمه :

«البومة في القفص» .

-٢٩-

احتكرت مزنة الحزن عن قرب على الشيخ حامد لنفسها فقط ، مانعةً ضرتيها وأولادهما من تخطي عتبة منزلها ودخول الغرفة التي كان يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة ، تداركاً لأي معجزة تجعله يستعيد واحدة من حواسه المطفأة ، ويدلي بها شيئاً يصب في مصلحتهم . وكادت تصيب رأس مُراد بضربة عصا دفاعية بعد أن منعه النشيج من الرد على تحذيراتها ، وفتح الباب الذي كانت متحصنةً خلفه .

أفرغ مراد نوبة بكائه الأولى إلى جوار أبيه ، ولمناسبة وصوله سمحت مزنة بإزاحة مقدارها ربع ستارة عن النافذة يلقي من خلف زجاجها الآخرون في الحديقة نظرة وداع على الشيخ . وراحت تنشد ملوحةً بعصاها أبيات قصيدة مرتجلة مجدت فيها زوجها ، الذي قاوم الموت لأشهر طويلة ، وبشرت بعصر وجاهة جديد على يد الفارس الهمام مراد لأنه إبن بطنها .

استعانت بمجسات أمومتها وأمسكت باللحظة المناسبة التي يكون فيها مراد مصغياً ، فحذرته من مؤامرة تحاك خلف جدران منزلي ضرتيها لتنصيب عبود وجيهاً على أم نهود . ثم

بصقت على الوجوه التي تجمعت خلف النافذة قائلةً :

«هذا بتدبير حرامي الثيران وضاح» .

«أي ثيران؟» سألها مُراد مستفهما وهو يمسح دموعه .

فقالت مشيرةً إليه بعصاها كانها رأته للتو :

«وجهك مريع بهذه اللحية» .

عندها تحرك رأس الشيخ حامد من جهة اليسار ، حيث كانت جالسة على ركبتيها ، ومال إلى جهة مراد فاعتبرت ذلك وصية واجبة التنفيذ برغبته في أن يخلفه مُراد في ماله ووجاهته ، وهرعت إلى النافذة تُوسع إلى النصف مقدار فتحة الستارة لتضاعف بذلك أعداد الشهود ، وفي طريق عودتها صدرت عن الشيخ حامد حشرجة ردت عليها بلطمةٍ على صدرها ، ثم أطلقت صرخة إعلان الموت المدوية .

***

في وقت كان فيه أبناء الشيخ حامد وأحفاده يحفرون قبره على الرابية المطلة على القرية ، كان عبود أبو رواحة ووضاح أبو حفص يشرفان على الحفريات ، في آخر ما تبقى من تلال جنوبي الجبل الأثرية ، أملاً في استظهار آثار جديدة ، فيما كانت سيارات الموكب السوداء تلف التل المتآكل مثل أفعى .

كان أبو رواحة ما زال منتشياً بأصداء ظهوره في نشرات الأخبار العالمية وهو يقطع بمنشار كهربائي رأس ثور مجنح في

مدينة النمرود الأثرية قبل تفجيرها ، وأهم تلك الأصداء قاطبةً إشادة شفهية نقلها إليه والي نينوى عن الخليفة نفسه ، فأخذها متنقلاً بها بين الأمراء في بلدات دولة الخلافة وقراها ، مضيفاً إليها عباراتٍ وجمل متعلقة بقصص زمالته القديمة للخليفة في سجن بوكا أحنت له رؤوس مستمعيها ، وأبرزهم أهالي قرى شرقي الجبل السبع ، التي أراد ولأسباب شخصية الوجاهة عليها من موقع أدنى .

قال وضاح أبو حفص وهو يهرش لحيته :

«قطعة صغيرة أخرى وتصبح الأمور غاية في الروعة بإذنه تعالى» .

تنحنح عمه قبل أن يجيب :

«القطع الكبيرة ليست ثقيلة الحجم فحسب بل ثقيلة في البيع والتصريف أيضاً سبحان الله . أما الصغيرة المكتملة فمباركة وتجلب الرزق الوفير» .

تلعثم وهو يكمل :

«إلى بيت المال طبعاً» .

تلفت وهو يجر ابن أخيه إلى خارج نطاق سمع العمال المنهمكين في الحفر :

«لن نستلم بعد الآن أية أموال نقداً هنا . بل سوف تُرسل إلى حسابي في بريطانيا وحصتك معها . الضرورات تبيح المحظورات كما تعرف» .

«وماذا أفعل بالأوثان والآواني غير المباعة إنها كثيرة» .

«علينا تركيز اهتماماً أولاً بالخُمس ، ونرضي الله عنا ورسوله والمؤمنين ، ولا بأس إن بعنا بين الحين والآخر قطعة أو اثنتين مما أعطانا الله بفضله» .

«كما تأمر شيخنا» .

صاح أحد العمال وبيده مجرفة صغيرة :

«إنه رأس ثور» .

***

مساء يوم العزاء الثالث ، وبعد انتهاء أبو رواحة من توديع آخر المعزين ، التفت إلى مراد يعلمه غامزاً بعينه اليسرى :

«صاحِبك معتقل في ديوان الأمن العام» .

استبعد مراد أن يكون ضياء هو المقصود ؛ لأنه كان معه قبل دقائق ، فظنها شخصية عامة وقعت في قبضة داعش ، لكن أبو رواحة جلس على الكرسي الملاصق وأضاف مزيداً من الغموض :

«إنسَ أمره وواصل حياتك» .

«لا أفهم من تقصد؟» .

أمال إليه نصف جسمه وقال في أذنه :

«الحاج بومة» .

أوقفته الصدمة على قدميه ، ثم عاد ليجلس والعرق يتصبب منه . طمانه عمه متباهياً :

«لا تخف على نفسك مطلقاً فصفحتك بيضاء مثل القطن . لقد نظفتها لك جيدا»

ثم فرك سبابته بباطن إبهامه أمام وجهه وأضاف :

«الدم لا يستحيل ماءً وعمك يحمل همك كما يقول المثل» .

«ماذا سيحدث له؟» سأله مراد بقلق .

«لقد أهان الدولة الإسلامية أدام ظلها الوارف ، وارتكب جرائم أخرى لا حصر لها» .

«هو لم يفعل شيئا ، لا بد من وجود خطأ ما» .

أمسك أبو رواحة بساعده وقال منفلتاً من طوق هدوئه :

«تهريب السبايا وحده جريمة في دولتنا وتُدق لها بالسيف أي عنق مهما كانت طويلة ، فما بالك بالتهجم على دولة الإسلام في بيت الله وأمام داع إليه؟» .

أثقل تأنيب الضمير كاهل مُراد ، أراد فعل أي شيء لإنقاذ مديره الذي خرج عن حياده ، وجازف بنفسه بسبب بحثه عن فيروز ، فأخذ يعدد بإسهاب صفاته وأعمال الخير الكثيرة التي يقوم بها ، لكن عمه المنشغل ذهنه بقطف الوجاهة أصر على أن حبل الإنقاذ الذي مده كان لشخص واحد فقط «أرجوك ساعده» قال مراد مستغيثاً .

رد عليه أبو رواحة منهيا الحوار :

«رُفِعتِ الأقلامُ وجفت الصحف» .

تركوا الحاج بومة لأسبوعين حبيس عتمة غرفة صغيرة بلا نافذة . قضى في دلو صغير حاجته ، وأكل ما أبقاه متماسكاً فقط ، ولم يسمح له ولا بدقيقةِ ضوء واحدة ، بناءً على أوامر مشددة من القاضي الشرعي ، الذي رفض مثوله أمامه والنظر في قضاياه إلا بعد نمو شيء من لحيته .

بعد انقضاء المهلة ، أخرجه ملثمون ، أحاطوه ببنادقهم وتوجهوا به إلى مجلس القضاء المنعقد . أوقفوه ويداه مكبلتان إلى الخلف أمام مكتب القاضي ، وكان شاباً في عقده الثالث ، أمسك أنفه وقال بعد أن ألقى نظرة خاطفة عليه :

«لا عجب في أن الناس تتطير منك» .

قرأ في حزمة أوراق أمامه :

«استناداً إلى أمرٍ من الشيخ المجاهد ، العالم العامل العابد ، الإمام الهُمام المجدد ، سليل بيت النبوة ، عبد الله : إبراهيم بن عواد بن إبراهيم بن علي بن محمد ، البدري القرشي الهاشمي الحسيني أبو بكرٍ البغدادي ، خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، وبإرشاد من الهيئة الشرعية ومجلس الاستئناس والشورى للدولة الإسلامية في العراق والشام ، تم التحقيق في أمر المدعو

خليل إبراهيم المعروف بالحاج بومة ، فوجدناه متهماً وبظروف مشددة في جرائم اقترفها دارت عقوباتها بين حد وتعزير ، كالمبينة في الأحكام الآتية مع تهمها ، على أن تنفذ أعلاها عملاً بالكتاب والسنة» .

«هذا ليس مكانكم . الموصل لن تكون أبداً جزءاً من دولتكم الكارهة للحياة» .

قال الحاج بومة ، فرد عليه القاضي بغضب متجنباً النظر إليه :

«الزم الصمت يابومة فليس مثلك من يتحدث عن الحياة» .

ثم أشار برأسه إلى كاتب الضبط وتلا :

«الحُكم الأول . التهمة : ارتداء زيٍ مخالفٍ للشرع كالبِذلِ وربطات العنق مما يرتديه الكفار . العقوبة هي حلق شعر الرأس بالكامل وثلاثين جلدةً مع دفع غرامة مالية مقدارها (٢٥٠) ألف دينار . تمزيق الملابس وتوجيه إنذار نهائي إليه وإلزامه بكتابة تعهد بعدم ارتداء هذا الزي مرة أخرى .

الحُكم الثاني . التهمة : حلق اللحية . عقوبتها مئة جلدة وغرامة مالية مقدرها (٥٠) ألف دينار .

الحُكم الثالث . التهمة : الامتناع عن دخول المسجد عمداً ودون عذر شرعي بعد سماعه رفع الأذان . العقوبة هي خمسون جلدة ، سجن لأسبوع واحد . إدخاله دورة تأديبية لتلقي

الأحكام الشرعية مع غرامة مالية مقدارها خمسة وعشرون ألف دينار .

الحكم الرابع . التهمة : حيازة كتب شركية ومعتقدات يهودية ونصرانية وغيرها مما يلهي عن ذكر الله . العقوبة هي إحراق المكتبة وخمسون جلدة مع غرامة مالية مقدارها (٢٥٠) وخمسون ألف دينار .

الحكم الخامس . التهمة : الاستماع للموسيقى والأغاني في السيارة والمنزل . العقوبة هي تحطيم جهاز التسجيل في كلا المكانين السيارة والمنزل وخمس عشر جلدة ، تسجيل معلومات الشخص في سجل المخالفين للأحكام الشرعية ، ومراجعة ديوان الحسبة مرة كل خمسة عشر يوماً ، دخول دورة تأديبية على الأحكام الشرعية .

الحكم السادس . التهمة : التشكيك بقيام خلافة للدولة الإسلامية في العراق والشام . العقوبة : مئة وخمسون جلدة مغلظة ، وغرامة مالية مقدارها (٢٥٠) ألف دينار ، وكتابة تعهد خطي بعدم تكرار الأمر نفسه ، دورة تأديبية على الأحكام الشرعية .

الحكم السابع . التهمة : القيام بأعمال مخالفة لوظيفته التي هي صاحب سجلات الوفيات . العقوبة : عزله وقطع أي صلة بينه وبين دواوين الدولة ، ومصادرة السجلات التي ضبطت في منزله .

الحكم الثامن . التهمة : استخدام سيارة الوظيفة المملوكة للدولة الإسلامية لأغراض معادية لها بنقل وتهريب السبايا مما يعد سرقة ، والعقوبة هي قطعُ اليد اليمنى .

الحكم التاسع . إعادة السبايا المسلمات إلى الكفر والضلال بعتقهن وإرسالهن بطرق التهريب إلى خارج دولة الخلافة . العقوبةُ هي الموت ضربةً بالسيف» .

نظر القاضي في ساعة يده وطلب كأجراء روتيني أن يدلي الحاج بومة بشيء قبل انصرافه . فسمعه يقول :

«أصدرت أحكامك دون أن تقرأ تهمتي الرئيسية» . ارتبك صوت القاضي :

«قرأت المحكمة تسع تُهم بحقك . لست في موضع لتجادل أيها المجرم . هيا أوجز» .

رد بثبات :

«لا تستعجل سأمنحك تُهمةً حقيقيةً بدلا من أن تجور بالتي سقتها . أنتم تحاولون نشر إسلام رفضه المسلمون قبل غيرهم ؛ لأنه يتنافى مع عقيدتهم القائمة على البناء والسلام والتعارف والمحبة بين الشعوب . فقُتلوا على أيديكم وهُجروا وألقوا في غياهب السجون ، وسُلبت أموالهم وممتلكاتهم ودُمرت مدنهم التي عمروها وآباؤهم طوال قرون ، وجُرفت شواهد تاريخهم السحيق ، وأحرقت مكتباتهم وحُرم أبناؤهم من التعليم ، والتمسك مستقبلاً بدين قدمتموه لهم بصورة ممسوخة» .

نفخ القاضي في الهواء بقوة وقال لكاتب الضبط :

«أكتب يا هذا . حَكما أيضاً بإنزال القصاص على المجرم خليل إبراهيم المعروف بالحاج بومة في ساحة باب الطوب أمام مرأى الناس ومسمعهم ، فيكون عبرة لكل من في قلبه مرض» .

«أمر واحد آخر» قال الحاج بومة وهو يحرك قدمه اليمنى يميناً ويساراً على الأرض :

«أكثر شيء يزعجني هو أنني لن أكون هناك لكي أدون أسماءكم في سجلاتي وأنتم جثث تفحمت ، وسُحلت على الطرقات وعُلقت بأعمدة النور» .

صاح القاضي منتفضاً من مكانه :

«أخرجوا هذا الزنديق من هنا» .

***

-٣١-

نقلت لي فريال حرفياً رسالة أبو القعقاع حين أخذ كَولي بأنه سيعيدها إذا دخلتُ بإرادتي إلى غرفته ، كونه يخاف الله ولن يأخذ مني شيئاً بالغصب ، وعلي التفكير بقراري خلال أيام غيابه العشر .

لم أصدق بأنها في مكان آخر لستُ فيه ، فتشتُ عنها أرجاء المنزل ماشيةً على أطرافي الأربعة . صعدتُ السلالم دخلت الغُرف ، فتحت الدواليب ، وكلما عدتُ لأستلقي في الحجرة تخيلتها مكممة ومربوطة في مكان ضيق ، فأنهض للبحث مجدداً وفي نفسي شك ، فلربما أغفلت مكاناً بحجم جسدها الصغير لم أفتش فيه .

كانت أم القعقاع تكتفي بمراقبتي وأنا أتنقل في بيتها منادية على كَلي ، وكانت تفتح لي أبواب الغرف والحجرات والدواليب المغلقة ، وتأتي بين الحين والآخر ترافقها ابنتها لتفقدي ، وحاولت في مرةٍ دهن قدمي بمرهم فسحبتهما كالملسوعة ، وأشارت بعبوته البيضاء إلى فريال ووضعته على طرف سريري ، ثم دعت لي بالشفاء وغادرت .

الألم في قدميّ كان ينبض ، يدق فيهما كأنه مطرقة .

لكن وجع فراق حبيبتيّ نَعام وكَلي لم يكن ليشبهه وجع ، وهو الذي كان يمنع عني الطعام والنوم والكلام ، وفتح نزيف دموعي ليل نهار .

لم أكن أهتم وهما معي بعدد الأيام والأسابيع . كانت تمر دون اكتراث مني ؛ لأنها لم تعنِ لي شيئاً ما دام خودي أغلق باب مصيبته علينا وألقى بالمفتاح بعيداً . لكن حين خطفت كَلي صرت أعد الدقائق والساعات لكي تمر مصيبةُ ضياعها الثقيلة كالجبل ، ويعود ذو الندبة فألقي بنفسي على قدميه أقبلهما متوسلة أن يعيدها لي .

انتبهت إلى أنني لم أسال فريال قط عن شيء يخُصها ، مع أنها ظاهرياً لاتختلف عني بشيء سوى في سبقي إلى تلك الغرفة . لكن قشور البصل لا تدل دائما على ما في جوفها ، فلم أكد أطلق في سكون الليل رغبتي في معرفة شيءٍ عنها حتى اندفق سيل آلام ، وأطلت مصيبةٌ برأسها جعلتها هينة لبعض الوقت مصيبتي . خنقتها العبرة وهي تروي كيف تقاسم الدواعش أوقات اغتصابها بعد يومين من أسرها ، مع شقيقتيها اللتين أهديتا لداعشي من مدينة بعاج . تتذكر أشكالهم المقززة ، روائحهم المقرفة ، والعرق اللزج الذي كان ينز منهم على جسدها البكر ، وهم يتبادلون الاستلقاء فوقه في أوكارهم ، وعندما ملت منها شهوتهم باعوها لآخرين ارتكبوا الفظاعة نفسها ، ثم أعطوها لغيرهم ، فتنقلت على مدى شهرين من وكر إلى وكر قبل أن

يستقر بها الأسر عند أبو القعقاع ذي الندبة ، فظنت مثلي في يومها الأول أن زوجتةً من صنف الملائكة ، فتحت لها أذنيها وبيتها ونظفت لها رحمها في المستشفى مما علق فيه من نجاسة . وما إن ظنت فريال بأنها عودةٌ للحياة حتى أخذتها أم القعقاع بنفسها إلى غرفة نوم زوجها الثانية ، بعد أن زرقتها بإبرة لمنع الحمل تسري في دمها ثلاثة أشهر .

زاد بُكاؤها عندما تذكرت يوم هروبها ، وكيف قبض عليها رجال الحسبة لعدم ارتدائها الزي الشرعي ، وأعادوها إلى منزل ذي الندبة فحبستها زوجته في حجرة التعذيب تسعة أيام كاملة لحين عودته ، وفرض عليها عقاب الفلقة كما فعل معي بمئة جلدة وأضاف لها أشياء في السرير الفلقةُ أمامها لا تعدو مجرد صفعة .

اقترب مني صوتها ، كان هادئاً وواثقاً :

«لن نخسر شيئاً إذا حاولنا الهرب يا فيروز ، لن يضيفوا إلى عذابنا شيئاً لو أمسكوا بنا . وإن نجحنا سيتولى الجيش العراقي أو البيشمركة البحث عن كَلي وشقيقتي . وسيجدونهن بلا شك» .

بعد أسبوع استطعت المشيء ببطء ، وصِرت أجلس على الأرض قُرب الباب الخشبي المؤدي إلى باحة المنزل ، والذي أبقته أم القعقاع مغلقاً على الدوام ، واحتفظت بمفتاحه في مكان سري كإجراء إحترازي أتبع منذ أن حاولت فريال الهرب قبل ذلك بأشهر .

«بماذا نختلف عنهم لكي يصبحوا أسياداً ونحن عبيداً لهم» سألت نفسي ذات مرة وأنا أراقب من مكاني كلثوم تلعب بأشيائها إلى جوار أمها ، التي كانت تهتز إلى الأمام والخلف مندمجةً بقراءة القرآن .

«هل خُودي هو الله حقاً كما قالت لي شيرين . أتراها اكتشفت الفرق بينهما ولهذا قتلت نفسها . من منهما الأقوى لكي أبتهل إليه . الذي يقتلون ويخطفون وينتهكون باسمه الأعراض أم الذي تحجبه السقوف فلا يرى ولا يسمع» .

***

عصر اليوم العاشر قمتُ لأريح نفسي من تعب الجلوس ، فسمِعتُ صوت المفتاح يتقلب في قفل الباب . وثبتُ إليه وسحبت مقبضه ، فانفرج عن جسد ذي الندبة الضخم ولم تكن كَلي برفقته . جاوزته بخطوات إلى الخارج وعدتُ لأهبط على رجليه ، فربما يكون في صدره قلب يلين . قبلت حذاءه مراراً حتى تبلل بدموعي . قال لي وهو يفتح ذراعيه لابنته :

«تعطين ما لغيرك تأخذين ما لك» .

ثم رفعها إلى صدره ودفعني برجله جانباً ، ودخل يسمي باسم الله .

تجاهلت أم القعقاع توسلاتي لها ولم تبالِ بالقرآن الذي رفعته أمامها ؛ لكي تقنع زوجها فيعيد لي كَلي ، وقبل أن

تختفي معه في غرفة النوم إلى صباح اليوم التالي ، وضعت كفها على رأسي ، أغمضت عينيها وقرأت شيئاً بصوت غير مسموع ، ثم نفخت الهواء في وجهي وذهبت .

لم تكن صُرة آلام فريال تُفتح إلا حينما يهبط الظلام ويحجبنا عن بعض . كانت تشعر بأمان أكثر عندما لا تجد عيني ترصدها ، وهي تبث في العتمة حزنها ، وفي تلك الليلة كان الهلع يطغى على صوتها كلما دنا الصباح ؛ لأن موعد خضوعها لتعذيبه قد اقترب :

«يصلي ركعتين قبل أن يفعل معي ذلك الشيء . ويجبرني على ارتداء ثياب داخلية شفافة ، والمشي أمامه بين السرير والمرآة» .

تحول نشيجها إلى نوبة سعال لازمتها دقائق حل بعدها صمتٌ قطعتهُ هامسةً :

«اكتشفت المكان الذي تخبئ فيه أم القعقاع مفاتيح المنزل الاحتياطية» .

أجبتها مصممةً :

«سيخبرني عن مكانها في الغد . لقد وعدتها يا فريال ولن أذهب إلى أي مكان من دونها» .

***

كانت الكهرباء قد أنارت البيت قبلها بدقائق ، والمآذن في الخارج تكبر لصلاة الفجر عندما سمعتُ صوت نعليه في

الصالة فركضت إليه . أجفله ظهوري المفاجىء إزاءه ، فرفع يده ليلطمني بها . قلت مستحلفةً إياه برأس ابنته كلثوم أن يسمعني لدقيقة واحدة فقط لكنه استمر في المشي وأنا خلفه أقول له بقلب محروق :

«كنا ثلاث شقيقات يتيمات عندما أخذونا من قريتنا ، لا أحد لنا سوى عمتي التي ضاعت في سجن بادوش ، والصغيرة نعام قُتلت بزجاج التفجير في القصر . أرجوك أرجع كُلي وسأفعل أي شيء تريده . أرجوك» .

دار بجسده فجأة وأطبق بيده القوية على رقبتي ، رفعها قليلا حتى وقفتُ على رؤوس أصابعي ثم دفعني بسرعة وألصقني بجدار الحمام . مر ببالي كالطيف وأنا أختنق من ضغط يديه حُلم يوم بدأت فيه مصائبنا . زمجر وندبتهُ أمام عيني :

«ستباع اليوم مع صلاة الظهر ، ولن تريها إلا في جهنم» .

رفع يده عني وتركني أسقط على الأرض ، عندما سمع صوت امرأته تقول «لا حول ولا قوة الا بالله» .

جثوتُ على ركبتيّ مثلما يفعلون بين سجدتي صلاة ، متحرية عن فرصة للكلام ، لكنه قال موجهاً لي إصبع تهديد :

«أنت ملكي ، حياتك وموتُك سببهما أنا بإذن الله ، ولولا خوفي من معصية ربي لأحرقتك بنفسي ، أو في الأقل سحلتك من شعرك إلى هناك» وأشار إلى غرفة نومه الثانية .

تابع بعد أن ألقى نظرة قصيرة على زوجته :

«مُهلتك تنتهي مع أول تكبيرة لصلاة الظهر» .

توقفت المصيبة بما فيها من ثقل وظلم فوق رأسي مباشرة ، وصارت حياة كَلي وعودتها إلي معلقتين بقراري . كانت المرة الأولى التي تنتظر فيها الحياة قراراً مني ، قراراً بقطع الحبل الذي يربطني بها لأسقط في قعر سحيق .

أعادتني فريال إلى الحجرة التي كان الضوء يتسلل إليها ببطء . وضعت رأسي في حِجرها ونحن على الأرض بين الأسرة . مسحت جبيني بيدها وبقينا صامتتين ، فلا ظلام لنمنح امتداده فيض همومنا ،ولا شيء يقال ليتغير به مصير أي منا . وعندما أكملت أشعة الشمس إشراقتها ، وقفت أم القعقاع في الباب وأشارت لفريال برأسها وهي تردد اسم الله أن تتهيأ لميعادها . مسحت فريال خدي بظهر يدها وقالت بصوت حنون :

«سأضع وسادة تحت رأسك ، أريحي نفسك حتى أعود» .

وضعت ساعدها تحت رأسي وأرادت سحب رجليها ، لكنني أوقفتها ونهضت واقفةً وهي تراقبني مندهشة . اختلط علي الصوت ولا أدري إن كنت أنا أم شيرين التي صرخت تقول لها :

«ابقي هنا ، لن تذهبي إلى أي مكان» .

التفتُ إلى أم القعقاع المتسمرة في مكانها ، سألتها مادةً يدي إلى أمام :

«أين الكيس الأحمر» .

رددت جُدران عمارات باب الطوب صدى نشيدِ صليل الصوارم المنبعث من مكبرات صوت سيارات الدفع الرباعي سوداء اللون ، فتجمع العشراتُ من الفضوليين وأنصار الدولة المتحمسين في حلقة واسعة ، بإنتظار تنفيذ الحكم الذي دعت إلى مشاهدته في إعلانات متكررة ، وعلى مدى يومين إذاعة البيان الناطقة باسم الخلافة ، وشاشات النقاط الإعلامية الموزعة في مختلف مناطق الموصل .

تحركت بعدها مركبة عسكرية مصفحة خاصة بنقل السجناء ، شاقةً طريقها بهدوء بين الحشد ، وعلى جانبيها رتلان من المسلحين الملثمين ، وبنادقهم موجهة نحو الناس وأسطح العمارات وشرفاتها . لف صمت مطبق المكان بأسره عندما أصدر الباب الخلفي للمركبة صريراً تضخم بالصدى . ترجل مسلحان أولاً والتفتا مادين أذرعهما لإنزال الحاج بومة ، وهو معصوب العينين ومقيد اليدين إلى الخلف ، وعليه ثياب المحكومين بالإعدام برتقالية اللون .

أحاطه المسلحون ومضوا به إلى وسط الحلقة ، قبل أن يتركوه هناك ويتوزعوا بحركة نظامية ، متخذين أوضاعاً دفاعية

ووجوههم ناحية الجمهور . صاح صوت عالٍ :

«الدولة الإسلامية باقية»

رد الحاضرون :

«باقية وتتمدد» .

وصل مُراد في تلك الأثناء ، وما إن رأى الحاج بومة واقفاً ورأسه مائلاً نحو اليمين في المكان ذاته الذي كان يطلق منه الطيور ، مانحاً إياها حريتها حتى شعر بوجع في صدره ، وبرغبة شديدة في الصراخ بأن الرجل بريء ، وأنه هو من يتحمل مسؤولية كل شيء بسبب سعيه وراء قلبه وأنانيته .

وقف شخصان خلف الحاج بومة ، وضع أحدهما يديه على كتفيه وجعله يجثو على ركبتيه ، بينما قرأ الثاني بصوت جهوري قرار الحُكم :

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ .

ترجل من مركبة مصفحة أخرى مركونة سيافٌ ملثم طويل وضخم ، مرر إبهامه الكبيرة على نصل سيفه وقربه من وجهه ليتأكد من حدته ، ثم مشى بخطوات واسعة ووقف إلى الجانب الأيمن من الحاج بومة . واصل الشخص قراءة الحكم :

«ثبت لدى المحكمة الشرعية أن المدعو (خليل إبراهيم المعروف بالحاج بومة) قام بجرائم ومخالفات عديدة أخطرها

شراؤه للسبايا ، وقيامه بالتنسيق مع المرتدين بتهريبهن إلى خارج حدود الدولة الإسلامية ، ليرجعن إلى الشرك والكفر اللذين كُن قد تطهرن منه ؛ لذا حكمت عليه المحكمة الشرعية بالقتل ضربةً بالسيف ، جزاء على ردته وما اقترفه ، وليكون عبرة لغيره ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

دفع السياف الحاج بومة من رقبته ، فمال برأسه إلى الأمام وارتفع السيف إلى فوق . تذكر مُراد والدموع في عينيه يوم قال له الحاج بومه :

«هؤلاء ينتقلون لاحقا إلى مرحلة الخوف من الدولة الإسلامية ذاتها التي أتوا من أجلها ؛ لأن أبسط تمرد يظهرونه تكون عقوبته القتل بتهمة الردة . يمكنني رؤيةُ هذا الخوف في أعينهم . إنهم عالقون ولا يريدون الموت» .

لمح مع هبوط السيف ابتسامةَ مديره . أطلقها أخيراً صافيةً ووديعةً ، مستقبلاً بها وبشجاعة ميتةً اختارها وسعى إليها بنفسه . أطبق مراد جفنيه حين وصل السيف إلى هدفه ، أراد أن يظل الحاج بومة المكتمل بإنسانيته مكتملاً بجسده أيضاً في ذهنه ، والتفت ليذرف دموع حزنه بعيداً ، فيما كان الجمهور المنتشي لمنظر الدماء يصيح :

«الله أكبر ، الله أكبر» .

هُشِمت الزجاجةُ وتناثرت شظاياها في كل صوب . دقائق قليلة كانت كفيلةً بتحويلي من فيروز فتاة البصل إلى امرأةٍ قبيحةٍ لمحتُ صورتها ، في المرآة ، وأنا أتملص من بين يديه وأمضي يسوقني ذلي وإنكساري لأنتظر كَلي التي كُنت قد اشتريتها للتو بأغلى ما أملك .

تلقفتني فريال في الخارج وهبطت بي إلى الحجرة لتنظِف هناك بيدٍ خبيرةٍ ما علق بي من قذارته الممزوجة بدمائي . شعرتُ ببردٍ شديدٍ وجسدي المُدنس كان يرتعِش ، وهنالك في عمق قصي بداخلي كانت رغبتان تتصارعان ، رغبةٌ أرادت تطهيري بالموت وأخرى قاومتها بأمل عودةِ كَلي .

خف وجعي قليلاً عندما أعلمتني فريال بمغادرة أبو الندبةَ المنزل . كان ذلك يعني بأن كَلي ستكون في حِجري ذلك اليوم . رجوت فريال بعدم إخبارها بأي شيء مما حصل ، وأن تحاول قدر الإمكان توخي الحذر في الإجابة عن أسئلتها المتعلقة بي ؛ لأن كَلي ماهرة في الاستنتاجات ، واقترحت الذهاب بها مباشرة إلى الحمام فور وصولها ثم إلى فراشها على الأرض ، فلا شك أنها متعبة .

التزمت مكاني خلف باب الخروج الخشبي ما إن سمعت صوت تكبيرة الآذان لصلاة الظهر ، مترقبةً صوت القفل وفرحة كَلي بلقائنا . وبعد مرور ساعة بدأت أتخيل صوتها ينادي عليّ ، فطلبت من أم القعقاع الباردة كالصقيع أن تفتح الباب لأنني لا أخطئ صوتها :

«إنها هيّ لقد عادت وتريد الدخول» .

مرت تكبيرات صلوات العصر والمغرب والعشاء وأنا ملتصقة بالباب ، متشبثة بأمل أن يبر مُغتصبي بعهده ويعيد لي ما قبض ثمنه من لحمي . قلت لزوجته ورأسي مصدوع :

«اتصلي به إفعليِ أي شيء» .

فردت مستعيذة من الهواتف وما سواها من الأجهزة الملهية عن ذكر الله ، وطلبت مني الذهاب إلى منامي ؛ لأن غياب زوجها إلى المساء يعني أنه لن يرجع إلا بعد مرور عشرة أيام .

«وكَلي» سألتها وأنا أضرب رأسي بيديّ جاثيةً لجولة نحيبٍ انتزعتني منها فريال إلى الحجرة ، وأوصدت الباب .

قالت وهي تضمني إليها :

«كان عليّ الذهاب إلى غرفته بدلاً منك ، كُنت واثقة من أنه يكذب» .

«ماذا تعنين هل كَلي ضاعت إلى الأبد؟» .

«ويعني كذلك أن علينا استعجال الهرب من هنا» .

***

في اليوم السابع طُرق باب الخروج الخشبي بعنف ، فركضت إليه وخلفي أم القعقاع وبيدها مفاتيحها . كانوا أربعة دواعش يحملون أبو الندبة وعلى ساقيه ورأسه ضمادات مصطبغة بدماءٍ متيبسة . قالوا بأنه نجا من قصف للكفار وجراحهُ ليست عميقة ، ثم مددوه على سرير غرفته الأولى .

تعاملت أم القعقاع مع حالة زوجها كأمر معتاد ، واكتفت بوضع غطاء عليه ، وهبطت لتنشغل في الصالة بصلاة شُكرٍ طويلة . كان يئن مثل كبش مذبوح عندما دخلت إلى الغرفة وسألته :

«أين كَلي . لماذا كذبت عليّ؟» .

رد بصعوبة وجفناه بالكاد يفُتحان :

«صار لها بيتها وحياتها ، اتركيها لشأنها واهتمي بشؤون بيت سيدك» .

لا أذكر كيف وصلت إليّ فريال ومتى صرنا داخل حجرتنا . كانت الصُور تظهر أمامي وتغيب ، وحلقي يجرحه الصراخ ، ولا شيء في رأسي سوى قتل الداعشي أبو الندبة .

***

توافد الدواعش لزيارته طوال أسبوع . كانوا يدخلون ويخرجون وأم القعقاع ترافقهم وهي مغطاةٌ بنقابها الأبيض ، تفتح لهم الطريق بآيات قرآنية وتودعهم بالأدعية ، بينما أنا

وفريال محبوستان في الحجرة والمفتاح بحوزتها ، لا تسمح لنا بالخروج منها إلا عندما يغادر آخر داعشي ويهبط الظلام ، لأننا من أملاك زوجها التي لايجوز عرضها أمام الغرباء .

قضيتُ أيام الحبس الجديدة صامتةً ومكتفية بالاستماع إلى فريال ، وهي تقرأ مراراً وتكراراً ما تضمنته مطوية في السبي والرقاب حتى حفظتها كاسمي . كانت تقول في كل مرة تنتهي فيها من القراءةً بأن أمامنا فرصة واحدة فقط بالنجاة ، إذا التزمنا بشرع الإسلام وهي قيام شخص بشرائنا ومن ثم إطلاق سراحنا :

«حتى لو مات أبو الندبة سنصبح تركةً ويجوز لأم القعقاع بيعنا لآخرين كخادمتين» ، كانت تقول لي ذلك باستمرار ناظرة إلي بطرف عينها ، وتصطاد في الليل أسمن ذكرياتها ، ولا يوقف بكاءها وشكواها سوى النوم أو الصباح .

رأيت نعام وكَلي تحشيان دميةً بالصوف وهما جالستين حيث اعتادتا في باحة منزلنا الصغير ، وأمي إلى جوارهما تكور قطع العجين وتوزعها في الصينية الواسعة . كنت معهن في الباحة أستمع إلى ما تقولانه ، أختايّ وفي الوقت نفسه مع فريال في الغرفة وهي تنوح دون أن يكون بوسعي قول شيء أو تحريك أي من أطرافي ، ثم جاءت سيارات الدواعش ترفرف فوقها الأعلام السود ، ودخل عليهن كثيرون مثل النمل يضحكون ، والنيران تخرج من بنادقهم المصوبة نحو أجسادهن

في الباحة والحجرة ، وانا أصرخ بأعلى ما يستطيعه صوتي لمنعهم . استيقظت فزعة وفريال إلى جواري تحاول تهدئتي ، قلت لها وأنا أفتش عن يدها لأمسك بها :

«يجب أن تهربي من هنا» .

أجابتني آملةً «وأنت معي» .

قلتُ بعد تفكير :

«سأهرب معكِ» .

***

حالما سمحت لنا أم القعقاع بمغادرة الحجرة طلبنا منها خيطاً وإبرة بحجة ترتيق ثوبي . صنعنا بهما من عباءة قديمة اختطفناها قبل أن تتحول إلى قطعة مسح نقابين وكفوفاً كيفما اتفق ؛ لمجرد إخفاء أيدينا ، وخبأناها في كيسي وسادتينا . وقامت فريال خلال تواجدها لغسل الأطباق في المطبخ بأخذ سلسلة مفاتيح المنزل الاحتياطية من علبة حلويات مدفونة تحت أكياس الحمص والعدس والفاصوليا في أحد الدواليب . وفي اليوم التالي بدأنا خطة هروبنا .

كان أبو القعقاع يفعل كل شيء تقريباً وهو في سريره ، يصلي ويأكل وينام فيه ويقضي حاجته جالساً على كرسي مخلوع في الحمام الملحق بغرفته ، وكانت زوجته وابنته متواجدتين معه في الغالب باستثناء أوقات الصلوات . تأكدنا

من كل شيء بدقة ، ووجدنا بأن أنسب وقتٍ لهروبنا هو ما بعد صلاة الفجر ، إذ تعود أم القعقاع إلى الغرفة لتكمل ساعتي نوم إضافيتين ، وفي الخارج تكون الشوارع قد استيقظت الحركة فيها للتو ، ويمكننا الاعتماد على خبرة فريال القليلة بالمدينة في ركوب سيارة أجرة توصلنا إلى بيت مسلمين في الموصل ، تربطهم بعائلتها علاقة سنوات طويلة . ودون أن تدري أخفيت المئتي دولار في إحدى الكفين وأعدتها إلى مكانها وقلبي متوجه بالشكر إلى الحاجة رقية .

وقفنا مع أم القعقاع في صلاة الفجر متيقنتين أنهما آخر ركعتين لنا ، لذا لم نهتم بطولِهما بقدر أن نجدها في النهاية تدخل غرفتها ونستمع إلى صوت الباب يقفل من الداخل . وزعت علينا ، وهي تلف سجادتها ، مهام مسح الأرضيات وغسل الملابس وإعداد الفطور ، ثم صعدت والفانوس يتمايل بيدها ، وبعد قليل سمعنا طقطقة المفتاح .

جربت فريال المفاتيح واحداً بعد الآخر بحذر شديد وأنا ممسكة بالنقابين والكفوف . جفلنا نحن الاثنتين حين ند مع دوران المفتاح الرابع صوتٌ عن القفل . تبادلنا نظرات نصرٍ وانتظرنا دقيقتين أو ثلاثاً لنتأكد من أن الصوت لم يُسمع ثم عاودت فريال الكرة وفُتح الباب ، فتسللنا عبره وأوصدناه خلفنا بهدوء .

ارتدينا الكفوف ونقابينا وتخطينا خافِضتين رأسينا باحة

المنزل الفسيحة نحو الباب الخارجي الحديدي ، فوجدناه غير مقفول تماماً مثلما توقعت فريال ، مستعينة بخبرة هروبها السابقة . كانت المساحة التي أمامنا حتى نهاية الزقاق الخالي هي أطولُ مسافة حريةٍ لي منذ أشهر كثيرة قطعناها راكضتين على الرصيف بمحاذاة جدران المنازل ، ثم انعطفنا يميناً في زُقاق آخر يفضي مباشرة إلى الشارع الرئيسي . أبدلنا الجري بمشي سريع حالما شاهدنا سيارةً مقبلة نحونا . قالت فريال وهي تمسك بيدي :

«لا تقلقلي فلن يتعرف علينا أحدٌ ، دقائق فقط ونصبح حرتين» .

فكرت بالذي سأفعله بحريتي من دون كَلي ، إلى أين أهرب وإلى من . ستجد فريال أقرباء لها وهي حرة طليقة ، وربما تعثر على شقيقتيها في يوم ما . أما أنا فلم يكن لي أحد ألجأ إليه ، ومستحيلٌ العثور على كَلي إذا لم يَدُل على مكانها أبو ندبة .

قالت فريال حين بلغنا الشارع الرئيسي :

«نحن في شرق الموصل ، وعلينا الآن إيجاد سيارة تقلنا إلى المنطقة التي فيها الجامعة» .

تلفتت سريعاً ثم قالت وهي غير متأكدة :

«ربما علينا الذهاب إلى الجانب الآخر» .

شعرت مع اقترابنا من الخلاص شيئاً فشيء أنني أبدل

خلاصي بسجن أبدي تقبع فيه كَلي . كان لا بد من بقائي في ذلك البيت وانتظار حدوث معجزة ، ومن يدري فقد يكافؤني أبو الندبة على عودتي فيُرجع لي شقيقتي .

«حسنٌ» قالت فريال وهي تشير إلى سيارة :

«علينا التحدث بعربية سليمة . نقول له إلى منطقة الجامعة ، وعندما نصل إلى هناك نخبره بأننا لانملك نقوداً» .

خففت السيارة سرعتها وركنت أمامنا . فتحت فريال الباب الخلفي وصعدت مباشرة بعد موافقة السائق على إيصالنا وجلست في المعقد الآخر . بقيتُ في الخارج ويدي على الباب ، انتظرتني قليلاً ثم مالت بجسمها وقالت بالعربية :

«هيا اركبي» .

نزعتُ كف يدي اليسرى على عجل ، أخرجت منه المئتي دولار ومددتهما إليها . رفَعت النِقاب عن وجهها وقالت متفاجئةً :

«ماهذا ماذا تفعلين؟»

أجبت مانعة نفسي من البكاء :

«لقد وعدتها يا فريال» .

قلت للسائق وأنا أُلقي بالنقود على المقعد بجانبها :

«أرجوك أوصلها بسرعة» .

ثم أوصدت الباب والتفتُ راكضةً بأقصى ما أمكنني من سرعة عائدة إلى منزل أبو الندبة .

-٣٤-

احتاج مراد إلى ساعاتٍ من العزلة يعصر فيها حُزنه على رحيل الحاج بومة ، قبل أن يعود ليستقر في قريته بناء على وصية واجبة التنفيذ ألحت بها والدته وكفنها بين يديها ، مختتماً بذلك رحلة بحثه الخائبة عن فيروز ، التي أبقاها القدر مخفيةً في كيس احتمالاته بعيداً عنه . وبعد جولة وداعية طاف بها أرجاء الموصل مشياً على الأقدام ، استذكر فيها تنقلات العمل اليومية مع مديره ، أطلق من المكان نفسه الذي أعدِم فيه حمامةً بيضاء ، متمنياً لروحه السلام ولنفسه قدرة مستحيلة على النسيان .

لملم في المساء وفي ضوء الفانوس أشياءه في حقيبةٍ صغيرةٍ متهيئاً للمغادرة في الصباح الباكر ، وحين وقعت عيناه على سجل وفيات شهر نيسان شعر بشيء من الراحة ؛ لأنه ذكرى مادية وحيدة متبقية من الحاج بومة ، بعد أن صادرت الدولة الإسلامية منزله بما فيه من سجلات وكُتب وأسرار .

تأمل العنوان على الغلاف ، والذي كان قد خطه بنفسه بحروف كبيرة سوداء ، وابتسم عندما تذكر الحاج بومة يقول له ذات مرة بينما كان هو يكتب في السجل :

«خطك جميلٌ جداً يذكرني بخط المرحومة جدتي بعد وفاتها بستة أشهر!» .

قلب الأوراق التي فيها بيانات وكانت قليلة ، ثم أغلق السجل ووضعه بحركة آلية في حجره ، حيث اعتاد كطقس وظيفي خلال واجبات العمل اليومية ، لمنع أي حالة سرقة أو نسيان تسيء إلى مكانته عند مديره . فجأة تذكر ما طلبه منه الحاج بومة يوم ذهابهما إلى سجن بادوش ، بعدم فتح الورقة المطوية إلا في أوانها . فتح السجل متلهفاً وعند النصف تقريباً وجد الورقة فعدلها برفق ، ليجد خاناتها مملوءةً بالبيانات . قرب الفانوس إليه وشرع يقرأ في خانة التفاصيل :

«عزيزي أبو ريشة ، ستكون هذه الصفحة خاتمةً لعملٍ استمر نحو خمس وستين سنة ، وثقت خلالها نهايات الآلاف من الناس ، غير آبهٍ بالأمر الأساسي الذي وجدوا من أجله وهي حياتهم ذاتها حتى ظهرت بلحيتك المنتوفة لتثبت لي خطأي الفادح ، وتعلمني ما عجز عنه مشواري الطويل وكل الكتب التي قرأتها ، في أن النهاية ليست سوى نقطة يختتم بها السطر ، وأن الأشياء المكتوبة قبلها . هي التي كانت تستحق أن أنفق لأجلها ما فات من عمري . أعترف بأنني شعرت بغيرة شديدة من سعيك النبيل لمنح الحرية إلى شخص لم يبادلك حرف كلام وجازفت في سبيل ذلك بكل شيء حتى حياتك . لذلك كان لزاماً علي أن أجاريك وأصبح ولو لمرة

واحدةٍ في حياتي إنساناً حقيقياً مثلك . شكراً لك» .

مرر أصابعه فوق كلمات الحاج بومة كأنه يصافحه ، ثم قرأ ما في الخانات بالأعلى ، تاركاً لمجرى الدمع سيل الانهمار :

الاسم : خليل إبراهيم أحمد .

اللقب : حاج بومة .

العمر : اثنتان وسبعون سنة .

سبب الوفاة : ضربة سيف .

مكان الدفن : الموصل .

انتهى

سيرة المؤلف:

نوزت سالم خليل شمدين آغا ، يكتب باسم نوزت شمدين .

ولد في منطقة الفيصلية بمدينة الموصل في الأول آب من عام ١٩٧٣ ، أكمل فيها دراسته الأولية ، وحصل على شهادة البكالوريوس في القانون من كلية الحدباء الجامعة في دورتها الأولى . عمل في نطاق المحاماة ثمان سنوات قبل أن يتركها ويتفرغ على نحو كامل للصحافة .

بقي نوزت في مدينة الموصل بخلاف باقي أفراد أسرته الكردية السنية المعروفة ، والتي تقاسمتهم المنافي خلال العقود الأربعة الفائتة أو بقوا في مدينة زاخو شمالي العراق ، التي تعد موطن العائلة الأصلي . بدأ مطلع التسعينيات بنشر مقاطع صغيرة في صحيفة الحدباء وصحف بغداد الأسبوعية واليومية ، كتب الشعر في بدء مشواره ، ثم انتقل إلى عالم القصة القصيرة ، فكتب ونشر العديد منها في العراق وخارجه ، وشارك في إصدارين من كتاب «قصص من نينوى» ، وحصل على جوائز تقديرية ، لتأتي سنة ٢٠٠٢ ويصدر روايته الحقيقية «نصف قمر» التي مثلت انطلاقته الحقيقية .

بعد ٢٠٠٣ عمل محرراً في جريدة «وادي الرافدين» ثم «مستقبل العراق» ، وفي أواخر ٢٠٠٤ عمل مراسلاً لجريدة

المدى اليومية في الموصل ، واستمر في عمله لغاية السادس من آذار ٢٠١٤ قبل أن يغادر مع عائلته إلى النرويج . نشر في جريدة المدى وعلى نحو يومي على مدى تلك السنوات ، الآلاف من الأخبار والتقارير والتحقيقات والمقابلات عن مدينة الموصل ، حتى إنه كان يقول ممازحاً أصدقاءه لقد كتبت عن كل سنتيمتر من مدينتي وما زلت أشعر بالتقصير حيالها .

وعمل خلال تلك الفترة مراسلاً لموقع نقاش الألماني ، واستمر كذلك حتى أصبح محرراً فيه بالعاصمة برلين في آب ٢٠١٤ . نشر في هذا الموقع العشرات من القصص والتقارير الإخبارية وعمل أيضاً مراسلاً لمجلة WPI الألمانية الاقتصادية ، وكتب لها عن شأن الموصل الاقتصادي والتحديات التي واجهتها المدينة في هذا الخصوص بين سنتي ٢٠٠٩- ٢٠١١ .

وعمل محررا في جريدة عراقيون ومديراً لموقع وكالة أنباء عراقيون ، لكن أهم ما فعله كان إصداره جريدة «ثقافات» الأدبية الشهرية ب ٣٦ صفحة . مثلت أول مطبوع أدبي من نوعه في نينوى ، فُتح أبوابه لجميع الأقلام الأدبية دون استثناء لحداثوي أو كلاسيكي لسياسي أو مستقل .

بين ٢٠٠٤ و٢٠١٤ عمل نوزت شمدين عضواً في الهيئة الإدارية للاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين ، وفاز في ثلاث دورات انتخابية . وتعرض بسبب عمله الصحفي وجرأته في الطرح إلى ثلاث محاولات اغتيال اثنتان منها كانتا وشيكتين ،

الأولى في شارع النجفي في الشهر العاشر سنة ٢٠١٣ ، وبعدها بأسابيع قليلة في منطقة القوسيات شمالي مدينة الموصل . وهكذا قرر الرحيل مع زوجته وأطفاله الثلاثة ككاتب ضيف إلى مملكة النرويج ، التي فتحت أمامه أبواب العطاء بمنحه حرية الكتابة والسفر . فكانت فرصته الكبيرة في طرح قضية الموصل التي تبناها على نحو شخصي ، وصار يجوب العواصم الأوربية متحدثاً عن الظلم الواقع عليها ، ويروي هناك قصة تدميرها . فعل ذلك في مؤتمر الكابيتال في ستافنجر النرويجية ، وفي العاصمة الهولندية أمستردام خلال مؤتمر الأيكورن ، وفي مهرجان مولدة النرويجي ، وفي جلسة دورية لحكومة تليمارك جنوب شرق مملكة النرويج ، وكذلك في بلدية العاصمة الفرنسية باريس ، وجال أيضاً في السويد وفنلندا وألمانيا والدنيمارك وتونس وتركيا ، ليلقبه أصدقاؤه ومعارفه بسفير العراق أو الموصل .

قام شمدين بتدريب صحفيين عراقيين في ورش تطويرية في العاصمة التركية أسطنبول وحاضر في معهد الصحافة العالي في العاصمة النرويجية أوسلو .

أصدر شمدين كتاب «قادمون يا عتيق» أواخر ٢٠١٤ ، وهو أول كتاب مقاوم يصدر ضد احتلال داعش لمدينة الموصل ، ووزع فيها على نحو محدود . وقبلها كان قد أصدر كتاب مقالات عنوانه «الموصل في بكين» ، ونشرت له منظمة

الأولى في شارع النجفي في الشهر العاشر سنة ٢٠١٣ ، وبعدها بأسابيع قليلة في منطقة القوسيات شمالي مدينة الموصل . وهكذا قرر الرحيل مع زوجته وأطفاله الثلاثة ككاتب ضيف إلى مملكة النرويج ، التي فتحت أمامه أبواب العطاء بمنحه حرية الكتابة والسفر . فكانت فرصته الكبيرة في طرح قضية الموصل التي تبناها على نحو شخصي ، وصار يجوب العواصم الأوربية متحدثاً عن الظلم الواقع عليها ، ويروي هناك قصة تدميرها . فعل ذلك في مؤتمر الكابيتال في ستافنجر النرويجية ، وفي العاصمة الهولندية أمستردام خلال مؤتمر الأيكورن ، وفي مهرجان مولدة النرويجي ، وفي جلسة دورية لحكومة تليمارك جنوب شرق مملكة النرويج ، وكذلك في بلدية العاصمة الفرنسية باريس ، وجال أيضاً في السويد وفنلندا وألمانيا والدنيمارك وتونس وتركيا ، ليلقبه أصدقاؤه ومعارفه بسفير العراق أو الموصل .

قام شمدين بتدريب صحفيين عراقيين في ورش تطويرية في العاصمة التركية أسطنبول وحاضر في معهد الصحافة العالي في العاصمة النرويجية أوسلو .

أصدر شمدين كتاب «قادمون يا عتيق» أواخر ٢٠١٤ ، وهو أول كتاب مقاوم يصدر ضد احتلال داعش لمدينة الموصل ، ووزع فيها على نحو محدود . وقبلها كان قد أصدر كتاب مقالات عنوانه «الموصل في بكين» ، ونشرت له منظمة